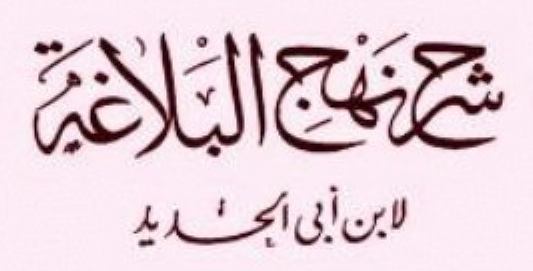


تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع عشر

١٩٦٣

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بيـــان

يشتمل هذا الجزء على شرح طائفة من مختار حكم أمير المؤمنين ومواعظه وأجوبة مسائله والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه ؛ وهو القسم الثانى مما اختاره له الشريف الرضىّ فى كتاب «نهج البلاغة» ؛ وينتهى هذا القسم فى أثناء الجزء التالى .

وقد روجع على الجزء الرابع من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ، وهى التى رمزت لها بالحرف ا .

وأصل هذا الجزء يقع فى ٩٠ ورقة مسطرتها ٢٥ سطرا ، فى كلّ سطر ١٣ كلمة تقريبا ، مكتوب بخط نسخ معتاد قليل الشكل ، ولم يتضح اسم ناسخه ولا تاريخ نسخه ، ويبدو أنه كتب فى القرن الحادى عشر .

كما روجع على مايقابله من المجلد الأخير من النسخة المحفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ ـ أدب ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف د ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر من هذه الطبعة . وعلى النسخة المطبوعة فى طهران سنة ١٢٧١ عن أصلها المخطوط فى هذا التاريخ ، والتى رمزت لها بالحرف ب .

والله الموفق للصواب .

٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هـ
٢٨ يوليه سنة ١٩٦٣ م

محمد أبو الفضل إبراهيم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ — ٦٥٦)

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٨٦)

الأصْـلُ :

إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا ، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ ؛ وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ، وَلاَ يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلاَ يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ؛ فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ ؛ وَهَـذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً ، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا ، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا !

***

الشَّـرْحُ :

قد سبق ذرء[1] من هذا الكلام فى أثناء خطبته عليه السلام ، وقد ذكرنا نحن أشياء كثيرةً فى الدنيا وتقلّبها بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : طوبَى للهارب من زخارف الدنيا ، والصادّ عن زَهرة دِمنَتِها ، والخائف عند أمانها ، والمتّهم لضمانها ، والباكى عند ضحكها إليه ، والمتواضع عنـد إعزازها له ، والناظر بعين عقله إلى فضائحها ، والمتأمّل لقبح مصارعها ، والتارك

(١) ذرء : أى طرف .

لـكلابها على جيَفها ، والمـكذّب لمواعيدها ، والمتيقّظ لخدَعها ، والمعرض عن لُمَعها ، والعامل فى إمهالها ، والمتزوّد قبل إعجالها .

قوله : « تنتضل » النَّضْـل شىء يرمى ، ويروى « تبادره » أى تتبادره ، والغرض : الهدف .

والنّهب : المال المنهوب غنيمة ، وجمعه نِهاب .

وقد سبق تفسير قوله : « لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى » ، وقلنا : إنّ الّذى حصلت له لذّة الجماع حالَ ماهى حاصلة له ، لابدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكله وشربه لذّة الرّكض على الخيل فى طلب الصّيد ، ونحو ذلك .

قوله : « فنحن أعوان المنون » ؛ لأنّا نأكل ، ونشرب ، ونجامع ، ونركب الخيل ، والإبل ، ونتصرّف فى الحاجات والمآرب ؛ والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب ، إمّامن أخلاط تحدثها المآكل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابّة هو راكبها ، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرط ، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عنـد تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ، ونحو ذلك ؛ فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا .

قوله : « نصب الحتوف » يروى : بالرفع والنصب ، فمن رفع فهو خبر المبتدأ ، ومن نصبه جعله ظرفا .

(١٨٧)

الأصْلُ :

لاَ خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ ، كَمَا أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تكرّر ذِكْرُ هذا القول ، وتكرّر منا شرحُه [١] وشرحُ نظائره .

وكان يقال : ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .

وكان يقال : اللّسان عضوٌ إنْ مرّنته مرَن [٢] ، وإن تركته خزِن [٣] .

---

(١) ا « شرح له » .

(٢) ا : « تمرن » .

(٣) خزن : تغير وفسد .

الأصـل :

يابنَ آدمَ ، ما كسبْتَ فوقَ قوتِكَ ، فأنتَ فيهِ خازنٌ لغيرِكَ .

***

الفـرع :

أخذ هذا المعنى بعضهم؛ فقال :

مالى أراكَ الدهــر تجمعُ دائباً أَلِبَعْلِ عِرْسِكَ لا أبالك تجمَعُ !

وعاد الحسنُ البصريُّ عبدَ الله بن الأهتم فى مرضه الذى مات فيه ، فأقبل عبدُ الله يَصرف بصرَه إلى صُندوق فى جانب البيت ، ثم قال للحسن : ياأبا سعيد ، فيه مائةُ ألفٍ لم يؤدَّ منها زكاة ، ولم توصَل بها رَحِم ؛ قال الحسن : ثَكِلَتْكَ أمُّك ! فلِمَ أعددْتَها ؟ قال : لِرَوْعة الزّمان ، ومُكاثَرة الإخوان ، وجفوة السلطان .

ثم مات ، فحضرالحسن جنازتَه ، فلما دُفن صَفَق[1] بإحدى راحتيه الأخرى، وقال : إنّ هـذا أتاهَ شيطانه ، فحذّره رَوْعة زمانه وجفوةَ سلطانه ، ومكاثَرة إخوانه ، فيما استودَعه اللهُ إيّاه فادّخره ؛ ثمّ خرج منه كئيبا حزينا ، لم يؤدّ زكاةَ ، ولم يَصِل رَحِما . ثمّ التفت فقال : أيّها الوارث ، كلْ هنيئا ، فقد أتاك هذا المالُ حلالا ، فلا يكن عليك وَبالا ، أتاك ممّن كان له جَموعا مَنوعا، يرْكَب فيه لُجَجَ البحار ، ومَفاوِزَ القِفار، مِن باطلٍ جَمعه ، ومن حَقٍّ مَنَعه ، لم ينتفِع به فى حياته ، وضرّه بعد وفاته ، جمعه فأوْعاه ، وشدّه فأوْكاه[2] إلى يوم القيامة ؛ يوم ذى حَسَرات ، وإنّ أعظَمَ الحسرات أن ترَى مالَكَ فى ميزانِ غيرِك ؛ بخلتَ بمالٍ أُوتيتَه من رزقِ اللهِ أنْ تنفقه فى طاعة الله ، فخزنْتَه لغيرِك ، فأنفَقَه فى مرضاة ربِّه ، يالها حَسْرةً لا تُقال ، ورحمةً لا تُنال ! إنّا لله وإنّا إليه راجعون !

---

(١) التصفيق : ضرب له صوت مثل الصعق .

(٢) أوكاه : أحكم رباطه ، من الوكاء ؛ وهو رباط القربة

الأصل :

إنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً، وَإِدْبَاراً ؛ فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القول فى هذا المعنى .

والعلة فى كون القلب يعمى إذا أكره على مالا يحبه ، أنّ القلب عضو من الأعضاء يتعب ويستريح كما تتعب الجثة عند استعمالها وأعمالها ، وتستريح عند ترك العمل ، كما يتعب اللسان عند الكلام الطويل ، ويستريح عند الإمساك ، وإذا تواصل[1] إكراه القلب على أمر لا يحبه ولا يؤثره تعب ، لأنّ فعل غير المحبوب متعب : ألا ترى أنّ جماع غير المحبوب يحدث من الضعف أضعاف مايحدثه جماع المحبوب ؛ والركوب إلى مكان غير محبوب متعب ولا يشتهى ، يتعب البدن أضعاف ما يتعبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً ، وإذا أتعب القلب وأعيا ، عجز عن إدراك ماكلفه إدراكه ، لأنّ فعله هو الإدراك ، وكل عضو يتعب فإنه يعجز[2] عن فعله الخاص به ، فإذا عجز القلب عن فعله الخاص به وهو العلم والإدراك ؛ فذاك هو عماه .

---

(١) ا : « توصل » . (٢) ا : « عاجز » .

(١٩٠)

الأصْل :

وكان عليه السلام يقول :

مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ ! أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الْانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي : لَوْ صَبَرْتَ ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ لِي : لَوْ عَفَوْتَ !

* * *



الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الغضب مرارا .

وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى ؛ قال : لا سبيل لي إلى شفاء غَيْظي عند غضبي ، لأني إمّا أن أكون قادرا على الانتقام فيصدّني عن تعجيله قولُ القائل : لو غَفرتَ لكان أولى ! وإمّا ألّا أكونَ قادرا على الانتقام فيصدّني عنه كوني غيرَ قادرٍ عليه ؛ فإذَنْ لا سبيلَ لي إلى الانتقام عند الغضب .

وكان يقال : العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغضَب، كما تَصْدَأ المرآة بالخلّ ، فلا يَثبُت فيها صورةُ القُبح والحُسْن .

واجتمع سُفيان الثَّوْرِيُّ وفُضَيل [1] بنُ عِياض فتذاكرا الزّهدَ ، فأجمعا على أنّ أفضل الأعمالِ الحِلمُ عند الغضب ، والصبرُ عند الطَّمَع .

---

(١) ا : « الفضل » .

(١٩١)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقَدْ مَرَّ بِقَذَرٍ على مَزْبلةٍ : هَذَا ما بَخِلَ بِهِ الْباخلونَ .

وفِي خبَرٍ آخَرَ أنَّهُ قال : هَذَا ما كُنْتُمْ تَتَنافَسُون فيهِ بالأمْس !

***

الشَّرْحُ :

قد سبق القولُ فى مثل هذا ، وأن الحسَن البَصرىّ مر على مَزْبَلة ، فقال : انظروا إلى بَطِّهم ودَجاجهم وحلْوائهم وعَسَلهم وسَمْنهم ؛ والحسَن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال ابن وَكيع فى قول المتنبي :

لو أفكَر العاشقُ فى مُنتهى حُسن الذى يَسبيه لم يَسبِهِ[1]

إنه أراد : لو أفكَر فى حاله وهو فى القبر ، وقد تغيّرتْ محاسنُه ، وسالت عَيْناه ، قال . وهذا مثلُ قولهم : لو أفكَر الإنسان فيما يئول إليه الطعام لعافَتْه نفسُه .

وقد ضَرَب العلماء مَثلا للدنيا ومخالفةِ آخرِها أولَها ، ومضادّة مَباديها عواقبها ، فقالوا : إنّ شهوات الدنيا فى القَلب لذيذةٌ كشَهَوات الأطْعِمة فى المعِدة ، وسيَجد الإنسان عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنَّتْن والقبح ما يجده للأطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِدة وبلغتْ غايةَ نُضْجها ، وكما أن الطعام كلّما كان ألذّ طَعْما وأظهر حلاوة ، كان رجيعه أقذر وأشدّ نَتْنا ؛ فكذلك كلُّ شهوة فى القلب أشهى وألذّ وأقوى ،

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٢

فإنّ نتنها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ ، بل هذه الحال في الدّنيا مُشاهـدة ، فإن [من][1] نُهبتْ دارُه ، وأُخذ أهلهُ وولدُه وماله ، تـكون مصيبتُه وألمه وتفجُّعه في الذي فقَدَ بمقدار لذّته به ، وحبِّه له ، وحرصه عليه ، فـكلُّ ما كان في الوجود أشهى وألذّ ، فهو عند الفقْد أدهى وأمرّ ، ولا معنى للموت إلاّ فقد ما في الدنيا .

وقد رُوِي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال للضحّاك بن سُفْيان الـكلابيّ : ألست تُؤْتَى بطعامك وقد قزَح وملح[2] ، ثم تشرَب عليه اللّبنَ والماء ! قال : بلى ، قال : فإلى ماذا يصير ؟ قال : إلى ما قد علمت يا رسولَ الله ؛ قال : فإنّ الله عزّ وجلّ ضَرَب مَثل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدمَ .

وَرَوَى أبيّ بن كعب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : إن أنتَ ضربتَ مثلاً لابن آدم فانظر ما يَخرُج من ابن آدم ، وإن كان قزّحه وملحَه إلى ماذا صارَ .

وقال الحسَن رحمه الله : قد رأيتُهم يطيبونه بالطِّيب والأفاويه[3] ثمّ يرمونه حيث رأيتم ، قال الله عز وجـــلّ : ﴿ فلْينظر الإنسانُ إلى طعامه ﴾[4] ، قال ابن عباس : إلى رَجِيعِـه .

وقال رجل لابن عمر : إنّي أريد أن أسألك وأستحيي ، فقال : لا تَسْتَحي وسَلْ ؛ قال : إذا قضَى أحدُنا حاجته فقام ، هل ينظر إلى ذلك منه ؟ فقال : نعم ، إن المَلَكَ يقول له : انْظرُ هذا ما بَخلتَ به ، انظرُ إلى ماذا صار !

---

(١) تـكملة من د .

(٢) يقال : قزح القدر كمنع ؛ جعل فيها بزر البصل والتوابل .

(٣) الأفاويه : جمع أفواه ؛ وهي التوابل . (٤) سورة عبس ٢٤

(١٩٢)

الأصْـلُ :

لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

مثلُ هذا قولهم : إن المصائبَ أثمانُ التجاربِ .

وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنيًا : أين مالك ؟ قال : تجرتُ[1] فيه ، فابتعتُ به تجربةَ الناس والوقتِ ، فاستفدتُ أشرفَ العِوَضَين[2] .

---

(١) ا : « تاجرت » (٢) ا : « الشيئين » .

(١٩٣)

الأصل :

إنَّ هذه القُلُوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبْدَانُ ، فابْتَغُوا لها طَرَائِفَ الحِكْمَةِ .

***

الشرح :

هذا قد تكرر ، وتكرر منا ذِكرُ ما قيل فى إجمام النفس والتنفيس عنها من كَرْب الجِدّ بِرُوح الإحماض[1] وفسرنا معنى قولِه عليه السلام : « فابتغوا لها طرائف الحكمة » وقلنا : المراد ألاّ يجعلَ الإنسانُ وقته كلّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة فى البراهين الكلاميّة والحِكميّة ، بل ينقلها من ذلك أحيانا إلى النظر فى الحِكمة الخُلُقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر .

فأمّا القول فى الدُّعابة فقد ذكرناه أيضا فيما تقدّم ، وأوضحنا أنّ كثيرا من أعيان الحُكماء والعلماء كانوا ذوى دُعابة مقتصدة لا مسرِفة ، فإن الإسراف فيها يُخرِج صاحبَه إلى الخلاعة ، ولقد أحسنَ من قال :

أَفِدْ طبعَكَ المكدودَ بالجِدّ راحةً ... يجمّ وعَلِّله بشىء من المَزْح[2]

ولكنْ إذا أعطيْته ذاكَ فليَكُنْ ... بمقدارِ ما يُعطَى الطعامُ من المِلْحِ[3]

---

(١) الإحماض : التنقل من الجد إلى المزح (٢) المكدود : المجهد

(٣) أى على قدر من الاعتدال .

(١٩٤)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ لَمَّا سَمِعَ قَولَ الخوَارجِ : لا حُكْمَ إلَّا للهِ ، كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا باطِلٌ .

***

الشَّرحُ :

معنى قوله سبحانه : ﴿ إنِ الحُكْمُ إلا للهِ[1] ﴾ ، أي إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلابدّ من وقوعه ، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه ، ألا ترى ما قبل هذه الكلمة : ﴿ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ متفرّقةٍ وما أُغنِي عنكم مِنَ اللهِ مِنْ شيء إنِ الحُكْمُ إلا لله ﴾ خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد ، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقه ، ثم قال لهم : «وما أغنِي عنكم من الله من شيء» ، أي إذا أراد الله بكم سوءاً لم يدفع عنكم ذلك السُّوء ما أشرتُ به عليكم من التفرّق ؛ ثم قال : ﴿ إن الحُكم إلا لله ﴾ أي ليس حيٌّ من الأحياء يَنْفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحيّ القديم وحدَه ، فهذا هو معنى هذه الكلمة ، وضلّت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين عليه السلام موافقتَه على التحكيم ؛ وقالوا : كيف يحكم وقد قال الله سبحانه : ﴿ إن الحُكْمُ إلاّ لله ﴾ فغلطوا لموضع اللفظ المشترك ، وليس هذا الحُكم هو ذلك الحكم ، فإذَنْ هي كلمةُ حقٍ يرادُ بها باطل ، لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل ، ويريد بها الخوارجُ نفيَ كلِّ ما يسمّى حكما إذا صدر عن غير الله تعالى ، وذلك باطل ، لأنّ الله تعالى قد أمضى حُكم المخلوقين في كثيرٍ من الشرائع .

---

(١) سورة يوسف ٦٧

(١٩٥)

الأصل :

وقال عليه السلامُ في صِفَةِ الْغَوْغاء :

هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وإِذَا تفرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا

وقيلَ : بَلْ قالَ عليهِ السلام : هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وإذا تفرَّقُوا نفعوا ،

فَقِيلَ : قَدْ عَلِمْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ ، فما مَنْفَعَةُ افْتِراقِهِم ؟ فَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

يَرْجِعُ أَصْحابُ الْمِهَنِ إِلَى مِهَنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَى بِنائِهِ ، والنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ ، والخَبَّازِ إِلى مَخْبَزِهِ .

***

الشرح :

كان الحسن إذا ذكر الغَوْغاء وأهل السّوق قال : قتلة الأنبياء ؛ وكان يقال : العامة كالبحر إذا هاج أهلكَ راكبه ؛ وقال بعضهم : لا تسبُّوا الغَوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق ، ويُنقِذون الغريق ، ويسُدّون البُثوق [١] .

وقال شيخنا أبو عثمان : الغاغة والباغة [٢] والحاكة كأنهم أعذارُ عامٍ واحد ، ألا ترى أنك لا تجد أبداً في كلّ بلدةٍ وفي كل عصر هؤلاء بمقدارٍ واحد وجهةٍ واحدة من السُّخف والنَّقص والخمول والغباوة ؛ وكان المأمون يقول : كلّ شرّ وظُلْم [٣] في العالم

(١) البثوق : الشقوق في الأنهار .
(٢) الباغة : الحمق .
(٣) في د : « وضر » .

فهو صادرٌ عن العامّة والغوغاء ، لأنهم قتلة الأنبياء والمُغرُون[١] بين العلماء ، والنمّامون بين الأوِدّاء[٢] ، ومنهم اللصوص ، وقُطّاع الطّريق ، والطّرارون[٣] ، والمحتالُون والساعون إلى السلطان[٤] ، فإذا كان يوم القيامة حُشِروا على عادتهم في السِّعاية فقالوا : ﴿ رَبَّنا إنَّا أطَعْنا سادَتنا وكبَراءنا فأضَلُّونا السَّبيلا ، رَبَّنا آتِهِم ضِعفَين مِنَ العذابِ وَالعَنْهُمْ لعناً كبيرا[٥] ﴾ .

(١) في د « والمفرقون » .
(٢) في د « الأولياء » .
(٣) الطرارون : المروجون للسلع .
(٤) ا : الحكام .
(٥) سورة الأحزاب ٦٧

(١٩٦)

الأَصْلُ :

وَقَالَ عَلَيه السلام وَقَدْ أُتِيَ بِجانٍ وَمَعَهُ غَوْغاء فَقَالَ : لاَ مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لاَ تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوْأَةٍ .

***

الشَّرْحُ :

أخذ هذا اللفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِل عليه ابنُ أبي الشَّوارب القاضي ومعه الشّهود ليَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة و بايَع المعتزّ بالله ، فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا تُرى إلّا يوم[1] سوء .

وقال من مدح الغَوْغاء والعامّة: إنّ في الحديث المرفوع : إنّ الله يَنصرُ هذا الدِّين بقومٍ لا خَلاقَ لهم .

وكان الأحنفُ يقول : أكرِموا سُفهاءكم فإنّهم يكفُونَكم النارَ والعارَ .

وقال الشاعر :

وإنّي لأستبقي امرأ السّوءِ عُدّةً ... لَعَدْوةِ عِرّيضٍ من الناسِ جائبِ[2]

أخافُ كلابَ الأبعَدِين وهَرْشَها ... إذا لم تُجاوِبْها كِلابُ الأقاربِ

(١) د « إلا عند السوء » .

(٢) الجائب : المتنقل من مكان إلى مكان .

(١٩٧)

الأصل :

إنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَإِنَّ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .

***

الشرح :

قد تقدّم هذا ، وقلنا : إنّه ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المذهب ، وإنّ لله تعالى ملائكةً موكّلةً تحفظ البشرَ من التردّى فى بئرٍ ، ومن إصابةِ سهمٍ معترضٍ فى طريق ، ومن رَفس دابّة ، ومن نَهش حيّة ، أو لَسع عقرب ، ونحو ذلك . والشرائع أيضاً قد وردتْ بمثله [وإنّ](١) الأجل جُنّة ، أى دِرْع ، ولهذا فى علم الكلام مخرَج صحيحٌ ، وذلك لأن أصحابنا يقولون : إنّ الله تعالى : إذا علِم أنّ فى بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطفاً له أو لغيرهِ من المكلّفين صدّ من يهمّ بقتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلها تصدّه عنه أو تصرِفه عنه بصارف ، أو يَمنعه عنه بمانع ، كى لا يقطَع ذلك الإنسانُ بقتْل زيدٍ الألطافَ التى يعلَم اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة ، ومُبعِدة من المَعصية(٢) لزيد أو لغيره ، فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصينة لزيْد ، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتلِه وإبطال حياته ، ولا جُنّة أحصنُ من ذلك .

---

(١) من د ، وفى ب : « وأما » (٢) د « عن القبيح » .

(١٩٨)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام : وَقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ : نُبَايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكَاؤُكَ فِي هَذَا ٱلْأَمْرِ ؛ فقالَ [لا][1] : وَلَـكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَالاسْتِعَانَةِ ، وَعَوْنَانِ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَالْأَوَدِ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ مقتل عثمانَ ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكَاه فى الْأَمْر ، فقال : أمّا المُشارَكة فى الخلافة فكيف يكون ذلك ؟ وهل يصحّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان .

* وهل يُجْمَع السّيفَان ويحكَ فى غمْد *[2]

و إنما تُشرِكانى فى القوّة والاستعانة أى إذا قوِيَ أمرِى وأمرُ الإسلام بى قويتما أنتما أيضا ، و إذا عجزتُ عن أمر أو تأوّد علىّ أمر ـ أى أعوجّ ـ كنتما عوْنين لى ومساعدَين على إصلاحه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « والاستعانة » .

قلتُ الاستعانة هاهنا الفوزُ والظَّفَرُ ، كانوا يقولون للقامِر يفوز قِدْحه : قد جرَى ابنا عِنان . وهما خطّان يُخطّان فى الأرض يزجر بهما الطير ، واستعانَ الإنسانُ ، إذا قال وقتَ الظَّفَر والغَلَبة هذه الكلمة .

---

(١) تكملة من « د » .

(٢) عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* تريدين كَيْما تجْمعِينِي وَخَالداً *

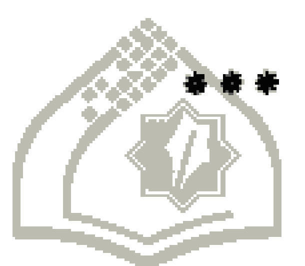
ديوان الهذليين ١ : ١٥٩

(١٩٩)

الأصلُ :

أيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إنْ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإنْ أضْمَرْتُمْ عَلِمَ ، وَبَادِرُوا المَوْتَ الذِي إنْ هَرَبْتُمْ مِنْهُ أدْرَكَكُمْ ، وَإنْ أقَمْتُمْ أخَذَكُمْ ، وَإنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ .

***



الشَّرحُ :

قد تقدم منا كلامٌ كثير في ذكر الموت ؛ ورأى الحسنُ البصريُّ رجلاً يجود بنفسه ، فقال : إنّ أمرا هذا آخرُه لجدير أن يُزهَد في أوّله ، وإن أمرا هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف من آخره .

ومن كلامِه : فَضَح الموتُ الدّنيا .

وقال خالد بنُ صَفْوان : لو قال قائل . الحسَنُ أفصحُ الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئا .

وقال لرجل في جنازةٍ : أترى هذا الميّت لو عادَ إلى الدّنيا لكان يَعمَل عملا صالحا ؟ قال : نعم ، قال : فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك .

الأصْلُ :

لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي المَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ يُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

الشَّرْحُ :

قد أخذتُ أنا هذا المعنى فقلتُ من جملة قصيدةٍ لى حِكْمية :

لا تُسدِيَنّ إلى ذى اللؤم مَكرُمةً فإنه سَبَخٌ لا يُنبت الشجرا
فإنْ زرعتَ فمحفوظٌ بمَضيَعةٍ وأكلُ زرعِك شكرُ الغيرِ إن كفرا

وقد سبق منّا كلامٌ طويلٌ فى الشكر .

ورأى العبّاس بنُ المأمون يوماً بحضرة المعتصم خاتماً فى يد إبراهيم بن المهدىّ ، فاستحسنه ، فقال له : ما فَصُّ هذا الخاتم ، ومن أين حصّلته ؟ فقال إبراهيم : هذا خاتمٌ رهنتُه فى دولةِ أبيك ، وافتككتُه فى دولةِ أمير المؤمنين ؛ فقال العبّاس : فإن لم تشكر أبى على حَقْنِه دمَك فأنت لا تشكرُ أميرَ المؤمنين على فكّه خاتمَك .

وقال الشاعر :

لَعمرُك ما المعروفُ فى غيرِ أهلِه وفى أهلِه إلّا كبعضِ الودائعِ
فمستودَعٌ ضاعَ الّذى كان عندَه ومستودِعٌ ما عندَه غيرُ ضائعِ
وما النّاس فى شكرِ الصّنيعة عندهمْ وفى كفرها إلّا كبعضِ المزارعِ
فمزرعةٌ طابتْ وأضعفَ نبتُها ومزرعةٌ أكدَتْ على كل زارعِ

الأصل :

كُلُّ وِعاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعاءَ العِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ .

***

الشرح :

هذا الكلام تحته سرٌّ عظيم ، ورمزٌ إلى معنى شريف غامض ، ومنه أخذ مُثبِتو النفس الناطِقَةِ الحجّة على قولهم ؛ ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجسمانيّة يُكِلها ويُتعِبُها تكرارُ أفاعيلِها عليها ، كقوّة البصر يُتعِبُها تكرار إدراك المَرْئيّات ، حتى ربّما أذهبها وأبطلَها أصلا ، وكذلك قوّة السمع يُتعبها تكرار الأصوات عليها ، وكذلك غيرها من القُوَى الجِسْمانيّة ، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك[1] ، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطا واستعدادا لإدراكِ أموز أخرى غير ما أدركتْه من قبلُ ، حتى كأنَّ تكرارُ المَعْقولات عليها يَشْحذها[2] ويَصْقُلها ، فهي إذَنْ مخالِفة في هذا الحكم للقُوى الجِسْمانية ، فلَيْست منها لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها ، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهي مجرّدة ، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة .

---

(١) ا : « هذا » . (٢) يشحذها : يحدها .

الأصْـلُ :

أوّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أنَّ النّاسَ أنْصَارُهُ عَلَى الجَاهِلِ .

***

الشّـرحُ :

قد تقدّم من أقوالنا فى الحلم مافى بعضه كفاية .

وفى الحِكَم القديمة : لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَرِ بقُبْحِ الانتقام .

وكان يقال : اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب ، وأسرع إلى النّدم .

وكان يقال : شاور الأناة والتثبّت ، وذاكِر الحفيظة[1] عند هيجانها مافى عواقب العُقُوبة من النّدم ، وخاصِمْها بما يؤدّى إليه الحلْم من الاغتباط .

وكان يقال : ينبغى للحازم أن يقدّم على عذابه وصفحِه تعريف المذْنب بما جناه ، وإلاّ نُسِب حلمُه إلى الغفلة وكلال حدّ الفِطْنة . وقالت الأنصار للنّبىّ صلى الله عليه وآله يوم فتحِ مكّة : إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا . يُغْرُونه بقريش ؛ فقال : « إنما سمِّيت محمّدا لأُحمَد » .

(١) الحفيظة : الحمية والغضب

(٢٠٣)

الأصل:

إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

***

الشرح:

التحلّمُ: تكلُّف الحِلْم، والذى قاله عليه السلام صحيح فى مَناهِج الحكمة، وذلك لأنّ من تَشَبَّه بقومٍ وتكلّف التخلّق بأخلاقِهم، والتأدّبَ بآدابهم، واستمرّ على ذلك ومَرَن عليه الزمان الطويل، اكتَسَب رياضةً قويّة، ومَلَكةً تامّة، وصار ذلك التكلّف كالطَّبْع له، وانتقل عن الخُلُق الأوّل، ألا ترَى أنّ الأعرابيّ الجِلْف الجافى إذا دَخَل المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الذى نشأ عليه، وتلطَّف طَبْعُه، وصار شبيهاً بساكِنِي المُدُن، وكالأجنبيّ عن ساكني الوَبَر، وهذا قد وجدناه فى حيواناتٍ أخرى غيرِ البشر كالبازِى والصّقر والفَهْد التى تُراضُ حتّى تَذِلّ وتأنَس وتَترُك طبعَها القديم، بل قد شاهدناه فى الأسَد، وهو أبعدُ الحيوان من الإنس.

وذكر ابنُ الصابى أنّ عَضُد الدّولة بن بُوَيه كانت له أسُود يَصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يُدرِكه فيذكّيه، وهذا من العجائب الطريفة.

(٢٠٤)

الأَصْلُ :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد جاء فى الحديث المرفوع : « حاسبوا أنفسكم قبلَ أن تحاسَبوا » .

قوله : « ومن خاف أمن » أي مَن اتقى الله أمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة .

ثم قال « ومن اعتبر أبصر » أى من قاس الأمور بعضها ببعض واتّعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته ، ومن أضاءت بصيرته فهم ، ومن فهم علم .

فإن قلتَ : الفهم هو العلم ، فأىّ حاجةٍ له إلى أن يقول : « ومن فهم علم ؟ »

قلت : الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات ، ولا بد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة ، فمعرفة النتيجة هو العلم ، فكأنّه قال : من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى ومَنْ تنوّر قلبه عقل المقدّمات البرهانية ، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها ، وتلك هى الثمرة الشريفة التى فى مثلها يتنافس المتنافسون .

(٢٠٥)

الأصل :

وقال عليه السلام :

لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا . وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

***

الشرح :

الشِّماس : مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره .

والضَّروس : الناقة السيِّئة الخُلق تعضُّ حالبَها ، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذي يملك الأرض فى آخر الزمان . وأصحابنا يقولون : إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض ويستولى على الممالك ، ولا يلزم من ذلك أنه لابدّ أن يكون موجودا ، وإن كان غائبا إلى أن يظهر ، بل يكفى فى صحة هذا الكلام أن يُخلق فى آخر الوقت .

وبعض أصحابنا يقول : إنّه إشارة إلى مُلْك السفّاح والمنصور وابنى المنصور بعده . فإنهم الذين أزالوا ملكَ بنى أميّة ، وهم بنو هاشم ، وبطريقهم عطفت الدنيا على بنى عبد المطّلب عطف الضّروس .

وتقول الزيديّة: إنه لابدّ من أن يملك الأرض فاطمىٌّ يتلوه جماعة من الفاطميِّين على مذهب زيد ، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجودا .

(٢٠٦)

الأصل :

اتَّقُوا اللهَ تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً ، وَجَدَّ تَشْمِيراً ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ الْمَوْئِلِ ، وَعَاقِبَةِ الْمَصْدَرِ ، وَمَغَبَّةِ الْمَرْجِعِ .

* * *

الشرح :

لو قال : « وجرّد تشميرا » لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع ؛ لكنه لم يحفل بذلك ، وجرى على مقتضى طبعه من البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع ، على أن ذلك قد روى ، والمشهور الرواية الأولى .

وأكمش : جدّ وأسرع ، ورجل كميش ، أى جادّ .

وفى مَهَل : أى فى مهلة العمر قبل أن يضيق عليه وقتُه بدنوّ الأجَل .

(٢٠٧)

الأصل :

اَلْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ ، وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ ، وَالِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ .

وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ ، وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ الْحِدْثَانَ ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وَأَشْرَفُ الْغِنَى ، تَرْكُ الْمُنَى .

وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عِنْدَ هَوًى أَمِيرٍ ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ ، وَالْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ ، وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً .

***

الشرح :

مثل قوله : « الجود حارس الأعراض » قولهم : كلّ عيب فالكرم يغطّيه .

والفِدام : خِرقة تجعل على فَمِ الإبريق ، فشبّه الحلم بها ، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القَذَى منها إلى الكأس .

فأمّا « والعفو زكاة الظّفر » فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْدُ المُسْتَمِين ، وزكاة الظّفر العفو .

وأمّا « السّلوّ عوضك ممّن غدر » ، فمعناه أنّ من غدرَ بك من أحبّائك وأصدقائك فاسلُ عنه وتناسَه ، واذكرْ ماعامَلَك به من الغدر ، فإنّك تسلو عنه ، ويكون ما استفدتَه من السلوّ عوضاً عن وِصالِهِ الأوّل ؛ قال الشاعر :

أعتقنى سوءُ ما صنعتَ من الرِّقّ فيابَرْدَها على كَبِدى
فصرتُ عبداً للسوء فيك وما أحسنَ سوءٌ قَبلِى إلى أحدِ

وقد سبق القولُ فى الاستشارة وأنّ المستغنىَ برأيه مخاطِر ، وكذلك القولُ فى الصبر .
والمناضَلة : المراماة .

وكذلك القولُ فى الجزع ، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه ، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرى .

وسبق أيضا القولُ فى المُنى ، وأنّها من بضائِع النَّوْكَى (١) .

وكذلك القولُ فى الهوى ، وأنّه يَغلِب الرأى ويأسِره .

وكذلك القولُ فى التَّجربة ؛ وقولُهم : مَن حارب المجرَّب حلّت به النَّدامة ، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه .

وقد سبق القولُ فى المودَّة ، وذكرنا قولَهم : الصَّديقُ نسيبُ الرُّوح ، والأخُ نسيبُ الجسم . وسبق القولُ فى المَلال .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن عَبْرَتى أمَلِى رضاكِ وزرتُ غيرَ مُراقَبِ
لكنْ مَللتِ فلم يكن لى حيلةٌ صَدُّ المَلُولِ خلافُ صَدِّ العاتبِ

---

(١) جمع أنوك ؛ وهو الأحمق .

(٢٠٨)

الأصْلُ :

عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى العُجْب ، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهداً فى إظهار معايب المحسود وإخفاء محاسنه ، فلما كان عُجْب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذى دأبُه إظهارَ عيب المحسود ونقصه .

وكان يقال : مَنْ رضىَ عن نفسه كثر الساخط عليه .

وقال مطرِّف بن الشِّخِّير : لأن أبيت نائما ، وأصبح نادما ، أحبُّ إلىّ من أن أبيت قائما وأصبح نادِما[1] .

---

(١) ا : « متعجباً » .

(٢٠٩)

الأصل :

أغضِ عَلَى ٱلْقَذَى وَالألَمِ تَرْضَ أبداً .

***

الشرح :

نظير هذا قول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِهِ وَعَنْ بَعْضِ مافيه يمتْ وهو عاتبُ

ومَن يتتبَّعْ جاهداً كلَّ عثرةٍ يجدها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحب

وقال الشاعر :

إذا أنتَ لم تشْرَبْ مراراً على القَذَى ظَمِئْتَ وأيّ النّاس تصفُو مشاربُه[1]!

وكان يقال : اغضِ عن الدّهر وإلّا صرعك .

وكان يقال : لا تحارب الأيام وإن جنحتْ دون مطلوبك منها ، واصحبها بسلاسة القياد ، فإنّك إن تَصحبها بذلك تعطِك بعد المنع ، وتلِنْ لك بعد القساوة ؛ وإن أبَيت عليها قادتك إلى مكروهِ صُروفِها .

---

(١) لبشار ، ديوانه ١ : ٣٠٩

الأصل :

مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أغْصَانُهُ .

***

الشرح :

تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (١) ؛ ومعنى هذه الكلمة أن مَنْ حَسُن خُلقه ، ولانت كلمته ، كثر محبّوه وأعوانه وأتباعه .

ونحوه قوله : « مَنْ لانتْ كلمته ، وجبتَ محبّته » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٢) ، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة ، أعنى الشجرة ذات الأغصان حقيقة ، وذلك لأنّ النبات كالحيوان فى القوى النفسانيّة ، أعنى الغاذية والمنمّية ، وما يخدم الغاذية من القوى الأربع ؛ وهى الجاذبة ، والماسكة ، والدافعة ، والهاضمة ؛ فإذا كان اليبَس غالبا على شجَرة كانت أغصانُها أخفّ ، وكان عودها أدقّ ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر ، وعودها أغلَظ ؛ وذلك لاقتضاء اليَبَس الذبول ، واقتضاء الرطوبة الغلظ والعبالة والضخامة ، ألا ترى أنّ الإنسان الّذى غلب اليَبَسُ على مزاجه ، لا يزال مَهْلُوساً (٣) نحيفا ، والذى غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخما عَبْلا .

---

(١) سورة الأعراف ٥٨
(٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) رجل مهلوس : هلسه الداء وخامره .

الأصلُ :

الخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ .

***

الشرحُ :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : « لا رأى لمن لا يُطاع » .

ويُروَى: لا إمرة لمن لا يطاع .

وفى أخبار قصير وجذيمة : « لو كان يطاع لقصير أمر » .

وكان يقال : اللّجاج يَشْحَذ الزُّجاج ، ويثير العَجاج .

وقال دُريد بن الصِّمّة .

أمرتهُمُ أمري بمنعرَج اللوَى فلَمْ يَسْتَبِينوا النُّصْح إلّا ضُحَى الْغَدِ[1]

فلمّا عصوْنِي كنت منهمْ وقد أرَى غوايتهم وأنّني غيرُ مهتدِي

وكان يقال : أهدى رأى الرّجل مانفذ حكمُه ، فإذا خولف فسد .

ومن كلام أفلاطون : اللّجاج عسر انطباع المعقولات فى النّفس ، وذلك إمّا لفرْطِ حِدّةٍ تكون فى الإنسان ، وإما لغلظ طبعٍ فلا ينقاد للرأى[2] .

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ـ بشرح التبريزى (٢) ا : « لرأى » .

(٢١٢)

الأصل :

مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ .

* * *

الشرح :

يجوز أن يريد به : مَنْ أثْرَى ونال من الدنيا حظاً استطال على النّاس .

ويجوز أن يريد به : مَنْ جاد استطال بجوده .

يقال : نالني فلان بكذا أي جادَ به عليّ ، ورجل نالٌ ، أي جوادٌ ذو نائل، ومثله[1] رجل طانٍ أي ذو طين ، ورجل مالٌ أي ذو مال .

---

(١) ا : « أن يقال » .

الأصل :

فِي تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوَالِ ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ .

***

الشرح :

معناه لا تُعلَمَ أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة ، واختلاف الأحوال عليه .

وقديماً قيل :

تَرَى الفتيانَ كالنَّخْلِ وما يدريك ما الدَّخْلُ[(١)]

وقال الشاعر :

لا تَحْمَدَنّ امرأً حتّى تجرِّبَهُ ولا تذمّنَّه إلّا بتجريبِ

وقالوا : التجربة محكّ ؛ وقالوا مثلُ الإنسان مثل البطّيخة ، ظاهرها مونق ، وقد يكون فى باطنها العيب والدود ، وقد يكون طعمها حامضا وتفِهاً .

وقالوا للرجل المجرّب يمدحونه : قد آل وائل عليه .

وقال الشاعر يمدح :

مازال يحلُبُ هذا الدَّهرَ أشطُرَهُ[(٢)] يكون متّبِعا طوراً ومتّبَعا

حتى استمرّت على شَزْرٍ مَريرته مستحكَمَ الرأيِ لاقَحْما ولا ضَرَعا[(٣)]

---

(١) مثل ، وانظر الميدانى ١ : ٩١

(٢) يحلب أشطره ؛ أى أنه قد جرب الأمور وعاناها ، والكلام على التمثيل .

(٣) فى اللسان عن الجوهرى : « شيخ قحم ، أى هم ؛ مثل قحل ، وفى حديث ابن عمر : « ابغنى خادما لا يكون قحما فانيا ، ولا صغيرا ضرعا ، القحم : الشيخ الهم الكبير » . الضرع : الضاوى الجسم الضعيف .

الأصل :

حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ .

* * *

الشرح :

إذا حسدك صديقُك على نعمة أعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة ، فإنّ الصديق حقّاً من يَجري مَجرَى نفسِك ، والإنسان لم يحسدْ نفسه .

وقيل لحكيم : ماالصديق ؟ فقال : إنسان ، هو أنت إلّا أنه غيرك .

وأخذ هذ المعنى أبو الطيّب فقال :

مَا الخِـــلُّ إلَّا مَنْ أوَدُّ بِقَلْبِهِ وأرَى بطرفٍ لايرى بسوائِهِ[1]

ومن أدعية الحكماء :

اللّهمّ اكفني بوائق الثقات ، واحفظني من كيد الأصدقاء .

وقال الشاعر :

احـــــذر عَـــدُوّكَ مَرَّةً واحْذَرْ صديقك ألفَ مَرّهْ

فلربّما انقلب الصـــــدِيـ ـقُ فَكَانَ أعرَف بالمضرّهْ

وقال آخر[2] :

احــــذر مودّة ماذقٍ شابَ المرارة بالحلاوهْ[3]

---

(١) ديوانه ١ : ٤ (٢) ا : « غيره » .

(٣) الماذق : الذي يخلط الود بغيره .

يحصى الذّنوب عليك أيّـــامَ الصـــداقةِ للعـداوهْ

وذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبة ، فقال : ذاك رجل ليس له صديق فى السرّ ولا عدوٌّ فى العلانية .

وقال الشاعر :

إذا كان دَوّاماً أخوك مصارماً ‌‌ ‌‌ موجَّهـةً فى كلّ أوبٍ ركائبُهْ

نخلِّ له ظهرَ الطريقِ ولا تـكنْ ‌‌ ‌‌ مطيّة رحّالٍ كثير مذاهبُـــهْ



الأصل :

أكثرُ مصارع العُقول تحتَ بُرُوقِ المطامع .

***

الفرع :

قد تقدَّم منّا قولٌ في هذا المعنى .

ومنه قولُ الشاعر[١] :

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَرِيعَ وإنّما[٢] تُقطِّع أعناقَ الرِّجالِ المطامعُ[٣]

وقال آخَر .

إذا حدَّثَتْكَ النفسُ أنكَ قادرٌ على ما حوَتْ أيدى الرجالِ فكذِّبِ

وإيّاكَ والأطماعَ إنّ وُعودَها رَقارِقُ آلٍ أو بوارِقُ خُلَّبِ[٤]

---

(١) هو المجنون ، ديوانه ١٨٦ ، وينسب لقيس بن ذريح ؛ وينسب أيضاً للبعيث ، وانظر تخريجه في الديوان .

(٢) تريع : ترجع وتعود ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت ونسبه إلى البعيث

(٣) بعده في الديوان :

ودانيتُ ليلَى في خلاءٍ ولم يكُنْ شهود على ليلَى عدولٌ مقانِعُ

(٤) الرقارق : السراب .

(٢١٦)

الأصل :

لَيْسَ مِنَ ٱلْعَدْلِ ٱلْقَضَاءُ عَلَى ٱلثِّقَةِ بِالظَّنِّ .

* * *

الشرح :

هـذا مِثلُ قولِ أصحاب أصول الفقه : لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواترة بخبر الواحد ، لأن المَظنون لا يَرفع المعلوم .

ولفظ الثّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم ، فكأنّه قال : لا يجوز أن يزال ماعُلِم بطريقٍ قطعيّةٍ لأمرٍ ظنّيّ .

فإنْ قلت : أليس البراءة الأصليّة معلومة بالعقل ، ومع ذلك تُرفَع بالأمارات الظّنّية كأخبار الآحاد ؟

قلت : ليست البراءةُ الأصليّة معلومةً بالعقل مطلقا ، بل مشروطة بعدم مايرفعها من طريقٍ علميّ أو ظنّي ، ألا ترى أنّ أكلَ الفاكهة وشربَ الماء معلوم بالعقل حسنه ، ولكن لا مطلقا ، بل بشَرْط انتفاء ما يَقتضي قبحه ، فإنا لو أخبرَنا إنسانٌ أنّ هذه الفاكهةَ أو هذا الماء مسموم لقَبُح منّا الإقدامُ على تناولها ، وإن كان قولُ ذلك المخبر الواحد لا يفيد العِلم القطعي[1] .

---

(١) ا : « علما قطعيا »

(٢١٧)

الأصلُ :

بِئْسَ الزَّادُ إلى المعادِ ، العُدْوَانُ عَلَى العِبادِ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم من قولنا[1] فى الظّلم والعُدْوان ما فيه كفاية .

وكان يقال : عجبا لمن عُومِل فأنصف ، إذا عامَلَ كيف يظلم ، وأعجب منه من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلم !

وكان يقال : العدّو عدوّان : عدوٌّ ظلمته ، وعدوٌّ ظلمك ، فإن اضطرّك الدهرُ إلى أحدهما فاستعن بالذى ظلمك ، فإن الآخر موتور .

---

(١) ا : « لنا أقوال » .

(٢١٨)

الأصل :

مِنْ أشرَفِ أفعَالِ الكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمّا يَعْلَمُ .

* * *

الشرح :

كان يقال : التغافل من السُّؤدُد .

وقال أبو تمّام :

ليس الغبي بسيّد في قومه لكنّ سيّد قومه المتغابي[1]

وقال طاهرُ بنُ الحسين بن مصعب :

ويكفيك من قومٍ شواهدُ أمرِهِمْ فخذ صفوَهمْ قبل امتحانِ الضمائرِ

فإنّ امتحانَ القومِ يُوحش منهمُ وما لَكَ إلاّ ما ترَى في الظواهرِ

وإنّك إن كشّفتَ لم تَرَ مُخلِصاً وأبدَى لك التجريبُ خبثَ السرائرِ

وكان يقال : بعضُ[2] التغافل فضيلة ، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب ، ومن الكرَم أن تَصفَح عن التوبيخ ، وأن تلتمس سترَ[3] هَتْك الكريم .

---

(١) ديوانه ١ : ٩٣ (٢) ساقطة من ا

(٣) الستر : تغطية الشيء ؛ وفي الحديث : « إن الله حيي ستير يحب الستر » .

الأصل :

مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ .

***

• الشرح :

قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ في الحياء .

***

[فصل فى الحياء وما قيل فيه]

وكان يقال : الحياء تمام الكَرَم ، والحِلم تمام العقل .

وقال بعضُ الحكماء : الحياء انقباض النّفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ، لأنّه لا يوجد فى الفرَس ولا فى الغنم والبقر ، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات ، فهو كالضّحك الّذى يختصّ به نوع الإنسان ، وأوّل مايَظهر من قوّة الفهم فى الصبيان الحياء ، وقد جعله الله تعالى فى الإنسان ليرتدع به عمّا تنزع إليه نفسُه من القبيح ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفّة ، ولذلك لا يكون المستحى فاسقاً ، ولا الفاسقُ مستحياً[1] لتنافى اجتماع العفّة والفِسْق ، وقلّما يكون الشّجاع مستحِياً والمستحى شُجاعا لتنافِى اجتماعِ الجُبْن والشجاعة ، ولعزّة وجودِ ذلك مايجمع الشعراء بين المدح بالشّجاعة والمدْح بالحياء نحو قول القائل :

يَجرِى الحياءُ الغَضُّ من قَسماتِهِمْ فى حينِ يَجرِى مِن أكفِّهم الدّمُ

(١) ب : « مستحيا » .

وقال آخر :

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضلُ حيائِه   ويَدْنو وأطرافُ الرِّماحِ دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مدحٌ للصبيان دون المشايخ ، ومتى قُصِد به ترك القبيح فهو مَدْح لكل أحد ، وبالاعتبار الأوّل قيل : الحياء بالأفاضل قبيح ، وبالاعتبار الثانى وَرَد : إن الله ليستحيي من ذى شَيْبَة فى الإسلام أن يعذِّبه ، أى يترك تعذيبه ، ويستقبح لكرمه ذلك .

فأمّا الخجل لحَيْرة تَلحَق النفس لفَرْط الحياء ، ويحمد فى النّساء والصبيان ويُذَم بالاتفاق فى الرّجال ،

فأمّا القِحَة فمذمومة بكلّ لسان ، إذ هى انسلاخٌ من الإنسانية ، وحقيقتُها لجاجُ النفس فى تعاطى القبيح ، واشتقاقها من حافرٍ وَقاح أى صُلْب .

ولهذه المناسبة قال الشاعر :

ياليتَ لى من جِلْدِ وجهك رُقْعةً   فأُعدَّ منها حافِراً للأشهَبِ

وما أصدَقَ قول الشاعر :

صلابةُ الوَجْه لم تغلبْ على أحدٍ   إلاّ تكامَلَ فيه الشرُّ واجتمعا

فأمّا كيف يُكتَسب الحياء ، فمن حَقّ الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسِه أنه يراه ، فإنّ الإنسان يَستحيي ممن يَكبُر فى نفسِه أن يطّلع على عَيْبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق ، ولا مِن الأطفال الذين لا يميّزون ، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد ، والذين يستحيي الإنسانُ منهم ثلاثة : البشر ، ونفسُه ، والله تعالى ؛ أما البَشَر فهم أكثر

من يستحيي منه الإنسان فى غالب الناس ، ثمّ نفسه ، ثمّ خالقه ، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره .

* * *

واعلم أن من استحيا من الناس ولم يستحيي من نفسه فنفسه عنده أخسّ من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحيِ من الله تعالى فليس عارفاً ، لأنه لوكان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق ، ألا ترَى أنّ الإنسان لا بدّ أن يستحييَ من الذى يعظمه ويعلم أنه يراه أويستمع بخبره فيبكّته ، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه ! وكيف يعلَمَ أنّه يطلع عليه ! وفى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « استحيوا من الله حقّ الحياء » ، أمرٌ فى ضِمن كلامه هـذا بمعرفته سبحانه وحثٌ عليها ، وقال سبحانه : ﴿ ألم يَعلَمْ بأنّ الله يرَى [(١)] ﴾ ، تنبيهاً على أنّ العبد إذا علم أنّ ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجنيد رحمه الله عمّا يتولّدمنه الحياء من الله تعالى ؛ فقال : أنْ يرَى العبدُ آلاء الله سبحانه ونعمَه عليه ، ويرَى تقصيره فى شكره .

فإن قال قائل : فما معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَن لا حياء له فلا إيمان له » .

قيل له : لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العقْل فى الإنسان ، وأما الإيمان فهو آخر المراتب ، ومُحالٌ حصول المرْتبة الآخِرة لمن لم تحصل له المرتبة الأولى ، فالواجب إذن أن مَن لا حياء له فلا إيمان له .

وقال عليه السلام : « الحياء شُعْبة من الإيمان » .

وقال : « الإيمان عُرْيان ، ولباسُه التقوى ، وزينته الحياء » .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

الأصل :

بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الهيبَةُ ؛ وبالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ المُوَاصِلُونَ ، وبالإفْضالِ تَعْظُمُ الأقْدارُ ، وبالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ ، وباحتمال المُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدُدُ ، وبالسِّيرَةِ العادِلَةِ يُقْهَرُ المُناوِئُ ، وبالحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأنْصارُ عَلَيْهِ .

***

الشرح :

قال يحيي بن خالد : ما رأيت أحداً قطّ صامتاً إلاّ هِبْتُه حتى يتكلّم ، فإما أن تزداد تلك الهيْبة أو تنقُص . ولا رَيْبَ أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف ، وأن الإفضال والجود يقتضى عِظَمَ القَدْر ، لأنه إنعام ، والمُنعِم مشكور ، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة ، ولا سؤْدُدَ إلا باحتمال المُؤَن ؛ كما قال أبو تمام :

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرَى مُشْتارَه ... يجْنِيه إلّا من نقِيع الحَنْظَلِ (١)

غُلٌّ لحامِلِهِ ويَحْسَبه الذى ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

والسِّيرة العادلة سببٌ لقهْر الملِك الذى يُسيِّر بها أعداءه ، ومَن حَلُم عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه ، واتفقوا كلُّهم على ذَمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِه (٢) ؛ والاستقْراء واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك .

---

(١) ديوانه ٣ : ٤٢

(٢) ب : « فعله » تصحيف » .

(٢٢١)

الأصل:

العَجَبُ لِغَفْلَةِ الحُسَّادِ، عَنْ سَلَامَةِ الأَجْسَادِ!

●●●

الشرح:

إنما لم يحسد الحاسد على صحة الجسد لأنه جميعُ الجسد، فقد شارك في الصحة، وما يُشارك الإنسانُ غيره فيه لا يحسده عليه، ولهذا أرباب الحسد إذا مرضوا حسدوا الأصحاء على الصحة.

فإن قلت: فلماذا تعجّب أميرُ المؤمنين عليه السلام؟

قلت: لكلامه عليه السلام وَجْه، وهو أن الحسد لما تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجّب كيف لا يتعدّى هذا الخُلُق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه؛ فإن زيدا إذا أبغض عمرا بُغضا شديدا وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمته[1]، بل ربما كان أقوى وأحسن حالا.

ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجّبه من غفلة الحُسّاد؛ على أن الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقْمَهم، وهذا أيضاً واضح.

(١) ا: «مثل نعمته».

(٢٢٢)

الأصْلُ :

الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ .

***

الشَّرْحُ :

من أمثال البُحْترىّ قوله :

واليأسُ إحدَى الرّاحتَيْنِ ولن ترَى تَعِباً كظَنٍّ الخائبِ المَكْدُودِ[1]

وكان يقال : ماطمِعتُ إلّا وذَلّت. يَعنُون النفس .

وفى البيت المشهور :

* تُقطِّعُ أعناقَ الرّجالِ المَطامِعُ[2] *

وقالوا: عَزّ من قَنِع ، وذَلّ من طَمِع .

وقد تقدّم القولُ فى الطّمع مرارا .

---

(١) ديوانه ١ : ١٢٧

(٢) للمجنون ، ديوانه س ١٨٦ ، وصدره :

* طَمِعتَ بِلَيْلَى أنْ تربعَ وَإنَّمَا *

الأصْلُ :

وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان :

الْإِيمانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ ، وَ إِقْرارٌ بِاللِّسانِ ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكانِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم قولُنا فى هذه المسألة .

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزِلة بعَيْنه ، لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ فى مسمّى الإيمان ـ أعنِى فعل الواجبات ، فمن لم يَعمَل لم يسمَّ مؤمنا وإن عرَف بقلبه وأقرّ بلسانه؛ وهذا خلافُ قول المرْجئة من الأشعريّة والإماميّة ، والحشويّة .

فإن قلت : فما قوْلك فى النوافل : هل هى داخلةٌ فى مسمّى الإيمان أم لا ؟

قلت : فى هذا خلافٌ بين أصحابنا ، وهو مستقصًى فى كتبى[1] الكلاميّة .

(١) فى د : « كتبنا » .

الأصلُ :

مَنْ أصْبَحَ عَلَى الدُّنيا حَزِيناً ، فَقَدْ أصْبَحَ لِقَضاءِ اللهِ ساخِطاً .
وَمَنْ أصبَحَ يَشكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ ، فَإنَّمَا يَشكُو رَبَّهُ .
وَمَنْ أتَى غَنِيّاً فتَواضَعَ لَهُ لِغِناهُ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِهِ .
وَمَنْ قَرَأ القُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النّارَ ؛ فَهُوَ كَانَ مِمَّنْ يَتَّخِذُ آياتِ اللهِ هُزُواً .
وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنيا اَلْتاطَ قَلْبُهُ مِنْها بِثَلاَثٍ : هَمٍّ لَا يُغِبُّهُ ، وَحِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ ، وَأمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ .

***

الشّرحُ :

إذا كان الرّزق بقضاء الله وقَدَره ، فمن حَزِن لفَواتِ شيء منه فقد سَخِط قضاء الله وذلك معصية ، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب ، وكذلك من شكا مصيبةً حلّت به ؛ فإنّما يشكو فاعِلَها لا هي ، لأنّها لم تنزل به من تِلقاء نفسِها ، وفاعِلُها هو الله ، ومن اشتكى الله فقد عَصاه ؛ والتواضُع للأغنياء تعظيما لِغناهم أو رجاء شيء ممّا في أيديهم فِسْق .

وكان يقال : لا يُحمَد التِّيه إلّا من فقيرٍ على غنيّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « ومن قرأ القرآنَ فماتَ فدخل النار ، فهو ممّن كان يتخذ آياتِ الله هُزُواً » .

فلِقائل أن يقول : قد يكون مؤمِنا بالقرآن ليس بمتخِذٍ له هُزُواً ، ويقرؤه ثمّ

يدخل النار ، لأنّه أتى بكبيرة أخرى نحوَ القتل والزّنا والفِرار من الزّحف وأمثال ذلك !

والجواب أن معنى كلامه عليه السلام هو أنّ من قرَأ القرآن فمات فدَخَل النار لأجلِ قراءته القرآن فهو ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً ، أى يقرؤه هازِئاً به ، ساخراً منه ، مستهينا بمواعظه وزواجره ، غير معتقِد أنّه من عندِ الله .

فإن قلت : إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ؛ لا لأجل قراءته القرآن ، بل لهزئه به ، وجحوده إيّاه ، وأنت قلت : معنى كلامه أنّه من دَخل النار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزئ بالقرآن !

قلت : بل إنّما دخل النار لأنّه قرأه على صفة الاستهزاء والسُّخْرية ، ألا ترى أنّ الساجد للصنَم يُعاقَب لسجودِه له على جهة العبادة والتعظيم ، وإن كان لولا مايحدثه مضافاً للسّجود من أفعال القلوب لما عُوقِب .

ويمكن أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على تفسيرٍ آخرَ ، فيقال : إنّه عَنَى بقوله :إنّه كما كان ممّن يتّخذ آيات الله هُزُوا : أنّه يعتقد أنّها من عند الله ، ولكنّه لا يعمَل بمُوجبها كما يفعله الآنَ كثيرٌ من الناس .

قولُه عليه السّلام : « التاط بقَلْبه » أى لَصِق . ولا يُغِبّه ،أى لا يَأْخُذُه غِبّاً ، بل يلازمه دائماً ، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة ، وحبُّ الدنيا هو المُوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأمَل والخوْف على ما اُكتَسَبه أن ينفَد ، وللشُّحّ بما حوَتْ يدُه ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة .

(٢٢٥)

الأصل :

كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً ، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ في هذين ، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق .

وكان يقال : يستحقّ الإنسانية مَن حَسُن خلقُــه ، ويكاد السيّئ الخُلق يُعَدّ من السّباع .

وقال بعضُ الحكماء : حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية ، والزّهد : الاقتصار على الزّهيد ، أى القليل ، وهما متقاربان ، وفى الأغلب إنما الزهد هو رفض الأمور الدنيويّة مع القُدْرة عليها ؛ وأما القناعة فهى إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهيَات الّتى لا يقدر عليها ، وكلّ زُهْد حصَل لا عن قَناعةٍ فهو تزهّد ، وليس بزُهد ، وكذلك قال بعض الصّوفيّة : القناعة أوّل الزُّهد ، تنبيها على أنّ الإنسان يحتاج أوّلا إلى قدْع نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسهُل عليه تَعاطِى الزّهد ، والقناعة الّتى هى الغنى بالحقيقة، لأنّ الناسَ كلّهم فقراء من وجهين : أحـدُهما لافتقارِهم إلى الله تعـالى كما قال : ﴿ يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ وَاللّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [1] .

والثانى لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا محالة أقلّهم حاجة ، ومن سدّ مفاقِره بالمقتنَيات فما فى انسدادِها مطمَع ، وهو كمَن يرقَع الخرْق ، بالخرْق ومن يسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تناوُل ضروريّاته فهو الغنىّ المقرَّب من الله سبحانه ، كما أشار إليه فى قصّة طالوتَ : ﴿ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [2] ، قال أصحاب المعانى والباطن : هذا إشارةٌ إلى الدنيا .

---

(١) سورة فاطر ١٥ (٢) سورة البقرة ٢٤٩

الأصل:

وسئل عليه السلام عن الله عز وجل: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [1]، فقال: هِيَ ٱلْقَناعَةُ.

***

الشرح:

لا ريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هى حياةُ الغِنَى، وقد بيّنّا أن الغَنِيَّ هو القَنُوع، لأنّه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنَى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغنَى الأغنياء، لأنّه لاحاجةَ به إلى شىء، وعلى هذا دلَّ النبيُّ بقوله صلّى الله عليه وآله: « ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس ».

وقال الشاعر:

فَمن أُشرِب اليأسَ كان الغــنىَّ ومن أُشرِبَ الحِرْصَ كان الفَقــيرَا

وقال الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ ما يَكفيك من سَدِّ خَلّةٍ فإن زاد شيئا عادَ ذاكَ الغِـنَى فَقْرا

وقال بعض الحكماء: المخيّر بين أن يستغنىَ عن الدنيا وبين أن يستغنىَ بالدّنيا كالمخيّر بين أن يكون مالِكاً أو مَملوكا.

ولهذا قال عليه السلام: « تَعِس عبدُ الدّينار والدّرهم، تَعِسَ فلا انْتَعَش، وشِيكَ فلا انتقش » [2].

---

(١) سورة النحل ٩٧

(٢) ب: « شبك » تحريف، قال ابن الأثير: أى إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها، وبه سمى المنقاش الذى ينقش به ».

وقيل لحكيم : لم لا تغتم ؟ قال : لأنى لم أتخذ ما يغمنى فقده .

وقال الشاعر :

فمن سره ألا يرى مايسوءه ... فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال أصحابُ هذا الشأن : القناعة من وجهٍ صبر ، ومن وجهٍ جود ، لأنّ الجود ضربان : جودٌ بما فى يدك متنزعا ، وجودٌ عمّا فى يدِ غيرك متورّعا ، وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزّهد فى الحقيقةِ إلّا لمن يعرف الدّنيا ماهى؟ ويعرف عيوبها وآفاتها، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها ، ولابدّ فى ذلك من العلم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [٢] .

ولأنّ الزّاهد فى الدنيا راغبٌ فى الآخرة وهو يبيعها بها ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [٣] الآية .

والكيّس لا يبيعُ عيْناً بأثر ، إلّا إذا عرفهما وعرف فضلَ ما يبتاعُ على ما يبيع .

(١) سورة القصص ٧٩ ، ٨٠ (٢) سورة التوبة ١١١

الأصْلُ :

شارِكُوا الَّذِين قَدْ أقْبَلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ ، فإنَّهُ أخْلَقُ لِلغِنَى ، وأجْدَرُ بإقبالِ الحظِّ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الحظّ والبختِ .

وكان يقال : الحظّ يُعدِى كما يُعدِى الجَرَب ، وهذ يطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخالطة غير المجدود[1] ، فإن الأولى تقتضى الاشتراك فى الحظ والسعادة ، والثانية تقتضى الاشتراك فى الشقاء والحرمان .

والقول فى الحظ وسيعٌ جداً .

وقال بعضهم : البَخت على صورةِ رجلٍ أعمى أصمّ أخرس ، وبين يديه جواهرُ وحِجارة ، وهو يَرمى بكلتا يَدَيه .

وكان مالكُ بن أنس فقيهَ المدينة ، وأخذ الفقه عن اللَّيْث بن سعد ؛ وكانوا يزدحمون عليه واللَّيْثُ جالس لا يلتفتون إليه ، فقيل لليث : إنّ مالكاً إنما أخذ عنك فما لَكَ خاملاً وهو أنبهُ الناسِ ذِكرا ! فقال : دانِقُ بَخْتٍ خيرٌ من جملِ بُخْتِيّ حُمِّل عِلما .

وقال الرّضيّ :

أُسِيغ الغيظ من نُوَب اللّيالى	وما يُخفِيْن بالخنق المَغيظِ[2]
وأرجو الرِّزق من خَرْقٍ دَقيقٍ	يُسَدُّ بسلك حرمانٍ غَليظِ[3]
وأرجِع ليس فى كَفِّيَّ منه	سِوَى عَضّ اليدينِ على الحظوظ

(١) عبارة د : « ليست كمخالطة المحدود » ، وبها يستقيم المعنى أيضاً .

(٢) ديوانه ١ : ٤٥٣ (٣) فى الديوان : « من خرت » ، والخرت : الثقب

(٢٢٨)

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى قوْلِهِ عزَّ وجَلَّ :

﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسانِ ﴾[1] : الْعَدْلُ الإنْصافُ ، والإحْسانُ التَّفضُّلُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا تفسيرٌ صحيح اتفق عليه المفسرون كافة ، وإنما دخل النّدْب تحت الأمر لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه ، وليس كالمُباح الذي لا صِفَةَ له زائدة على حُسْنه .

وقال الزّمخشري : العَدْل هو الواجب ، لأنّ الله عزّ وجلّ عَدَل فيه على عباده ، فجعل ما فَرَضَه عليهم منه واقعاً تحت طاقتِهم ، والإحسان النّدْب ، وإنما علق أمره بهما جميعاً ؛ لأنّ الفَرْض لا بدّ أن يقع فيه تفريط ، فيَجْبُره النّدب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله لإنسان علّمه الفرائض فقال : والله لا زدتُ فيها ولا نقصتُ منها : « أفلح إن » صَدَق ، فعقدَ الفلاح بشَرْط الصِّدق والسلامة من التفريط ؛ وقال صلى الله عليه وآله : « استقيموا ، ولن تحصوا » ، فليس ينبغي أن يترك ما يَجبر كَسْر التفريط من النوافل[2] .

ولقائل أن يقول : إن كان إنما سمى الواجب عَدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلّف فليسمّ النَّدْب عَدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلف ، وأما قوله : إنما أمر بالنَّدْب لأنه يجبر ما وَقَع فيه التفريط من الواجب ، فلا يصحّ على مذهبه ، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جُبِرت النافلة بالتفريط فى الواجب لكانت واجبةً مثله ، وكيف يقول الزمخشري هذا ومن قول مشايخنا إنّ تارك صلاة واحدةٍ من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعة من النوافل لم يكفِّر ثوابها عقاب تَرْك تلك الصلاة !

---

(١) سورة النحل ٥٠

(٢) تفسير الكشاف ٢ : ٤٩٠

الأصل :

وقال عليه السلام :

مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ .

***

قالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى :

ومعنى ذلكَ أنّ ما يُنفقهُ المرءُ من مالهِ في سبيلِ الخيرِ والبرِّ وإنْ كان يسيراً فإنّ اللهَ تعالى يجعلُ الجزاءَ عليهِ عظيماً كثيراً ؛ واليدانِ ها هنا عبارةٌ[1] عنِ النعمتينِ ففرّقَ عليهِ السلامُ بينَ نعمةِ العبدِ ونعمةِ الربِّ تعالى ذِكرُهُ ، بالقصيرةِ والطويلةِ ، فجعلَ تلكَ قصيرةً وهذهِ طويلةً ، لأنّ نِعمَ اللهِ أبداً تُضعفُ على نِعمِ المخلوقينَ أضعافاً كثيرةً ؛ إذْ كانتْ نِعمُ اللهِ أصلَ النعمِ كلها ، فكلُّ نعمةٍ إليها ترجعُ ، ومنها تُنزعُ .

الشرح :

هذا الفصل قد شرحه الرضيّ رحمه الله ، فأغنى عن التعرّض بشرحه .

---

(١) في ب : « عبارتان » تحريف .

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ لابْنِهِ الحسَنِ : لا تَدْعُوَنَّ إلى مُبارَزَةٍ ، فإنْ دُعِيتَ إليها فأجب؛ فإنَّ الدَّاعيَ إليْها باغٍ ، والْباغِي مَصْرُوعٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

[مُثُل من شجاعة عليّ]

قد ذكَر عليه السلام الحِكْمة، ثم ذكر العِلّة ، وما سَمِعْنا أنه عليه السلام دعا إلى مُبارَزةٍ قطّ ، وإنما كان يدعَى هو بعينه ، أو يدعو من يبارز ، فيَخْرُج إليه فيقتله ، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بنى هاشم إلى البراز يوم بَدْر ، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام فى قَتْل عُتْبة ، ودعا طَلْحة بن أبى طَلْحة إلى البراز يوم أحد ، فخرج إليه فقتله ، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله .

فأما الخَرْجة التى خرَجها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبدوُدّ فإنّها أجلّ من أن يقال جليلة ، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هى إلاّ كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ: أيّما أعظم منزلة عند الله ،علىٌّ أم أبو بكر ؟ فقال: يابن أخى، والله لمبارَزة علىٍّ عَمْرا يوم الخندق تَعْدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتُرْبِى عليها فضلا عن أبى بكر وحدَه . وقد رُوِى عن حذيفة بن اليمان ما يُناسِب هذا ، بل ما هو أبلغ منه ، رَوَى قيسُ بنُ الرّبيع عن أبى هارون العبْدىّ ، عن ربيعة بن مالك السعدىّ ، قال : أتيتُ حذيفة بن اليمان فقلت : يا أبا عبدِ الله ، إنّ الناس يتحدّثون[1] عن علىّ بن أبى طالب ومناقبِه ، فيقول لهم أهل

---

(١) ب : « يستحدثون » تحريف

البصيرة : إنكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل ، فهل أنت محدثي بحديث عنه أذكره للناس ؟ فقال : يا ربيعة ، وما الذي تسألني عن عليّ ، وما الذي أحدثك عنه ! والذي نفسُ حُذيفة بيده لو وضع جميعُ أعمال أمة محمد صلى الله عليه وآله في كِفّة الميزان مُنذ بَعث الله تعالى محمدا إلى يوم الناس هذا ، ووُضِع عملٌ واحدٌ من أعمال عليّ في الكفّة الأخرى لرَجَح على أعمالهم كلّها ؛ فقال ربيعة : هذا المَدْح الذي لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل ، إني لأظنه إسرافا يا أبا عبد الله ! فقال حذيفة : يا لُكَع ، وكيف لا يُحمل ! وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع ، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتى برز إليه عليٌّ فقتله ! والذي نفسُ حذيفة بيده لَعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أمةِ محمد صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة .

وجاء في الحديث المرفوع : « إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال ذلك اليومَ حينَ برز إليه : « برَزَ الإيمانُ كلّه إلى الشِّرْك كلِّه » .

وقال أبو بكر بن عيّاش : لقد ضَرَب عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام أيْمَنَ منها ، ضَرْبَتَهُ عَمْرا يومَ الخندق ، ولقد ضُرِب عليٌّ ضربةً ما كان في الإسلام أشأمَ منها — يعني ضربة ابن مُلجَم لَعنه الله .

وفي الحديث المرفوع أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما بارزَ عليٌّ عَمْرا مازال رافعا يَدَيْه مُقْمِحا [(١)] رأسَه نحوَ السماء ، داعياً ربّه قائلاً : اللهم إنّك أخذْتَ منّي عُبيدةَ يومَ بَدْرَ ، وحمزةَ يوم أُحُد ، فاحفظْ عليّ اليومَ عليّاً ، ﴿ ربِّ لا تَذَرْني فردا وأنت خير الوارثين ﴾ [(٢)] .

وقال جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري : والله ماشبّهتُ يومَ الأحزاب ؛ قتلَ عليٌّ عمْرا

---

(١) أقمح رأسه : كشفها .

(٢) سورة الأنبياء ٨٩ .

وتخاذُل المُشركين بعدَه، إلا بما قصّه الله تعالى من قِصّة طالوتَ وجالُوت فى قوله: ﴿فهزَمُوهم بإذن الله وقتلَ داودُ جالوتَ﴾[1].

ورَوَى عمرو بن أزهر، عن عمرو بن عُبيد، عن الحسن أنّ عليًّا عليه السلام لمّا قتلَ عَمرا احتزّ رأسَه وحَمَله فألقاه بين يدَىْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، فقام أبو بكر وعُمَر فقبّلا رأسَه، ووَجْهُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه يتهلّل، فقال: هذا النّصر! أو قال: هذا أوّل النّصر.

وفى الحديث المرفوع: إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال يومَ قُتِل عمرو: «ذهبت ريحُهم، ولا يَغزونا بعد اليوم، ونحن نَغزُوهم إن شاء الله».

***

[قصّة غزوة الخندق]

وينبغى أن نذكرُ ملخّص هذه القصّة من مغازِى الواقدىّ وابن إسحاق، قالا: خرج عَمرو بن عبدِ ودّ يومَ الخندق وقد كان شهد بَدْرا فارتُثّ[2] جريحا، ولم يشهد أُحُدا، فحضر الخندقَ شاهراً سيفه[3] معلما، مُدِلا بشجاعته و بأسِه، وخرج معه ضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْرِىّ وعِكرمة بنُ أبى جهل وهُبَيرة بن أبى وَهْب ونَوفَل بن عبد الله ابن المغيرة المخزوميّون، فطافوا بخيُولهم على الخندقَ إصعادا وانحدارا، يَطلُبون مَوضعا ضيّقا يَعبرُونه، حتّى وقفوا على أضيق موضع فيه فى المكان المعروف بالمزار؛ فأكرهوا خيولَهم على العُبور فعبرتْ، وصاروا مع المسلمين على أرضٍ واحدة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وأصحابُه قيام على رأسِه، فتقدّم عمرو بن عَبْد ودّ فدعا

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ (٢) ارتث: حمل من المعركة جريحاً وبه رمق

(٣) ب: «نفسه» تحريف.

إلى البراز مرارا ، فلم يقم إليه أحد ، فلمّا أكثر ، قام علىٌّ عليه السلام فقال : أنا أبارزه يارسولَ الله ، فأمره بالجلوس ، وأعاد عمرو النّداء والناسُ سُكوت كأنّ على رءوسهم الطّير ، فقال عمرو : أيّها الناس ، إنّكم تزعمون أنّ قتلاكم فى الجنّة وقتلانا فى النار ، أفما يحبّ أحدكم أن يَقدم على الجنّة أو يُقدِّم عدوًّا له إلى النار ! فلم يقمْ إليه أحد ، فقام علىٌّ عليه السلام دفعةً ثانية وقال : أنا له يارسولَ الله ، فأمره بالجلوس ، فجال عمرو بفرسه مُقبِلا ومدبِرا ، وجاءت عُظماء الأحزاب فوقفتْ مِن وراء الخندق ومدّت أعناقَها تَنظر ، فلمّا رأى عمرو أنّ أحدا لا يجيبه ، قال :

ولقد بُححْتُ من النّدا ءِ بجمعِهِمْ : هل مِن مُبارِزْ !
ووقفتُ مــذجَبُن المشيَّــع موقفَ القِرْن المُناجِزْ
إنّى كذلكَ لم أزلْ متسرّعا قبل الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ فى الفتَى والجود من خير الغرائزْ

فقامَ علىٌّ عليه السلام فقال : يارسولَ الله ، ائذَنْ لى فى مُبارَزته ؛ فقال : ادْنُ ، فدنا فقلّده سيفَه ، وعمّمه بعِمامته ، وقال : امضِ لشأنِك ، فلمّا انصرفَ قال : «اللّهمّ أعِنه عليه» ، فلمّا قَرُب منه قال له مجيبا إيّاه عن شِعره :

لا تَعجلنّ فقد أتا كَ مجيبُ صوتك غير عاجزْ
ذو نيّــة وبَصيرةٍ يرجو بذاكَ نجاةَ فائزْ
إنّى لآمُــل أن أقيــمَ عليكَ نائحةَ الجنائزْ
مِن ضَرْبةٍ فوهاءَ يبــقَى ذِكرُها عند الهزاهِزْ

فقال عمرو : منَ أنت ! وكان عمرو شيخا كبيرا قد جاوزَ الثّمانين ، وكان نديمَ أبى طالب بنِ عبدِ المطّلب فى الجاهليّة ، فانتَسب علىّ عليه السلام له وقال : أنا علىُّ بنُ أبى طالب ، فقال : أجَلْ ، لقد كان أبوكَ نديمًا لى وصديقا ، فارجع فإنّى لا أحبّ أن

أقتلك - كان شيخنا أبو الخير مصدّق بن شَبيب النحوىّ يقول : إذا مررْنا فى القراءة عليه بهذا الموضع : والله ما أمره بالرّجوع إبقاء عليه ، بل خوفا منه ، فقد عرَف قتلاه ببَدْر وأحُد ، وعَلِم أنّه إنْ ناهضَه قتَلَه ، فاستحْيا أن يُظهِر الفشَل ، فأظهر الإبقاء والإرعاء ، وإنّه لكاذب فيهما - قالوا : فقال له علىٌّ عليه السلام : لكنّى أحِبُّ أن أقتلَك ، فقال يابن أخى ، إنّى لأكره أن أقتلَ الرجلَ الكريم مِثلك ، فارجع وراءك خيرٌ لك ، فقال علىٌّ عليه السلام : إن قريشا تتحدّث عنك أنّك قلت : لا يدعونى أحدٌ إلى ثلاثٍ إلا أجبتُ ولو إلى واحدةٍ منها ، قال : أجَلْ ، فقال علىٌّ عليه السلام : فإنّى أدعوك إلى الإسلام ، قال : دعْ عنك هذه ، قال : فإنّى أدعوك إلى أن ترجع بمن تَبِعك من قريش إلى مكّة ، قال : إذَنْ تتحدّثَ نساء قريش عنّى أنّ غلاما خدَعنى ، قال : فإنّى أدْعُوك إلى البِراز ، فحمِىَ عمرو وقال : ما كنتُ أظنّ أن أحدا من العرب يرومُها منّى ، ثمّ نزل فعقَر فرَسَه - وقيل : ضرب وجهه ففرّ - وتجاوَلا ، فثارت لهما غبرة وارتْهما عن العيون ، إلى أن سمع الناسُ التكبيرَ عاليا من تحت الغبَرة ، فعلِموا أنّ عليّا قتَلَه ، وانجلت الغبَرة عنهما ، وعلىٌّ راكب صدره يحزّ رأسه ، وفرّ أصحابُه ليعبرُوا الخندق ، فظفرتْ بهمْ خيلُهم إلاّ نوفَل بن عبد الله ، فإنه قصر فرسه ، فوقع فى الخندق ، فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال : يامعاشر الناس ، قِتْلة أكرمُ من هذه ، فنزل إليه علىٌّ عليه السلام فقتَله ، وأدرك الزّبيرُ هبيرة بنَ أبى وهب فضرَبه فقطع ثفر[1] فرسهِ وسقطتْ دِرْعٌ كان حمَلَها مِن ورائه ، فأخذها الزبير ، وألقى عِكْرمة رُمحه ، وناوش عُمَر بن الخطّاب ضرار بن عُمرو ، فحَمَلَ عليه ضِرار حتى إذا وجد عمرُ مَسّ الرّمح رَفَعه عنه وقال : إنها نِعمة مشكورة ، فاحفظْها يا بنَ الخطّاب ، إنّى كنتُ آليتُ ألاّ يُمكِنُنى يداىَ من قتلِ قرشىّ فأقتله . وانصرف ضرارٌ راجعا إلى أصحابه ، وقد كان جرى له معه مِثل هذه فى يوم أحُد . وقد ذكر هاتين القصتين معاً محمد ابنُ عُمَر الواقدىّ فى كتاب المَغازى[2] .

---

(١) الثفر : السير فى مؤخر السرج .

(٢) وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٢٤١

الأصْـلُ :

خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ : الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ ، فَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا

•••

الشَّـرْحُ :

أخَذَ هذا المعنَى الطُّغرائىُّ شاعرُ العجم فقال :

الجودُ والإقدامُ فى فِتيانهمْ والبخلُ فى الفتيات والإشفاقُ

والطعنُ فى الأحداقِ ِبأسمرُماتهمْ والراميات سهامَها الأحداقُ

وله :

قد زادَ طيبَ أحاديث الكرامِ بها ما لها لكرائم من جُبْن ومن بُخْلِ

وفى حكمةِ أفلاطون : مِن أقوى الأسباب فى محبّة الرجل لامرأته واتفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دونَ صوته بالطّبع ، وتميزُها دون تميُّزه ، وقلبُها أضعف من قلبِه ، فإذا زاد من هذا عندها شىءٌ على ماعندَ الرجل تنافرَا على مقداره .

وتقول : زُهىَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ ، إذا افتخر ، وكذلك نُخِىَ فهو منْخُوٌّ ، من النَّخْوة ، ولا يجوز زَهَا [1] إلاّ فى لغةٍ ضعيفة .

وفَرِقتْ : خافتْ . والفَرَق : الخوف .

---

(١) عن ابن السكيت

الأصل :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ : صِفْ لَنَا الْعَاقِلَ ، فَقَالَ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشيءَ مَوَاضِعَهُ .

فَقِيل : فَصِفْ لَنَا الْجَاهِلَ ، قَالَ : قَدْ قُلْتُ .

***

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، يَعْنِي أَنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لَا يَضَعُ الشيءَ مَوَاضِعَهُ ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةٌ لَهُ ، إِذْ كَانَ بِخِلافِ وَصْفِ الْعَاقِلِ .

***

الشرح :

هذا مِثلُ الكلام الذى تَنْسُبه العربُ إلى الضَّبّ . قالوا : اختصمت الضَّبُع والثعلبُ إلى الضَّبّ ، فقالت الضبع : ياأبا الحِسْل[1] إنى التقطتُ تمرة ، قال : طيّباجنيتِ ، قالت : وإن هذا أخذها منّى ؛ قال : حظٌّ نفسه أحرز ، قالت : فإنّى لطمتُه ؛ قال : كريمٌ حَمَى حقيقته ، قالت : فلطمنى ، قال : حُرٌّ انتصر ؛ قالت : اقضِ بيننا ، قال : قد فعلتُ .

---

(١) الحسل : ولد الضب .

الأصـلُ :

وَاللهِ لَدُنياكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُراقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ .

***

الشرح :

العُراق : جمع عَرْق ، وهو العَظْم عليه شيء من اللَّحْم ، وهذا من الجموع النادرة ، نحو رَخْل ورُخال وتوْأم وتُؤام [1] ولا يكون شيء أحقر ولا أبغضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير في يدِ مَجذوم ، فإنه لم يَرْضَ بأن يجعله في يد مجذوم ـ وهو غاية ما يكون مِن التنفير ـ حتى جعله عُراق خنزير .

ولعَمْري لقد صَدَق ـ وما زال صادقا ـ ومن تأمل سيرتَه في حالتَيْ خلوّه من العمل وولايته الخلافة عَرَف صحة هذا القول .

---

(١) ب : « تمام » تحريف .

الأصل :

إنّ قوماً عبدُوا اللهَ رَغبةً فتِلكَ عِبادةُ التُّجّارِ ، وَإنّ قوماً عبدُوا اللهَ رَهْبةً فتِلكَ عِبادةُ العَبيدِ ، وَإنّ قوماً عبدُوا اللهَ شُكراً فتِلكَ عِبادةُ الأحرارِ .

* * *

الشرح :

هذا مقامٌ جليلٌ تتقاصر عنه قُوَى أكثر البَشَرِ ، وقد شرحناه فيما تقدّم ، وقلنا : إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوضة ، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزلةٌ من يَستجدِي لسلطانٍ قاهرٍ يخاف سطوتَه .

وهذا معنَى قولِه : « عبادةُ العبيد » ، أى خَوف السّوط والعصا ، وتلك ليس عبادةٌ نافعة ، وهى كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونِقمته ، لا لأنّ مايَعتذر منه قبيح لا ينبغى له فِعْلُه ، فأمّا العبادة لله تعالى شكراً لأنعمه فهى عبادةٌ نافعة ، لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص ، فإذا أوقعَها على هذا الوجه فقد أوقعها الموقعَ الّذى وُضِعتْ عليه .

فأما أصحابُنا المتكلّمون فيقولون : ينبغى أن يَفعَل الإنسان الواجبَ لوجْهِ وجوبه ، ويترك القبيحَ لوجه قبحه ، وربّما قالوا : يُفعل الواجبُ لأنّه واجب ، و يُترك القبيحُ لأنّه قبيح ، والكلامُ فى هذا الباب مشروحٌ مبسوطٌ[1] فى الكُتُب الكلاميّة .

---

(١) ساقطة من ا

الأصل :

الْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا ، وَشَرُّ مَافِيهَا أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْهَا .

***

الشرح :

حَلَفَ إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه مادخل بابى شرٌّ قطّ ؛ فقال الحكيم : فمِنْ أينَ دخلَتِ امرأتُك !

وكان يقال : أسباب فِتنة النساء ثلاثة : عينٌ ناظرة ، وصورةٌ مستحسَنَةُ ، وشهوةٌ قادرة ، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يعرفَ حقائقَ الصّورة ؛ ولو أنّ رجلا رأى امرأةً فأعجبته ثمّ طالَبها فامتنعتْ ، هل كان إلّا تارِكَها ! فإن تأبّى عقلُه عليه فى مُطالَبتها كتأبّيها عليه فى مُساعَفتها قدَع[1] نفسَه عن لذّته قَدْعَ الغيُور إيّاه عن حُرْمةِ مُسلِم .

وكان يقال : من أتعب نفسَه فى الحلال من النِّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ ، كالطّليح[2] مُناه أن يَستريح .

---

(١) قدع نفسه : منعها وحد من شهوتها .

(٢) الطليح : المتعب .

الأصلُ :

مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ .

***

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ فى التوانى والعجز ، وتقدّم أيضا الكلامُ فى الوِشاية والسّعاية .

ورُفِع إلى كسرى أبرويز أنّ النصارى الذين يحضُرون بابَ المَلِك يُعرَفون بالتجسّس إلى مَلِك الروم ، فقال : مَن لم يَظهر له ذنب لم يَظهر منّا عقوبة له .

ورُفع إليه أنّ بعض الناس يُنكِر إصغاء الملِك إلى أصحاب الأخبار ، فوقّع : هؤلاء بمنزلةِ مَداخِل الضِّياء إلى البيت المُظلِم ، وليس لقَطْع موادِّ النور مع الحاجة إليه وجهٌ عند العقلاء .

قال أبو حيّان : أمّا الأصل فى التدبير فصحيح ، لأنّ المَلِك محتاج إلى الأخبار ، لكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه :

خبرٌ يتّصل بالدّين ، فالواجب عليه أن يُبالِغ ويَحتاط فى حِفظه وحِراسته وتحقيقهِ ونفى القَذَى عن طريقه وساحته .

وخبرٌ يتّصل بالدّولة ورسومها ، فينبغى أن يتيقّظ فى ذلك خوفا من كيدٍ ينفذ ، وبغىٍ يَسرِى .

وخبرٌ يدور بين الناس فى منصرَفِهم وشأنِهم وحالهم ، متى زاحمتَهم فيه أضغَنوا

عليك ، وتمنّوا زوالَ مُلْكِكَ ، وأرصدوا العداوة لك ، وجهروا إلى عدوّك وفتحوا له بابَ الحيلة إليك .

وإنّما لحقَ الناسَ من هذا الخبر هذا العارض ، لأنّ فى منع الملك إيّاهم عن تصرّفاتهم ، وتتبّعه لهم فى حركاتهم ، كَرْبا على قلوبهم ، ولهيباً فى صُدورهم ، ولابدّ لهم فى الدّهر الصالح والزّمان المعتدل ، والخِصب المتتابع ، والسبيل الآمن ، والخير المتّصل ؛ من فُكاهة وطِيب واسترسال وأشَر وبطَر ، وكلّ ذلك من آثار النعمة الدارّة ، والقلوب القارّة ، فإنْ أغضَى المَلِك بصره على هذا القِسْم عاشَ محبوبا ، وإن تنكّر لهم فقد استأسَدَهم أعداء . والسلام .

الأصـل :

الْحَجَرُ الْغَصْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ رُوِيَ مَايُنَاسِبَ هَذَا الْكَلَامَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَجَبَ أَن يَشْتَبِهَ الْكَلَامَانِ فَإِنَّ مُسْتَقَاهُمَا مِنْ قَلِيبٍ ، وَمَفْرَغَهُمَا مِنْ ذَنُوبٍ .

* * *

الشرح :

الذَّنُوب : الدلو المَلأى ، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ : ذَنُوب ،ومعنى الكلمة أن الدّار المبنيّة بالحجارة المَغصوبة ولو بحَجَر واحد ، لابدّ أن يتعجّل خرابُها ، وكأنما ذلك الحجَر رَهْن على حصول التخرّب ، أى كما أنّ الرّهْن لابدّ أن يُفتَكّ ، كذلك لابدّ لِما جُعل ذلك الحجرُ رَهْنا عليه أن يحصُل .

وقال ابن بسّام لأبى علىّ بنِ مُقْلة لمّا بَنَى داره بالزّاهر ببغداد من الغصْب وظُلمِ الرعيّة :

بجَنْبِك دارانِ مَهدومتانِ ودارُكَ ثالثةٌ تُهـدَمُ
فلَيتَ السلامَةَ للمُنصِفِيـ ـن دامتْ فكيفَ لمن يَظلِمُ

والدّاران : دارُ أبي الحسن بنِ الفُرات ، ودارُ محمّد بن داودَ بن الجرّاح .

وقال فيه أيضا :

قلْ لابنِ مُقلَةَ مهلاً لا تكن عَجِلاً فإنّما أنتَ في أضغاثِ أحلامِ

تَبنى بأنقاضِ دُورِ الناس مجتهداً داراً ستُنقَضُ أيضا بعد أيّامِ[1]

وكان ماتفرّسه ابنُ بسّام فيه حقّا ، فإنّ داره نُقِضتْ حتى سوّيت بالأرض فى أيّام الراضى بالله .



---

(١) تنقض : تقوض وتهدم .

(٢٣٨)

الأصْلُ :

يَوْمُ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى المَظْلُومِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في الظّلم مرارا .

وكان يقال : اذكُرْ عندَ الظّلم عدلَ الله تعالى فيكَ ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك .

وإنّما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم ، لأنّ ذلك اليومَ يومُ الجزاء الكُلّيّ ، والانتقام الأعظم ، وقُصارَى [1] أمرِ الظالم في الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُميته مِيتةً واحدة ، ثمّ لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألمًا آخَر ؛ وأمّا يومُ الجزاء فإنّه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح [2] ، بل عذابُه دائمٌ متجدِّد ، نعوذ بالله من سُخْطِه وعِقابه .

---

(١) ا : « وقصر » (٢) ا : « لا يستريح فيه الظالم » .

(٢٣٩)

الأصلُ :

اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وإنْ قَلَّ ؛ واجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ سِتْراً وإنْ رَقَّ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقال فى المَثَل : ما لا يُدْرَك كلُّه لا يُتْرَك كلُّه .

فالواجب على من عَسُرتْ عليه التقوى بأجمعها أن يتقى الله فى البعض ، وأن يجعل بينه وبينه سِتْرا وإن كان رقيقا .

وفى أمثال العامّة : إجعل بينك وبين الله رَوْزنة [1] ، والرَّوْزَنة لفظة صحيحة مُعرَّبة ، أى لا تجعل ما بينك وبينه مَسْدودا مظلما بالكلّية .

---

(١) فى اللسان : « الروزنة : الكوة ، وفى المحكم : الخرق فى أعلى السقف . وعن التهذيب : يقال للكوة النافذة الروزن ؛ قال : وأحسبه معربا .

(٢٤٠)

الأصلُ :

إذَا ازْدَحَمَ الْجوابُ ، خَفِيَ الصَّوَابُ .

* * *

الشرحُ :

هـذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالا في بعض المسائل النَّظَرِيَّة بحضرةِ جماعةٍ من أهـل النظر ، فيَتغالب القـومُ ويتسابقون إلى الجواب عنـه ، كلٌّ منهم يورِد ما خَطَرَ له .

فلا رَيْب أنّ الصواب يَخفى حينئذ ، وهذه الـكلمة في الحقيقة أمر للنّاظر البحّاث أن يتحرّى الإنصاف في بحثه ونظره مع رفيقه ، وألا يقصد المِراء[1] والمغالبة والقَهرَ .

---

(١) المراء : الجدال .

(٢٤١)

الأصل :

إنَّ لِلهِ تعالى فى كُلِّ نِعْمَةٍ حقًّا ، فَمَن أدّاهُ زَادَهُ مِنها ، ومَنْ قَصَّرَ فِيهِ خاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ .

•••

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ فى هذا المعنى .

وجاء فى الخبر : مَن أوتى نعمةً فأدّى حقَّ الله منها بِردِّ اللّهفة ، وإجابةِ الدّعوة وكشف المظلمة ، كان جديراً بدوامها [ومَنْ قصر قُصِّرَ به][1] .

الأصل :

إذا كَثُرَتِ المَقْدُرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ[1] .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولهم : كلُّ مقدورٍ عليه مملول ، ومثل قول الشاعر .

* وكلُّ كثيرٍ عدوُّ الطّبيعه *

ومثل قولِ الآخر :

وأخٍ كَثُرَتُ عليه حتّى مَلّني والشيء مملولٌ إذا هو يرخُصُ

ياليتَه إذْ بَاعَ وُدِّيَ باعَه ممّن يزيد عليه لا من يَنقُصُ

ولهذا الحُكْم عِلّة فى العِلْم العقلى ، وذلك أنّ النفس عندهم غنيّة بذاتها ، مكتفية بنفسها ، غيرُ محتاجة إلى شئ خارج عنها ، و إنما عَرضتْ لها الحاجة والفقر إلى ماهو خارج عنها لمقارَنتها الهيُولى ، وذلك ، أن أمْرَ الهيُولى بالضّد من أمرِ النّفس فى الفقر والحاجة ، ولمّا كان الإنسانُ مركّبا من النّفس والهيُولى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات[2] لانتفاعه بهما ، والتذاذه بحصولها ، فأما العلوم فإنّه يحصّلها فى شبيهٍ بالخزانة له ، يَرجِع إليها متى شاء ، ويستخرج منها ماأراد ، أعنِى القُوَى النفسانيّة الّتى هى محلّ الصوَر والمعانى على ماهو مذكور فى موضعه . وأما القنيات والمحسوسات

---

(١) د : « المشورة »

(٢) القنيات : جمع قنية ؛ بالضم والكسر : ما اكتسبه الإنسان .

فإنه يروم منها مِثل مايَرومُ من تلك ، وأن يُودِعها خِزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته ، لكنّه يَغلَط في ذلك من حيث يُستكثِر منها ، إلى أن يتنبهَ بالحكمة على ماينبغى أن يقتنىَ منها ، وإنّما حَرَص على مامُنِـع لأنّ الإنسان إنما يطلُب ماليسَ عندَه ، لأن تحصيلَ الحاصِلِ مُحال ، والطَّلَب إنما يتوجّه إلى المعدوم ، لا إلى الموجود ، فإذا حصَّله سَكَن وعَلِم أنه قد ادّخره ، ومتى رَجَع إليه وَجَده إن كان ممّا يَبقَى بالذات خَزَنَه وتَشوّق إلى شيء آخَر منه ، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أنّ الجزئيات لا نهايةَ لها وما لا نهاية له ، فلا مَطْمع في تحصيله ، ولا فائدَة في النزوع إليه ، ولا وجهَ لطَلَبه سواء كانَ معلوماً أو محسوسا ، فوَجَب أن يقصَد منَ المعلومات إلى الأهمّ ومن المُقتَنيات إلى ضَرُورات البدن ومُقيماتِه ، ويَعدِل عن الاستكثار منها ، فإنّ حصولها كلّها مع أنّها لا نهاية لها غيرُ ممكن ، وكلّما فضل عن الحاجة وقَدْر الكفاية فهو مادّة الأحزان والهموم ، وضُروب المكاره ، والغَلط في هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمعُ الإنسان في الغِنَى من مَعدِن الفقر ، لأن الفقر هو الحاجة ، والغِنَى هو الاستقلال ، إلى أن يحتاج إليه ، ولذلك قيل : إن الله تعالى غَنِىّ مُطلقًا ، لأنه غيرُ محتاج البتّة ، فأما من كثرت قِنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قِنياته ، وعلى قدْرها رغبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فقْره ، وقد بُين ذلك في شرائع الأنبياء ، وأخلاقِ الحكماء ، فأما الشيء الرخيصُ الموجود كثيرا فإنّما يُرغَب عنه ، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجِد والغالى فإنّما يقدر عليه في الأحيان ويصيبه الواحدُ بعدَ الواحد ، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدُ ليصيبَه وليحصُلَ له مالا يَحصُل لغيره .

الأصلُ :

احذَرُوا نِفارَ النِّعَمِ ، فما كُلُّ شاردٍ بمَرْدُودٍ .

* * *

الشرح :

هذا أمرٌ بالشُّكر عَلَى النعمة وتركِ المعاصي ، فإنّ المعاصيَ تُزيل النِّعَم كما قيل :

إذا كنتَ في نِعمةٍ فارْعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيل النِّعَمْ

وقال بعض السلف : كُفْرانُ النِّعمة بَوار ، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها ، فاستَدْعِ شاردَها بالشُّكر ، واستدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار ، ولا تحسب أنَّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم تَرْجُ لله وَقارا .

وقال أبو عصمة : شَهِدتُ سُفيانَ وفُضَيْلاً[١] فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النعم ، يقولان : أنعم الله سبحانه علينا بكذا ، وفعل بنا كذا .

وقال الحسن[٢] : إذا استوى يَوْماك فأنتَ ناقص ، قيل له : كيف ذاك ؟ قال : إنْ زادكَ اللهُ اليومَ نِعَماً فعليك أن تَزْداد غدًا له شُكرًا .

وكان يقال : الشكر جُنّة[٣] من الزَّوال ، وأَمَنة من الانتقال .

وكان يقال : إذا كانت النعمة وَسِيمةً فاجعَل الشكرَ لها تَميمة[٤] .

---

(١) هو فضيل بن عياض

(٢) هو الحسن البصري

(٣) جنة : وقاية .

(٤) التميمة : العوذة .

الأصْلُ :

الكَرَمُ أعطَفُ مِنَ الرَّحِمِ .

***

الشَّرْحُ :

مِثلُ هذا المعنى قولُ أبي تمام لابن الجهْمِ :

إلاّ يَكُنْ نسبٌ يؤلِّفُ بيننا　　أدبٌ أقمناه مقامَ الوالِدِ[1]

أو يختلِفْ ماء الوصالِ فماؤنا　　عذبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

ومن قصيدةٍ لي في بعض أغراضي :

ووشائج الآداب عاطفةُ الـ　　فُضَلاء فوقَ وَشائجِ النَّسبِ[2]

---

(١) ديوانه ١ : ٤٠٧ ، وقبله :

إنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاءِ فإنّنا　　نَغْدُو ونَسْرِي في إخاءٍ تالِدِ

(٢) في الأصول : « الأنساب » ، ولا يستقيم الوزن

(٢٤٥)

الأصْلُ :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا قد تقدّم فى وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن .

ومن كلام بعضهم : إنّى لأستحيي أن يأتيَنى الرجُلُ يحمَرُّ وجهُه تارةً من الخجَل أو يصفّر أخرى من خوف الردّ قد ظَنّ بي الخيرَ وباتَ عليه وغَدا علىّ أن أردَّه[1] خائبا .

---

(١) ا : « يرد » .

(٢٤٦)

الأصـلُ :

أفضلُ الأعمالِ ما أكرهتَ نفسكَ عليهِ .

***

الشـرحُ :

لا ريبَ أنّ الثواب على قدر المشقة ، لأنه كالعِوَض عنها[١] ، كما أنّ العِوَض الحقيقيّ عِوضٌ عن الألم ، ولهذا قال صلى الله عليه وآله : « أفضل العبادة أحمَزُها »[٢] . أي أشقها .

(١) ا : « منها »

(٢) نقله ابن الأثير في النهاية ١ : ٢٠٨ قال : يقال : رجل حامز الفؤاد وحميزه ؛ أي شديد

الأصل :

عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ ، وَحَلِّ الْعُقُودِ ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ .

***

الشرح :

هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة البارى سبحانه ، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ ، و يصمّمَ رأيه عليه ، ثم لا يَلبثَ أن يُخطِر اللهُ تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل ، ولم يكنْ فى حِسابه ، أى لولا أن فى الوجود[1] ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خطَرت الخواطرُ التى لم تكن محتسَبة ، وهذا فصل يتضمّن كلاماً دقيقا يذكره المتكلمون فى الخاطر الذى يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخطوره ؛ فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطرَه بباله ؛ و إلّا لكان ترجيحا من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم ، فلا بدّ أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجا عن ذات الإنسان ، وذلك هو الشىء المسمّى بصانِع العالم .

وليس هذا الموضع مما يحتمِل استقصاء القولِ فى هذا المبحَث .

و يقال : إنّ عَضُد الدّولة وقعتْ فى يده قصّة وهو يتصفّح القِصص ، فأمر بصَلْب صاحبها ثمّ أتبع الخادمَ خادماً آخر يقول له : قل للمطهّر - وكان وزيرَه - لا يَصلُبه ، ولكن أخرِجه من الحبْس فاقطعْ يدَه اليمنى ؛ ثم أتبعهُ خادما ثالثا ، فقال : بل تقول له: يقطع أعصابَ رجليْه ، ثم أتبعه خادماً آخرَ فقال له : ينقله إلى القَلْعة بسيرافَ فى قيودِه فيَجعله هناك ، فاختلفتْ دَواعيه فى ساعةٍ واحدة أربع مرّات .

---

(١) فى ب : « الجود» تحريف .

(٢٤٨)

الأصـلُ :

مَرَارَةُ ٱلدُّنْيَا حَلَاوَةُ ٱلْآخِرَةِ ، وَحَلَاوَةُ ٱلدُّنْيَا مَرَارَةُ ٱلْآخِرَةِ .

***

الشـرحُ :

لمّا كانت الدنيا[1] ضدَّ الآخرة ، وجَب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه ، كالسّواد يجمع البصَر والبياض يفرق البصر ، والحرارة توجب الخفة ، والبرُودة توجب الثّقل ؛ فإذا كان في الدّنيا أعمالٌ هي مرّة المَذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابها فتلك الأفعال تَقتضى[2] وتوجِب لفاعلها ثواباً حُلْوَ المَذاق في الآخرة .

وكذاك بالعكس ما كان من المشتَهيَات الدنياوية التى قد نَهى الشرعُ عنها تُوجب ، ـ وإن كانت حُلْوة المذاق ـ مَرارة العقوبة فى الآخرة .

---

(١) ا : « الحياة الدنيا ضد الحياة الآخرة »

(٢) ا : « تقضى »

الأصل :

فَرَضَ اللهُ الإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ ، وَالْحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّينِ ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلَامِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرْكَ الزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَالشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحَدَاتِ ، وَتَرْكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ ، وَالْأَمَانَةَ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ، وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

* * *

الشرح :

هذا الفصلُ يتضمن بيانَ تعليل العبادات إيجابا وسلبا .

قال عليه السلام : فَرَضَ اللهُ الإيمانَ تَطْهِيرا مِن الشِّرْك ، وذلك لأنّ الشِّرك نجاسة حُكْمية لا عينيَّة ، وأيّ شيء يكون أنجس من الجهل أو أقبح ، فالإيمان هو تطهيرُ القلْب من نجاسةِ ذلك الجهل .

وفُرِضت الصّلاة تنزيها من الكِبْر ، لأنّ الإنسان يقوم فيها قائما ، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له ، ثم يرفع يديه بالتكبير وقتَ الإحرام بالصّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيَّاف ، ثم يستكتف كما يفعله العبيد الأذلاّء بين يدي

السادة العظماء ، ثم يركع على هيئة من يمدّ عنقه ليضربها السيّاف ، ثم يسجُد فيضع أشرف أعضائه وهو جبهته على أدونِ المواضع ، وهو التراب . ثم تتضمّن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنّ صاحبها خارجٌ عن الصّلاة ، وما فى غضونِ الصلاة من الأذكار المتضمّنة الذُّلَّ والتواضع لعظمةِ الله تعالى .

وفُرضت الزّكاة تسبيبا للرزق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَما أنفقتُمْ من شىء فهو يُخلِفه ﴾[1] ، وقال : ﴿ مَنْ ذَا الّذِى يُقرِضُ اللهَ قرْضًا حَسنًا فَيُضَاعِفَه له ﴾[2] .

وفُرض الصيامُ ابتلاء لإخلاص الخلق ، قال النبىّ صلّى الله عليه وآله حاكيا عن الله تعالى : « الصّومُ لى وأنا أجْزِى به » ، وذلكَ لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد ، فلا يقوم به على وجهه إلاّ المخلِصون .

وفُرِض الحجّ تقوية للدّين ، وذلك لما يحصُل للحاجّ فى ضِمنِه من المتاجِر والمكاسِب ، قال الله تعالى : ﴿ ليَشْهَدُوا مَنافعَ لهم ويَذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزَقَهم مِنْ بَهيمةِ الأنعامِ ﴾[3] . وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون : لولا أنّ أصحابَ محمّد كثير وأُولُو قوّة لما حجّوا ، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد .

وفُرض الجهادُ عزّاً للإسلام ، وذلك ظاهر ، قال الله تعالى : ﴿ ولوْلا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمتْ صَوَامعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيرا ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباطِ الخيل تُرْهِبون به عدوّ الله وعدوّكُمْ ﴾[5] .

---

(١) سورة سبأ ٣٩
(٢) سورة الحديد ١١
(٣) سورة الحج ٢٨
(٤) سورة الحج ٤٠
(٥) سورة الأنفال ٦٠

وفُرِض الأمر بالمعروف مصلحةً للعوام ، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردّ الودائع ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، وقضاء الديون ، والصّدق فى القول ، وإنجاز الوعد ، وغير ذلك من محاسن الأخلاق ، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة .

وفُرِض النهيُ عن المنكَر رَدْعاً للسفهاء ، كالنّهى عن الظلم والكَذِب والسَّفَه ، وما يَجرى مَجرَى ذلك .

وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله « صلة الرّحِم تَزيد فى العمر ، وتُنمّى العَدَد » .

وفُرِض القِصاصُ حَقْناً للدّماء ، قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يأولى الألبابِ ﴾[1] .

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاما للمحارم ، وذلك لأنه إذا أقيمت الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصى التى تجبُ الحدُودُ فيها ، وظهر عظم تلك المعاصِى عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب .

وحُرِّم شربُ الخمرِ تحصينا للعقل ، قال قوم لحكيم : اشرَبْ اللّيلة معنا ، فقال : أنا لا أشرَب مايَشرَب عَقلى ؛ وفى الحديث المرفوع ، « أنّ مَلِكا ظالماً خيّر إنسانا بين أن يُجامِع أمّه أو يَقتُل نفسا مؤمِنة ، أو يَشرَب الخمر حتّى يَسكر ، فرأى أنّ الخمر أهونُها ، فشَرِب حتى سَكِر ، فلمّا غَلَبه قام إلى أمّه فوطِئها ، وقام إلى تلك النفس المؤمِنة فقتلها » ؛ ثم قال عليه السلام : « الخمرُ جماعُ الإثم ، الخمر أمُّ المعاصى » .

وحُرِّمت السَّرِقة إيجابا للعفّة ، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف ، والطمعُ خُلُقٌ دنِئ ، فحرمت السّرقة ليتمرّن النـاسُ على ذلك الخُلقِ الشريف ، ويجانبوا ذلك الخُلقَ الذميمَ ، وأيضا حُرِّمت لما فى تحريمها من تحصين أموال الناس .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

وَحرَّم الزنا تحصينا للنَّسَب ، فإنّه يُفضِى إلى اختلاط المِياه واشتباهِ الأنساب ، وألاّ يُنسَب أحدٌ بتقدير ألّا يشرَع النكاح إلى أب ، بل يكون نَسبُ الناس إلى أمّهاتهم ، وفى ذلك قلبُ الحقيقة ، وعكسُ الواجب ، لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب ، وإنّما الأمّ وعاء وظَرْف .

وحُرِّم اللِّواط تكثيراً للنَّسل ، وذلك اللِّواط بتقدير استفاضتِه بين الناس والاستغناء به عن النِّساء يُفضِى إلى انقطاع النّسل والذّرّية ، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشّريف الّذى ليس فى الأنواع مِثله فى الشّرف ، لمكان النفس الناطقة الّتى هى نسخةٌ ومِثالٌ للحضْرة الإلهية ، ولذلك سمّت الحكماء الإنسانَ العالَمَ الصغير .

وحُرِّم الاستمناء باليد و إتيان البهائِم للمعنى الّذى لأجلِه حُرِّم اللِّواط ، وهو تقليل النَّسل ؛ ومن مستحسَن الكلمات النبويّة قولُه عليه السلام فِى الاستمناء باليد : « ذلك الوَأد الخَفِيّ » ، لأنّ الجاهليّة كانت تَئِد البناتِ أى تَقتلُهنّ خنقا ، وقد قدّمنا ذكر سبب ذلك ، فشبّهَ عليه السلام إتلاف النطفةِ الّتى هى ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل .

وأوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهارا على المجاحَدات ؛ قال النبيّ صلّى الله عليه وآلهِ : « لو أُعطِيَ الناسُ بدعاويهم لاستَحَلّ قومٌ من قوم دماءهم وأموالهم » ، ووَجَب تركُ الكَذِب تشريفا للصِّدق ، وذلك لأنّ مصلحة العامة إنّما تتمّ وتنتظم بالصِّدق ، فإنّ الناس يَبنُون أكثرَ أمورهم فى معاملاتهم على الأخبار ، فإنّها أعمّ من العِيان والمُشاهَدة ، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ فى التدبيرات ، وفَسَدتْ أحوالُ الخَلْق .

وشُرِع رَدُّ السلام أمانا من المخاوِف ، لأنّ تفسير قولِ القائل : « سلامٌ عليكم » ، أى لا حَرْبَ بينى و بينكم ، بل بينى و بينكم السلام ، وهو الصلح .

وفُرِضت الإمامة نظاما للأُمّة ؛ وذلك لأنّ الخلق لا يرتفع الهرْج والعسْف والظلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازِعٍ قويّ ، وليس يَكْفِي فى امتناعهم قُبح القبيح ، ولا وعيدُ الآخرة ، بل لا بدّ لهم من سلطان قاهر ينظّم مصالحهم ، فيَردَع ظالمَهم ، و يأخذ على أيدى سُفَهائهم .

وفُرِضت الطّاعة تعظيما للإمامة ، وذلك لأن أمْرَ الإمامة لا يتم إلّا بطاعة الرّعيّة ، وإلاّ فلو عَصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم .



الأصل :

وقال عليه السلام يقول :

أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِبًا عُوجِلَ ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ ، لِأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

* * *

الشرح :

[ماجرى بين يحيى بن عبد الله و بين ابن المصعب عند الرشيد]

روى أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصبهانى فى كتاب "مقاتل الطالبيّين" أن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام لمّا أمّنه الرشيدُ بعد خروجه بالدّيلم وصار إليه بالغ فى إكرامه وبرّه ، فسعى به بعد مدّة عبدُ الله بن مصعب الزّبيرى إلى الرشيد ـ وكان يبغضه ـ وقال له : إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سرّا ، وحسّن له نقض أمانه فأحضره وجمع بينه و بين عبد الله بن مصعب ليناظره فيما قذفه به ورفعه عليه ، فجبهه ابنُ مصعب بحضرة الرشيد ، وادّعى عليه الحركة فى الخروج وشقّ العصا ، فقال يحيى : ياأمير المؤمنين ، أتصدّق هذا عليّ وتستنصحه ؛ وهو ابنُ عبد الله بن الزّبير، الذى أدخل أباك عبدَ الله وولده الشّعب ، وأضرم عليهم النار حتى خلّصه[1] أبو عبد الله الجدلى ، صاحب عليّ بن أبى طالب عليه السلام منه عنوة ؛ وهو الذى ترك الصلاة على

(١) مقاتل الطالبيين : « تخلصه » .

رَسُولِ الله صلّى الله عليه وآله أربعين جُمعة فى خُطْبته ، فلمّا التاثَ عليه الناسُ قال : إن له أُهَيل سُوء إذا صَلّيت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشرأبّوا لذِكره ، فأكْرَه أن أسرّهم أو أقرّ أعينهم[١] ؛ وهو الذى كان يَشتُمُ أباك ويُلصِق به العيوب حتى وَرِم كبدُه ، ولقد ذبحتْ بقرةٌ يوما لأبيك فوُجِدتْ كبدُها سَوْداء قد نقِبت ، فقال علىّ ابنه : أما تَرى كبدَ هذه البقرة يا أبت ! فقال : يابنىّ هكذا ترك ابنُ الزّبير كبَد أبيك ، ثمّ نفاه إلى الطائف ، فلمّا حضرتْه الوَفاة قال لابنه علىّ : يا بُنىّ إذا مِتّ فالحقْ بقومِك من بنى عبد مناف بالشام ، ولا تُقِم فى بلدٍ لابن الزبير فيه إمْرة ، فاختار له صحبةَ يزيد بن معاوية على صحبة عبدِ الله بن الزبير . ووالله إنّ عداوةَ هذا يا أميرَ المؤمنين لنا جميعا بمنزلةٍ سواء ، ولكنّه قَوِى علىّ بك ، وضعُفَ عنك ، فتقرّبَ بى إليك ليَظفَر منك بى بما يريد ، إذا لم يَقدِر على مثله منك ، ومايَنبغى لك أن تُسوِّغه ذلك فىّ ، فإن معاوية بن أبى سفيان وهو أبعد نسبا منك إلينا ذَكَر الحسنَ بنَ علىّ يوما فسبَّه ، فساعدَه عبدُ الله بن الزبير على ذلك ، فزجَره وانتهرَه ، فقال إنما ساعدتُك يا أميرَ المؤمنين ، فقال : إن الحسَن لحمى آكُلُه ولا أُوكِلُه . ومع هذا فهو الخارجُ مع أخى محمّد على أبيك المنصور أبى جعفر ، والقائلُ لأخى فى قصيدة طويلةٍ أولها :

إنّ الحمامة يوم الشّعب مِن خضنٍ[٢] هاجت فؤاد مُحِبّ دائِم الحَزَنِ

يُحرِّض أخى فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة ، ويَمدَحُه ويقول له :

لا عزّ رُكْنا نزارٍ عند سَطْوتِها إن أسلمَتْك ولا رُكنا ذوِى يَمَنِ

ألستَ أكرمَهم عُوداً إذا انتسبوا يوما وأطهرَهم ثوباً من الدَّرَنِ !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « فلا أحب أن أقر عينهم بذكره » .
(٢) كذا فى ا والعقد ٥ : ٨٧ ، وفى مقاتل الطالبيين « دثن » .

وأعظمَ الناس عند النـــاس منزلةً … وأبعدَ النـاسِ من عَيْبٍ ومن وَهَنِ!

قومُوا بِبَيْعَتِـكم نَنْهض بطـاعتهـا … إنّ الخلافة فيكُمْ يابنى حَسَنِ

إنّا لنأمُـــلُ أن ترتدّ أُلفتنـــاَ … بعد التّدابُرِ والبغضاء والإحَنِ

حتّى يثـابَ على الإحسان مُحسِنُنـاَ … ويأمَنَ الخائفُ المأخوذُ بالدِّمَنِ

وتنقضِى دولةٌ أحكامُ قادتِهـــا … فينا كأحـــكام قوم عابدِى وثنِ

فطالمـا قـد بَرَوْا بالجوْر أعظمنـا … بَرْىَ الصَّناعِ قِداحَ النَّبْعِ بالسفنِ

فتغيّر وجهُ الرّشيد عند سماع هذا الشعر، وتغيّظ على ابن مصعب، فابتدأ ابنُ مصعب يَحلِف بالله الّذى لا إله إلاّ هو وبأيمان البيعة أنّ هـذا الشّعر ليس له، وأنه لسَديف، فقـال يحيى: والله يا أمير المؤمنين ماقاله غيرُه، وما حلفتُ كاذبا ولا صادقا بالله قبل هـذا، وإنّ الله عزّوجلّ إذا مجّده العبـدُ فى يمينه فقال: واللهِ الطالب الغالب الرحمن الرّحيمُ، استحْيا أن يعاقبَه؛ فدَعْنى أن أحلِّفَه بيمينٍ ماحلف بها أحدٌ قطُّ كاذبًا إلا عُوجِل، قال فحلّفه؛ قال قل: بَرِئتُ من حَوْل الله وقوّته، واعتصمتُ بحولى وقوّتى، وتقلّدت الحولَ والقوّة من دون اللهِ، استكباراً على الله، واستعلاء عليـه، واستغناء عنـه، إن كنتُ قلتُ هـذا الشِّعْر. فامتنَع عبدُ اللهِ من الحلِف بذلك، فغَضِب الرشيد، وقال للفضل بن الربيع: ياعبـاسىُّ ماله لا يَحلِف إن كان صادقا! هذا طَيْلَسانى علىّ، وهذه ثيابى لو حَلّفنى بهذه اليمين أنّها لى لحلفتُ. فوَكَزَ الفضلُ عبـدَ الله برِجْله - وكان له فيه هوًى - وقال له: احلِف وَيحك! فجعل يحلِف بهذه اليمين، ووجْهُه متغيّر، وهو يُرعَد، فضرَب يحيى بين كتفيه، وقال: يابن مُصعب، قطَعتَ عُمرَك، لا تُفلِـح بعدَها أبدا!

قالوا: فما بَرِح من موضعه حتّى عَرَض له أعراضُ الجُذام، استدارتْ عيناه،

وتنفقأ وجهُه ، وقام إلى بيته فتقطّع وتشقق لحمه وانتثر شَعرُه ، ومات بعد ثلاثة أيام ، وحضر الفضلُ بنُ الربيع جنازَته ، فلمّا جُعل فى القبر انخسفَ اللّحد به حتّى خرجت منه غَبَرة شديدة ، وَجَعل الفضلُ يقول : التراب التراب ! فطرح الترابِ وهو يَهوى فلم يستطيعوا سَدّه حتّى سقف بخشب ، وطمّ عليه ؛ فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل : أرأيت ياعباسىّ ماأسرَع ما أديل ليحيى [1] من ابن مصعب [2] !



(١) ب : « من يحيى » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٤٧٤ — ٤٧٨

(٢٥١)

الأصل :

يَابْنَ آدَمَ ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَاعْمَلْ فِي مَالِكَ مَا تُؤْثِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ .

***

الشرح :

لا ريبَ أن الإنسان يُؤثر أن يُخرَج ماله بعد موته فى وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات ليَصِل ثوابُ ذلك إليه ، لكنّه يَضِنّ بإخراجه وهو حىّ فى هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس فى آخرِ العُمر ، فيقيم وصيّاً يَعمَل ذلك فى ماله بعد موته .

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل فى ماله وهو حىّ ما يُؤثِر أن يُعمَل فيه وصيّة بعد موته ، وهذه حالة لا يَقدِر عليها [١] إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيَدِه .

(١) ا : « عليها أحد »

(٢٥٢)

الأصْلُ :

اَلْحِـدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ اَلْجُنُونِ ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال : الحِدّة كُنْيَة الجهل .

وكان يقال : لا يصحّ لحديدٍ رأي ، لأنّ الحِدّة تُصْدِئ العقل كما يُصْدِئ الخلّ المِرآة فلا يرى صاحبُه فيه صورة حسن فيفعله ، ولا صورة قبيح فيجتنبه .

وكان يقال : أوّل الحِدّة جنون وآخرها ندم .

وكان يقال : لا تحملنّك الحِدّة على اقتراف الإثم ، فتشفيَ غيظك ، وتُسقِم دينك .

الأصْـلُ :

صِحّةُ الجَسَدِ ، مِنْ قِلّةِ الحَسَدِ .

***

الشّـرحُ :

معناه أنّ القليل الحسَدِ لا يزال مُعافًى فى بدنه ، والكثير الحسد يُمْرِضه ما يجده فى نفسه من مَضاضَة المُنافسة ، وما يتجرّعه من الغيظ ، ومِزاجُ البدَن يتْبَع أحوالَ النّفس .

قال المأمون : ما حَسَدْتُ أحدا قطّ إلاّ أبا دُلَفٍ على قول الشاعر فيه :

إنّمــــا الدّنيا أبو دُلَفٍ   بين باديهِ ومحتَضَرِهْ[1]

فإذا وَلّى أبُو دُلَفٍ   ولّت الدنيـــا على أثَرِهْ

وَرَوَى أبوالفرج الأَصْبَهانىّ عن عَبْدوس بن أبى دُلَفٍ قال : حدّثنىأبى، قال : قال لى المأمون : يا قاسم ، أنت الذى يقول فيك علىُّ بنُ جَبَلة :

* إنما الدّنيا أبو دُلَفٍ *

البيتين ، فقلت مُسرِعا : وما ينفعنى ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله فىّ :

أبا دلفٍ يا أكذبَ الناس كلِّهمْ   سِواىَ فإنّى فى مَديحك أكذبُ

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٥٥

ومع قول بكر بن النّطاح فيّ :

أبا دُلَفٍ إنّ الفقــير بعَيْنه ... لمَنْ يرتجي جَدْوى يديْكَ ويأمُلُهْ

أرى لك بابا مُغلَقا متمنّعا ... إذا فتحوه عنك فالبؤسُ داخلُهْ

كأنك طبلٌ هائلُ الصّوت معجبٌ ... خليّا من الخيْرات تَعْسٌ مَداخِلُهْ

وأعجبُ شيءٍ فيك تسليمُ إمْرَةٍ[1] ... عليك على طَنْزٍ وأنّك قابِـلُهْ

قال : فلما انصرفتُ قال المأمون لمن حوله : لله درّه ! حَفِظ هجاءَ نَفسِه حتى انتفع به عندي ، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة .

---

(١) الأغاني .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لكُمَيْلِ بنِ زيادٍ النَّخَعِيِّ :

يا كُمَيْلُ، مُرْ أهلَكَ أنْ يَرُوحُوا في كَسْبِ المكارِمِ ، ويُدْلِجُوا في حاجةِ مَنْ هُوَ نائِمٌ ، فوَالذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ ؛ ما مِنْ أحدٍ أوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إلاَّ وخَلَقَ اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطفاً ، فإذا نَزَلَتْ بِهِ نائِبَةٌ جَرَى إليْها كالماءِ في انحدارِهِ؛ حَتَّى يَطْرُدَها عَنْه كما تُطْرَدُ غَريبةُ الإبِلِ .

***

الشرح :

قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية : ما بقيَ من لذّتك ؟ فقال : ما من شيء يُصيبُه الناس من اللذّة إلاّ وقد أصبتُه حتى مَللتُه ، فليس شيء عندي اليوم ألذّ من شربةِ ماء بارد في يومٍ صائف ، ونظري إلى بَنِيَّ وبناتي يَدرُجون حولي ؛ فما بقيَ من لذّتك أنت ؟ فقال : أرضٌ أغرسُها وآكُلُ ثمرتَها ، لم يبق لي لذّة غير ذلك . فالتفت معاويةُ إلى وَرْدانَ غلام عَمرو ، فقال : فما بقي من لذّتك ياوَرْدان ؟ فقال : سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان ، وصنائعُ أعتقِدُها في أعناق الكرام ؛ فقال معاوية لعَمْرو : تبًّا لمجلسي ومجلسك ! لقد غلبني وغلبك هــذا العبد ، ثم قال : ياوَرْدان ، أنا أحقُّ بهذا منك ؛ قال : قد أمكنتك[1] فافعلْ .

---

(١) في د « أمكنك » .

فإن قلت : السرور عَرَضٌ ، فكيف يَخلُق الله تعالى منه لُطفاً ؟

قلت : مِنْ ها هنا هى مِثلُ « مِن » فى قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾(١) ، أى عِوَضا منكم .

ومثلُه :

فليتَ لنا من ماء زمزمَ شَرْبَةً   مُبرَّدةً باتتْ على طَهَيانِ(٢)

أى ليت لنا شربةً مبرّدة باتتْ على طَهَيان ، وهو اسمُ جَبَل ؛ بدلاً وعِوضا من ماء زَمْزم .

---

(١) سورة الزخرف ٦٠

(٢) البيت للأحول الكندى ـ اللسان طها ـ .

الأصل :

إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة .

***

الشرح :

قد تقدم القول في الصدقة .

وقالت الحكماء : أفضل العبادات الصدقة لأن نفعها يتعدى ، ونفع الصلاة والصوم لا يتعدى .

وجاء في الأثر أن عليًا عليه السلام عمل ليهودي في سقي نخل له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمد من شعير ، فخبزه قرصا ، فلما هم أن يفطر عليه ، أتاه سائل يستطعم ، فدفعه إليه وبات طاويا وتاجرا الله تعالى بتلك الصدقة ، فعد الناس هذه الفعلة من أعظم السخاء ، وعدوها أيضا من أعظم العبادة .

وقال بعض شعراء الشيعة يذكر إعادة الشمس عليه وأحسن فيما قال :

جاد بالقرص والطوى ملء جنبيـ ـه ، وعاف الطعام وهو سغوب[1]
فأعاد القرص المنير عليه الـ ـقرص والمقرض الكرام كسوب[2]

---

(١) السغوب : الجائع . (٢) في د « والقرض للكرام » ، وهو وجه أيضا .

(٢٥٦)

الأصل :

الْوَفاء لأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ ، والْغَدْرُ بأَهْلِ الْغَدْرِ وَفاء عِنْدَ اللهِ .

***

الشرح :

معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدر ولا يفي بأقواله وأَيمانه وعهوده ، لم يجزْ الوفاء له ، ووَجَب أن ينقض عهوده ولا يوقَف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاء عند الله تعالى ، بل هو كالغَدْرِ في قُبْحه ، والغدر بمن هذه[1] حاله ليس بقبيح ، بل هو في الحسن كالوفاء لمن يَستحِقّ الوفاء عند الله تعالى .

(١) ا : « ذلك »

الأصل :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسِّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَمَا ابْتَلَى اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

* * *

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الكلامُ فيما تقدّمَ ، إِلَّا أَنَّ فيه هاهنا زِيَادَةً جَيِّدَةً مُفِيدَةً .

* * *

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ في الاستدراج والإملاء.

وقال بعضُ الحكماء : احذر النِّعم المتواصلة إليك أن تكون استدراجا ، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوّه في الحربِ إذا فرّ من بين يديه من الكمين ، وكم من عدوٍّ فرّ مستدرَجا ثمّ إذ هو عاطِفٌ ، وكم من ضارعٍ في بديك ثمّ إذ هو خاطف .

(٢٥٨)

الأصل :

ومن كلامه ـ عليه السلام ـ المتضمّن ألفاظاً من الغريب تحتاجُ إلى تفسير :

قوله ـ عليه السلام ـ في حديثه : «فإذا كانَ ذلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ ، فَيَجْتَمِعُونَ إلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ .

قال الرّضيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

يَعْسُوبُ الدِّينِ : السَّيِّدُ العَظِيمُ المَالِكُ لِأُمُورِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ ؛ والقُزَعُ : قِطَعُ الغَيْمِ الَّتِي لا مَاءَ فِيهَا .

* * *

الشرح :

أصابَ في اليَعْسوب ، فأمّا القَزَع فلا يُشترط فيها أن تكون خاليةً من الماء ، بل القَزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة ، سواء كان فيها ماء أو لم يكن ، الواحدة قَزَعة بالفتح ، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقِلّة والخفّة .

* كأنّ رعاله قَزَع الجهامِ [1] *

وليس يدلّ ذلك على ما ذكرَه ، لأنّ الشاعر أراد المبالغة ، فإنّ الجهام الّذي لا ماء فيه إذا كان أقطاعاً متفرّقة خفيفة ، كان ذِكرُه أبلغ فيما يريدُه من التشبيه : وهذا الخبر من أخبار المَلاحِم الّتي كان يُخبر بها عليه السلام ، وهو يَذكر فيه المهديّ الّذي يُوجَد عند أصحابنا في آخر الزمان . ومعنى قوله : « ضَرَبَ بذَنَبه » أقام وثبت بعد

(١) ب : « الهيام » تصحيف

اضطرابه ، وذلك لأنّ اليعسوب فحل النَّحْل وسيِّدها ، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه ، فإذا ضرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقام وترَك الطَّيَران والحركة .

فإن قلت : فهذا يُشيد مذهبَ الإماميّة فى أنّ المهدىّ خائف مستتر ينتقل فى الأرض ، وأنّه يظهر آخر الزمان و يثبت و يقيم فى دار ملكه .

قلت : لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهدىّ الذى يظهر فى آخر الزمان مضطرب الأمر ، منتشرُ المُلك فى أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى ، ثمّ بعد ذلك يثبّت مُلكه ، وتنتظم أمورُه .

وقد وردتْ لفظة اليَعسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام فى غير هذا الموضع ، قال يومَ الجمل لعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلا : « هذا يَعسوب قريش » ، أى سيِّدها .

(٢٥٩)

الأصْـلُ :

وفى حديثه ـ عليه السلامُ : هَذا الخطيبُ الشَّحْشَحُ .

قالَ : يُرِيدُ الماهِرَ بالخُطْبَةِ ، الماضِىَ فِيهَا ، وكُلُّ ماضٍ فى كَلَامٍ أوْ سَيْرٍ فَهُوَ شَحْشحٌ . والشَّحْشَحُ فى غَيْرِ هذا المَوْضع : البَخِيلُ المُمْسِكُ .

***



الشَّـرْحُ :

قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيُور ، والشَّحْشَح بمعنى الشُّجاع ، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشىء الملازِم له ، والشَّحْشَح : الحاوِى ، ومِثله الشَّحْشحان .

وهذه الكلمة قالها علىٌّ عليه السلام لصَعْصعة بن صُوحان العبدىّ رحمه الله ، وكَفَى صعصعةُ بها فخرا أن يكون مِثل علىّ عليه السلام ، يُثنِى عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان ؛ وكان صَعصعةُ من أفصَح الناس ، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ[1] .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧

الأصل :

ومنهُ : إنَّ لِلخُصُومَةِ قُحَماً .

قال : يُرِيدُ بالقُحَمِ المَهالِكَ ، لأنَّهَا تُقحِمُ أصْحابَها فِي المَهالِكِ وَالمَتالِفِ فِي الأكْثَرِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قُحْمَةُ الأعْرابِ ، وَهُوَ أنْ تُصِيبَهُمُ السَّنَةُ فَتَتَعَرَّقُ أمْوالَهُمْ ، فَذَلِكَ تَقَحُّمُها فِيهِمْ . قال : وَقِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ أنَّها تُقحِمُهُمْ بِلادَ الرِّيفِ ، أيْ تُحْوِجُهُمْ إلى دُخُولِ الحَضَرِ عِندَ مُحُولِ البَدْوِ .

***

الشرح :

أصلُ هذا البِناء للدُّخول فى الأمر على غير روّية ولا تثبُّت ، قَحَمَ الرجلَ فى الأمر بالفتح قُحوماً ، وأقحَمَ فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَم ، واقتحمْتُ أيضاً البحرَ دخلته مكافحة ، وقَحَم الفرسُ فارِسَه تقحيما على وجهه ؛ إذا رماه ، وفحلٌ مِقْحَام ، أى يقتحِم الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها .

وهذه الكلمة قالها أميرُ المؤمنين حين وَكَّل عبدَ الله بن جعفرٍ فى الخصومة عنه ، وهو شاهد .

وأبو حنيفةَ لا يُجيز الوَكالة على هذه الصّورة ، ويقول : لا تجوز إلّا مِن غائبٍ أو مريض ؛ وأبو يوسف ومحمد يُجيزانها أخْذا بفعل أمير المؤمنين عليه السلام .

الأصلُ :

ومنهُ : إذا بلغ النساء نَصَّ الحقاقِ فالعَصَبةُ أولَى .

قال : ويروى « نصُّ الحقائقِ » ، والنصُّ منتهى الأشياء ومبلغُ أقصاها كالنصِّ في السير لأنه أقصى ماتقدرُ عليه الدابّة ؛ ويقال : نصصتُ الرجلَ عن الأمرِ إذا استقصيتَ مسألته لتستخرجَ ماعنده فيه ، ونصُّ الحقائقِ يريدُ به الإدراكَ ؛ لأنه منتهى الصِّغر ، والوقتُ الذي يخرجُ منه الصغيرُ إلى حدِّ الكِبرِ ، وهو منْ أفصحِ الكِنايات عن هذا الأمرِ وأغربِها ؛ يقولُ : فإذا بلغَ النساء ذلك فالعصَبةُ أولَى بالمرأةِ منْ أمِّها إذا كانوا محرماً مثلُ الإخوةِ والأعمامِ ، وبتزويجها إنْ أرادوا ذلك .

والحقاقُ : مُحاقّةُ الأمِّ للعصَبةِ في المرأةِ ، وهو الجدالُ ، والخُصومةُ ، وقولُ كلِّ واحدٍ منهما للآخَرِ : أنا أحقُّ منك بهذا ، يُقالُ منهُ : حاققتُهُ حِقاقاً ، مِثلُ جادلتُهُ جِدالًا . قال : وقد قيلَ إنَّ نَصَّ الحقاقِ بُلوغُ العقلِ وهو الإدراكُ ، لأنه عليه السلامُ إنَّما أرادَ مُنتهَى الأمرِ الذي تجبُ به الحُقوقُ والأحكامُ .

قالَ : ومَنْ رواهُ « نصُّ الحقائقِ » فإنما أرادَ جَمْعَ حقيقةٍ ، هذا معنى ماذكرهُ أبو عُبَيْدٍ القاسمُ بنُ سلاّمٍ .

قال : والذي عندي أنَّ المرادَ بنصِّ الحقاقِ هاهنا بُلوغُ المرأةِ إلى الحدِّ الذي يجوزُ فيه تزويجُها وتصرُّفُها في حقوقِها ، تشبيهاً بالحقاقِ مِنَ الإبلِ ، وهي جَمْعُ حِقَّةٍ وحِقٍّ ، وهو الذي استكملَ ثلاثَ سنينَ ودخلَ في الرابعةِ ؛ وعندَ ذلك يبلغُ إلى الحدِّ الذي يُمكنُ فيه مِنْ رُكوبِ ظهره ونصِّهِ في سيره . والحقائقُ أيضاً : جَمْعُ حِقَّةٍ ؛

فالرِّوايتانِ جميعاً ترجِعانِ إلى مسمًّى واحِدٍ ؛ وهــذا أشبهُ بطريقةِ العربِ مِنَ المعنى المذكور أوَّلًا .

***

الشَّـرْحُ :

أمّا ماذَكَره أبو عُبيد فإنّه لا يَشفِي الغليلَ، لأنّه فسَّر معنى النّصّ ، ولم يفسِّرْ معنى نَصِّ الحقائق ، بل قال : هو عبارةٌ عن الإدراك ، لأنّه منتهى الصِّغَر ، والوقت الذى يَخرُج منه الصغيرُ إلى حدّ الـكِبَر، ولم يبيّن من أى وجهٍ يدلّ لفظ نَصّ الحقاق على ذلك ، ولا اشتقاق الحِقاق وأصله ، ليظهَر من ذلك مُطابَقة اللّفظ للمعنى الّذى أشيرَ إليه .

فأمّا قوله : «الحقاق هاهنا مَصدرُ حاقّة حُقاقة» ، فلِقائلٍ أن يقول : إن كان هذا هو مقصودُه عليه السلام فقَبلَ الإدراك يكون الحِقاق أيضا ، لأنّ كلّ واحدة من القرابات تقول للأخرى : أنا أحَقُّ بهـا منك ، فلا معنى لتخصيصِ ذلك بحالِ البُلوغ ، إلا أن يَزعُم زاعمٌ أنّ الأمَّ قبل البُلوغ لها الحضانة ، فلا يُنازِعها قبل البلوغ فى البِنْت أحـد ولـكنْ فى ذلك خلافٌ كثيرٌ بين الفقهاء .

وأمّا التفسيرُ الذى هو أنّ المرادَ بنصّ الحِقاق منتهَى الأمر الذى تجب به الُحقوق فإنّ أهلَ اللغة لم يَنقُلوا عن العرَب أنّهـا استَعملت الحِقاقَ فى الُحقوق ، ولا يُعرَف هذا فى كلامهم .

فأمّا قوله : «ومن رواه نَصّ الحقائق» ، فإنّما أرادَ جمع حقيقة ، فلِقائلٍ أن يقول : وما معنى الحقائق إذا كانت جمعَ حقيقة هاهنا ؟ وما معنى إضافة «نَصّ» إلى «الحقائق» جمع حقيقة ، فإنّ أبا عُبَيدة لم يفسّر ذلك مع شدّة الحاجةِ إلى تفسيره !

وأمّا تفسيرُ الرضى ـ رحمه الله ـ فهو أشبهَ من تفسير أبى عُبيدة ، إلّا أنّه قال فى آخره:

والحقائق أيضا جمعُ حِقّة ، فالروايتان ترجعان إلى معنًى واحد . وليس الأمرُ على ماذُكِر من أنّ الحقائق جمعُ حِقّة ،ولكنّ الحقائق جمع حِقاق، والحِقاق جمع حِقّ ، وهو ما كان من الإبل ابنَ ثلاث سنينَ ، وقد دخل فى الرابعة ، فاستحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به ، فالحقائق إذن جمع الجمع لحِقّ لا لحِقّة ، ومثل إفال وأفائل . قال : ويُمكِن أن يقال : الحِقاق هاهنا الخصومة ، يقال : مالَه فيه حِقّ ولا حِقاق أى ولا خصومة ، ويقال لمن يُنازِع فى صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق ، أى خصومَتُه فى الدّنىء من الأمر؛ فيكون المعنى إذا بلغَت المرأةُ الحدَّ الذى يستطيع الإنسانُ فيه الخصومةَ والجدالَ فعصَبتُها أولَى بها من أمّها ؛ والحدُّ الذى تكمُل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدالِ والمناظرة هو سِنُّ البلوغ .

الأصـل :

ومنهُ ، إنَّ الإيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً فى ٱلقَلْبِ ، كُلَّمَا ٱزْدَادَ ٱلْإِيمَانُ ٱزْدَادَتْ ٱللُّمْظَةُ .

* * *

قال: اللُّمْظَةُ مِثْلُ النُّكْتَةِ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ ٱلْبَيَاضِ ، وَمِنْهُ قِيلَ: فَرَسٌ أَلْمَظُ إذَا كَانَ بِجَحْفَلَتِهِ شَىْءٌ مِنَ ٱلْبَيَاضِ .

* * *

الشـرح :

قال أبو عُبيد : هى لُمْظَة بضم اللام ؛ والمحدِّثون يقولون : لَمظة بالفتح ؛ والمعروفُ من كلام العَرَب الضم ؛ مِثلُ الدُّهْمة والشُّهْبة والحُمْرة . قال : وقد رواه بعضُهم «لُمطة» بالطّاء المهملة ، وهذا لا نَعرِفه .

قال : وفى هذا الحديث حُجَّةٌ على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يَزيدُ ويَنقُص[1] ، ألا تَرَاه يقول: كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادتْ اللُّمظة .

(١) ا : «أو ينقص» .

الأصل :

ومنه ، إنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إذَا قَبَضَهُ .

* * *

قَالَ : الظَّنُونُ : الَّذِي لَا يَعْلَمُ صَاحِبُهُ أَيَقْضِيهِ مِنَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ أَمْ لَا ، فَكَأَنَّهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ ، فَمَرَّةً يَرْجُوهُ ، وَمَرَّةً لَا يَرْجُوهُ ، وهو مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَمْرٍ تَطْلُبُهُ وَلَا تَدْرِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ مِنْهُ فَهُوَ ظَنُونٌ ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْأَعْشَى :

مَنْ يَجْعَلِ الْجُدَّ الظَّنُونَ الَّذِي ... جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الْمَاطِرِ
مِثْلَ الْفُرَاتِيِّ إذَا مَا طَمَا ... يَقْذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ

وَالْجُدُّ : الْبِئْرُ الْعَادِيَّةُ فِي الصَّحْرَاءِ . وَالظَّنُونُ : الَّتِي لَا يُعْلَمُ هَلْ فِيهَا مَاءٌ أَمْ لَا .

* * *

الشرح :

قال أبو عُبَيْدة : في هذا الحديث من الفقه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يُزَكِّيَه حتّى يَقبِضه، فإذا قَبَضه زكّاه لما مضى ، وإن كان لا يرجوه ، قال : وهذا يردّه قولَ من قال : إنّما زكاتُه على الّذي عليه المال ، لأنّه[1] المنتفع به ؛ قال :

---

(١) ا : « لأنه الذي ينتفع به »

وكما يُروى عن إبراهيم ، والعمَل عندنا على قول علىٍّ عليه السلام ؛ فأمّا ما ذَكَره الرضىّ من أنّ الجدّ هى البئرُ العاديّة فى الصّحراء ، فالمعروف عند أهل اللّغــة أن الجدّ البئرُ الّتى تكون فى موضع كثير الــكَلَأ ، ولا تُسمّى البئرُ العادِيّة فى الصّحْراء المَوَاتِ جُدّا ، وشِعْر الأعشى لا يدلّ على ما فسّره الرضىّ ، لأنه إنّما شبّه عَلقَمة بالبئرِ والــكَلَأ ، يَظُنّ أن فيها ماء لمــكان الــكَلَأ ، ولا يكون موضع الظن هذا هو مرادُه ومقصودُه ، ولهذا قال : الظّنون ، ولو كانت عاديّة فى بَيْدَاء مقفِرة لم تــكن ظَنُونا ، بل كان يُعلَم أنّه لا ماء فيها ، فَسَقط عنها اسمُ الظّنون .

الأصل :

وَمنهُ : أنهُ شَيَّعَ جيشاً يُغْزِيهِ فقالَ : اعْزِبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

* * *

وَمَعْنَاهُ: اصْدِفُوا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَشَغْلِ القُلُوبِ بِهِنَّ، وَامْتَنِعُوا مِنَ المُقَارَبَةِ لَهُنَّ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الحَمِيَّةِ، وَيَقْدَحُ فِي مَعَاقِدِ العَزِيمَةِ، وَيَكْسِرُ عَنِ العَدُوِّ، وَيَلْفِتُ عَنِ الإِبْعَادِ فِي الغَزْوِ، فَكُلُّ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَعْزَبَ عَنْهُ، وَالعَازِبُ وَالعَزُوبُ: المُمْتَنِعُ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ .

* * *

الشرح :

التفسير صحيح ، لكنّ قوله :« من امتنع من شيء فقد أعزَب عنه » ، ليس بجيّد ؛ والصحيح «فقد عزَب عنه» ثلاثيُ ، والصواب وكلُّ مَنْ مَنعته من شيء فقد أعزَبتَه عنه عنه تَعدِّيه بالهمزة ؛ كما تقول : أقمْته وأقعدْته ، والفعل ثُلاثيّ قامَ وقعَد ، والدليل على أنّ الماضي ثلاثي هاهنا . قوله : « والعازِب والعزُوب الممتنِع من الأكل والشّرب ، ولو كان رُباعيًّا لكان « المُعزِب » ؛ وهو واضح ؛ وعلى هذا تكون الهمزة في أوّل الحرف همزة وصلٍ مكسورة ، كما في « اضرِبوا » لأنّ المضارِع يعزِب بالكسر .

الأصل :

ومنه : كالياسر الفالج ، ينتظر أوّل فوزة من قداحه .

***

قال : الياسرون هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور ، والفالج : القاهر الغالب ، يقال : قد فلج عليهم وفلجهم ، قال الراجز :

* لمّا رأيت فالجاً قد فلجا *

الشرح :

أوّل الكلام أنّ المرء المسلم ما لم يغش دناءة يخشع لها إذا ذكرت ، ويغرى به لئام الناس ، كالياسر الفالج ينتظر أوّل فوزة من قداحه ، أو داعي الله ، فما عند الله خير للأبرار ، يقول : هو بين خيرتين : إما أن يصير إلى ما يحبّ من الدنيا ، فهو بمنزلة صاحب القدح المعلّى ، وهو أوفرها نصيبا ، أو يموت فما عند الله خير له وأبقى[1] .

وليس يعني بقوله : الفالج القامر الغالب كما فسّره الرضيّ رحمه الله ، لأنّ الياسر الغالب القامر لا ينتظر أوّل فوزة من قداحه ، وكيف ينتظر وقد غلب ! وأيّ حاجة له إلى الانتظار ! ولكنّه يعني بالفالج الميمون النّقيبة الذي له عادة مطّردة أن يغلب ، وقلّ أن يكون مقهورا .

---

(١) ا : « أبقى له » .

(٢٦٦)

الأصل :

ومنهُ : كُنَّا إذَا احْمَرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسولِ اللهِ فَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنَّا أقْرَبَ إلَى العَدُوِّ مِنهُ .

***

قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أنَّهُ إذَا عَظُمَ الخَوْفُ مِنَ العَدُوِّ ، وَاشْتَدَّ عِضَاضُ الحَرْبِ فَزِعَ المُسْلِمُونَ إلَى قِتَالِ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وآلِهِ بِنَفْسِهِ ، فَيُنْزِلُ اللهُ تعالى النَّصْرَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَيَأْمَنُونَ مَا كَانُوا يَخَافُونَهُ بِمَكَانِهِ .

وقَوْلُهُ : « إذَا احْمَرَّ البَأْسُ » : كِنَايَةٌ عَنِ اشْتِدَادِ الأمْرِ ؛ وقد قِيلَ فِي ذَلِكَ أقْوَالٌ ؛ أحْسَنُهَا أنَّهُ شَبَّهَ حَمْيَ الحَرْبِ بِالنَّارِ الَّتِي تَجْمَعُ الحَرَارَةَ وَالحُمْرَةَ بِفِعْلِهَا ولَوْنِهَا ؛ ومِمَّا يُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُولِ صلّى الله عليه وآلِهِ وقَدْ رَأَى مُجْتَلَدَ النَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ وهي حَرْبُ هَوَازِنَ : « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ » ، والوطيسُ : مُسْتَوْقَدُ النار ، فَشَبَّهَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وآلِهِ مَا استحرَّ من جِلادِ القَوْمِ باحْتِدَامِ النَّارِ وَشِدَّةِ الْتِهَابِهَا .

***

الشرح :

الجيّد في تفسير هذا اللفظ أن يقال : البأس الحرب نفسها ، قال الله تعالى : ﴿ والصابرين في البأساء والضرّاء وحينَ البأس ﴾[1] ؛ وفي الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه

(١) سورة البقرة ١٧٧

إذا احمر مَوضعُ البأس ، وهو الأَرْضُ الّتى عليها معركة القوم ، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم .

* * *

[نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لأبى عبيد]

ولما كان تفسير الرضىّ رحمه الله قد تعرّض للغريب من كلامه عليه السلام ، ورأينا أنّه لم يذكر من ذلك إلّا اليسير ، آثرنا أن نذكر جملةً من غريب كلامِه عليه السلام ممّا نَقَلَه أربابُ الكُتُب المصنَّفة فى غريب الحديث عنه عليه السلام .

فمن ذلك ماذكره أبو عبيْد القاسمُ بنُ سلاّم رحمه الله فى كتابه : لأنْ أَطَّلِيَ بجواء قِدْر أحبّ إلىّ من أنْ أَطَّلِيَ بزعْفران .

قال أبو عُبَيد . هكذا الرواية عنه « بجواء قِدْر » ، قال : وسمعت الأصمعىّ يقول : إنما هى الجاوة ، وهى : الوِعاء الّذى يُجعَل القِدْر فيه وجَمْعُها جياء .

قال : وقال أبو عمرو : يقال : لذلك الوعاء جواء وجياء ؛ قال : ويقال للخرقة الّتى يُنزَل بها الوعاء عن الأثافىّ جِعال .

* * *

ومنها قولهُ عليه السلام حين أقبَل يريد العراق فأشارَ إليه الحسنُ بنُ علىّ عليه السلام أن يَرْجع : واللهِ لا أكونُ مِثْلَ الضَّبُعُ تسمعُ اللَّدْم حتّى تخرُج فتُصاد .

قال أبوعبيد : قال الأصمعىّ : اللّدم صوتُ الحجر، أوالشىء يقعَعلى الأرض، وليس بالصّوت الشديد ، يقال منه : لِدم ألدِم بالكسر ، وإنّما قيل ذلك للضّبع ، لأنّهم إذا أرادوا أن يصيدوها رمَوْا فى جُحْرِها بحَجَر خفيف ، أو ضرَبُوا بأيدِيهم فتحسَبه

شيئاً تصيدُه فتخرج لتأخذه فتصاد ، وهى زعموا أنها من أحمق الدّواب ، بلَغ من حُمْقها أن يدخل عليها فيقال : أمّ عامر نائمة ، أو ليست هذه ! والضبع ، هذه أمّ عامر،فتَسكُت حتى تؤخذ ، فأراد على عليه السلام : أنى لا أخدَع كما تُخدَع الضَّبع باللَّدم .

***

ومنها قولهُ عليه السلام : منَ وَجد فى بطنه رِزًّا فلينْصرف وليتوضّأ .

قال أبو عبيد . قال أبو عمرو : إنما هو أرْزًا مثل أرز الحيّة ، وهو دَورانهـا وحرَكتها ، فشبّه دَوَرَان الرِّيح فى بطنه بذلك .

قال : وقال الأصمعيّ : هو الرِّزُّ ، يعنى الصّوتَ فى البطْن من القرْقرة ونحوها قال الراجز :

كأنّ فى رَبَابِهِ الـكِبارِ رِزَّ عِشارٍ جُلْنَ فى عِشار[١]

وقال أبو عُبَيد : فقهُ هـذا الحديث أن يَنصرِف فيتوضّأ ويبنى على صلاته مالم يتـكلّم ، وهذا إنما هو قبل أن يُحدث .

قلت : والّذى أعرفهمِن الأَرزِ أنه الانقباض لا الدّوران والحركة، يقال: أرزَ فلانٌ بالفَتح وبالـكسر ؛ إذا تضامّ وتقبّض من بُخله فهو أرُوز ، والمصدَر أرْزا وأروزا ، قال رؤبة .

* فـذاك بَخَّالٌ أروز الأرزْ[٢] *

فأضاف الاسمَ إلى المصدر كما يقال : عُمر العدْل وعَمْرو الدهاء ، لمـا كان العدل والدّهاءأغلبَ أحوالها، وقال أبو الأسود الدُّؤلى يذُمُّ إنسانا : إذاسُئل أرَز، وإذا دُعى اهتزّ ، يعنى إلى الطّعام ، وفى الحديث :«إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحيّة إلى حُجْرها» . أى يجتمع إليها وينضمّ بعضه إلى بعض فيها .

***

---

(١) اللسان « أرز » ، ونسبه إلى رؤبة .

(٢) اللسان (أرز)

ومنها قوله: لئن وليتُ بنى أميّة لأنفُضنّهم نفضَ القصّاب التِّراب[1] الوذِمة.

وقد تقدّم منّا شرحُ ذلك والكلامُ فيه.

* * *

ومنها قوله فى ذى الثُّدَيّة المقتول بالنَّهْرَوان: إنه مُودن اليد أو مُثْدن اليد أو مخدَج اليد.

قال أبو عبيدة: قال الكسائىّ وغيره: المودن اليدِ: القصيرُ اليدِ؛ ويقال: أودنتُ الشىء أى قصّرته، وفيه لُغةٌ أخرى، ودَنْته فهو مَوْدون؛ قال حسّان يذمّ رجلا:

وأمُّك سوداء مَوْدونةٌ كأنّ أناملَها الحُنظُبُ

وأمّا مُثْدن اليد، بالثاء فإنّ بعضَ الناس قال: نُراه أخذه من الثُّنْدُوَة، وهى أصل الثَّدْى، فشبّه يدَه فى قِصَرها واجتماعها بذلك؛ فإنْ كان من هذا فالقياس أن يقال: مُثْنِد لأنّ النون قبل الدال فى الثُّنْدُوَة، إلّا أن يكون من المقلوب، فذاك كثيرٌ فى كلامهم.

وأمّا مُخدَج اليَد فإنّه القصيرُ اليد أيضاً، أُخِذ من إخداج الناقةِ وَلَدَها، وهو أن تَضَعه لغير تمامٍ فى خَلْقه، قال: وقال الفرّاء: إنّما قيل ذو الثُّدَيّة؛ فأُدخِلت الهاء فيها، وإنّما هى تصغير «ثَدْى»، والثَّدْى مذكّر، لأنّها كأنّها بقيّة ثَدْى قد ذَهَب أكثرُه فقلّلها كما تقول لُحَيمة وشُحَيمة، فأنّث على هذا التأويل؛ قال: وبعضُهم يقول ذو اليُدَيّة، قال أبو عُبيد: ولا أرى الأصلِ كان إلّا هذا، ولكنّ الأحاديث كلَّها تتابعتْ بالثاء ذو الثُّدَيّة.

* * *

ومنها قوله عليه السلام لقومٍ وهو يعاتبهم: ما لَكُم لا تُنظِّفون عَذِراتكم!

قال: العَذِرة فِناء الدار، وإنما سُمّيت تلك الحاجة عَذِرة لأنّها بالأَفْنِية كانت تُلقَى،

---

(١) قال الأصمعى: سألنى شعبة عن هذا الحرف، فقلت: ليس هو هكذا، إنما هو نفض القصاب الوذام التربة. والتربة: التى سقطت فى التراب فتتربت، والقصاب ينفضها.

فكَنَى عنها بالعَذِرة كما كَنَى عنها بالغائط ، وإنّما الغائطُ الأرضُ المطمئنة ؛ وقال الحُطيئة يهجو قوماً :

لعَمْرِي لقد جرّبتُكُمْ فوجدْتُكُمْ قِباحَ الوُجوه سَيِّئِي العَذِراتِ

***

ومنها قولُه عليه السلام : لا جُمُعة ولا تَشْريق إلّا في مصرٍ جامع .

قال أبو عبيد : التّشريق ها هنا صلاةُ العيد ؛ وسُمّيت تشريقاً لإضاءة وقتها ؛ فإنّ وقتَها إشراقُ الشّمس وصَفاؤُها وإضاءتُها ؛ وفي الحديث المرفوع : « من ذبحَ قبلَ التّشريق فَلْيُعِدْ » ، أي قبلَ صلاة العيد .

قال : وكان أبو حنيفة يقول : التّشريق ها هنا هو التّكبير في دُبُر الصلاة ، يقول : لا تكبيرَ إلا على أهل الأمصارِ تلك الأيّام ، لا على المسافرين أو مَن هو في غير مِصر .

قال أبو عبيد : وهذا كلامٌ لم نجد أحداً يَعرِفه ، إنّ التّكبير يقال له التّشريق ، وليس يأخذ به أحدٌ من أصحابه لا أبو يوسفَ ولا محمّد ، كلّهم يَرَى التكبيرَ على المسلمين جميعاً حيث كانوا في السّفر والحضَر وفي الأمصار وغيرِها .

***

ومنها قوله عليه السلام : « استكثِروا من الطّواف بهذا البيت قبل أن يُحَال بينكم وبَينه ، فكأنّي برجلٍ من الحبشة أصعَلَ أصمعَ حَمش السّاقين قاعداً عليها وهي تُهْدَم » .

قال أبو عُبَيد : هكذا يُروَى « أصعَل » وكلامُ العَرَب المعروف « صَعْل » وهو الصغيرُ الرأس ، وكذا رُءوس الحبشة ، ولهذا قيل للظّليم : صَعْل ؛ وقال عَنترةُ يصف ظَليماً :

صَعْلٌ يلوذُ بذى العشيرةِ بَيْضه كالعَبْد ذِى الفَرْوِ الطّويلِ الأصْلَمِ

قالَ : وقد أجازَ بعضُهم أصعَل فى الصَّعل ، وذُكر أنَّها لغة لا أدرى عمّن هى !
والأصمعُ : الصغيرُ الأُذُن ، وامرأة صَمْعاء .

وفى حديث ابن عبّاس: إنّه كان لا يَرَى بأساً أن يُضَحِّيَ بالصّمعاء . وحَمْش الساقين بالتّسكين : دقيقها .

***

ومنها : أنّ قوماً أتَوْه برجل فقالوا : إنّ هذا يؤمُّنا ونحن له كارهون ، فقال له : إنك لَخَرُوط ، أتؤمّ قوماً هم لكَ كارهون !

قال أبو عبيد : الخَرُوط : المتهوِّر فى الأمور ، الراكبُ برأسِه جَهْلا ؛ ومنه قيل : انخَرَطَ علينا فلان ، أى اندرأ بالقَوْل السّيء والفِعْل . قال : وفقهُ هذا الحديث أنّه ما أفتَى عليه السلام بفسادِ صلاتِه لأنه لم يأمُرْه بالإعادة ، ولـكنّه كَرِه له أن يؤمّ قوماً هم له كارهون .

***

ومنها : أنّ رجلا أتاه وعليه ثوبٌ من قِهز ، فقال : إنّ بنى فلان ضَرَبوا بنى فلانة بالـكناسة ، فقال عليه السلام : صَدَقنى سِنّ بَكْرِه .

قال أبو عبيد : هذا مَثَل تضرِبه العرَب للرجل يأتى بالخبر على وَجْهه و يصدق فيه . و يقال : إنّ أصله أنّ الرجل ربّما باع بَعيره فيسأل المشترِى عن سِنّه فيـكذبه ، فعرَض رجلٌ بَـكْرا له فصدَق فى سِنّه ، فقال الآخر : صدَقنى سنّ بَـكْره، فصار مَثَلا .

والقِهزْ بكسر القاف: ثياب بيض يُخالطها حَرير ، ولا أراها عربيّة ، وقد استعملها العربُ قال ذو الرّمّة يصف البُزاةِ البِيض :

من الوُرْق أو صُقع كأنّ رءوسها من النِّهز والقَوهِيّ بيضُ المقانعِ

***

ومنها : ذَكر عليه السلام آخر الزمان والفِتن ، فقال : خير أهل ذلك الزمان كلّ نُومَة ، أولئك مصابيح الهدى ، ليسوا بالمساييح ولا المَذاييع البُذُر .

وقد تقدّم شرح ذلك .

***

ومنها : أنّ رجلا سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا ، فاتّهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شُرَيح ، فسألهم البيّنة على قتله ، فارتفعوا إلى عليّ عليه السلام ، فأخبرُوه بقول شُرَيح ، فقال :

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِلْ ياسعدُ لا تروى بهذاك الإبلْ

ثمّ قال : إنّ أهوَنَ السَّقْي التَّشريع ، ثمّ فرّق بينهم وسألهم ، فاختلفوا ، ثم أقرّوا بقتله ، فقتلهم به .

قال أبو عُبيد : هذا مثل ، أصلُه أنّ رجلا أورَد إبله ماء لا تصلُ إليه الإبل إلّا بالاستقاء ، ثم اشتمل ونامَ وتركها لم يستسق لها ؛ والكلمة الثانية مثل أيضا ، يقول : إنّ أيسَر ما كان ينبغى أن يُفعل بالإبل أن يُمكّنها من الشريعة ويَعرِض عليها الماء . يقول : أقلّ ما كان يجب على شُرَيح أن يستقصى فى المسألة والبحث عن خبر الرّجل ولا يقتصر على طلب البيّنة .

***

ومنها : قوله : « وقد خرج على النـاس وهم ينتظرونه للصـلاة قياما : مالى أراكمْ سامِدِين !

قال أبو عبيدة : أى قائمين ، و كلُّ رافِع رأسَه فهو سامد ، وكانوا يكرهون أن ينتظروا الإمامَ قِياما ولكنْ قُعودا ، والسامد فى غير هـذا الموضع : اللاهى اللاّعب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامِدون ﴾[1] ، وقيل : السُّمود الغِناء بِلُغة حِمْيَر .

***

ومنها : أنه خرج فرأى قوماً يصلّون قد سَدَلوا ثيابهم ، فقال : كأنهم اليهود خرجوا من فُهْرِهم .

قال أبو عبيد : فُهْرُهم بضم الفاء : موضع مِدْراسِهم الذى يجتمعون فيه كالعيد يصلّون فيه ويُسدِلون ثيابهم ، وهى كلمة نبطيّة أو عِبْرانية أصلها بُهْر بالباء فعُرّبت بالفاء .

والسَّدل : إسبال الرّجل ثوبه من غير أن يضمّ جانبيه بين يديه ، فإن ضمّه فليس بسَدْل ، وقد رويتْ فيه الكراهة عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

***

ومنها : أن رجلا أتاه فى فريضة وعنده شُرَيح ، فقال : أتقول أنت فيها أيها العبد الأبْظَر !

قال أبو عبيد : هو الذى فى شَفته العُلْيا طُول ونتوء فى وسطها محاذِى الأنْف . قال : وإنما نراه قال لشُريح : « أيّها العبد » ، لأنه كان قد وقع عليه سَبْيٌ فى الجاهليّة .

---

(١) سورة النجم ٦١

ومنها : أنّ الأشعث قال له وهو على المنبر : غلبتْنا عليك هـذه الحمراء ؛ فقال عليه السلام: مَن يعذِرنى من هؤلاء الضّياطرة، يتخلف أحدُهم يتقلّب على فراشِه وَحشاياه كالعَير ويهجر هؤلاء للذكر ! أأطرُدهم ؟ إنى إنْ طرَدْتهم لمن الظالمين . والله لقد سمعته يقول : والله ليضربنّكم على الدّين عوْدا كما ضرَبْتموهم عليه بدْءا .

قال أبو عبيد : الحمراء : العَجَم والمَوالى ، سمّوا بذلك لأنّ الغالب على ألوان العرب السُّمْرة ، والغالب على ألوان العجم البياض والُحمْرة . والضّياطرة : الضِّخام الذين لا نَفْع عندهم ولا غَناء ، واحدُهم ضَيْطار .

***

ومنها : قوله عليه السلام : اقتلوا الجانّ ذا الطُّفْيَتَيْن ،والكلْب الأسود ذا الغُرّتَيْن .

قال أبو عُبيد : الجانّ حية بيضاء ، والطّفْية فى الأصل: خُوصة المُقْل ، وجمعُها طفىّ ، ثم شُبهت الُخطّتان على ظَهْر الحية بِطُفْيَتيْن . والغُرّة : البياض فى الوجه .

***

[نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لابن قتيبة]

وقد ذكر ابنُ قُتيبة فى غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى .

فمنها قوله : من أراد البقاء ـ ولا بقاء ـ فليُباكِر الغداء ، وليُخفف الرّداء ، وليُقِلّ غِشْيان النّساء . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما خِفّة الرّداء فى البقاء ؟ فقال : الدّين .

قال ابن قتيبة : قوله «الرِّداء الدَّين» مَذهب فى اللغة حَسَنٌ جيّد ، ووجهٌ صحيح ، لأنّ الدَّيْنَ أمانةٌ ، وأنت تقول : هو لك علىّ وفى عنــق حتى أؤدّيه إليك ، فــكأنّ الدَّين لازِم للعنق ، والرِّداء موضِعه صَفْحتا العنق ، فسمّى الدَّين رداء وكَنَى عنه به ، وقال الشاعر :

إن لى حاجةً إليك فقالت   بين أُذْنى وعاتق ما تريد

يريد بقوله : « بين أُذنى وعاتق ما تريد » فى عنق ، والمعنى أنى قد ضمنته فهو علىّ ، وإنما قيــل للسيف رداء لأنّ حمالته تقع موقع الرداء ، وهو فى غير هذا الموضع العطاء ، يقال : فلانٌ غمر الرداء أى واسعُ العطاء ؛ قال : وقد يجوز أن يــكون كَنَى بالرّداء عن الظَّهر ، لأنه يقع عليه ؛ يقول : فليخفِّف ظهره ولا يثقله بالدَّين ، كما قال الآخر : «خماص الأُزُر» ، يريد خماص البطون .

قال : وبلغنى نحو هذا الــكلام عن أبى عبيد ، قال : قال فقيه العرب : من سَرّه النســاء ــ ولا نساء ــ فليُبَــكِّر العشاء ، وليُباكِر الغداء ، وليخفّف الرِّداء ، وليُقِلّ غِشيان النساء قال : فالنسء التأخيرُ ، ومنه : ﴿ إنما النَّسىء زيادةٌ فى الــكفر[1] ﴾ .

وقوله : فليبكِّر العشاء : أى فليؤخّره ، قال الشاعر :

* فأكريتُ العشاء إلى سُهَيل *

ويجوز أن يريد فلينقص العَشاء ، قال الشاعر :

* والطلّ لم ينضــل ولم يكر *

* * *

---

(١) سورة التوبة ٢٧

ومنها: أنه أُتِيَ عليه السلام بالمال فكوّم كومةً من ذهب وكومة من فضة، فقال: يا حمراء ويا بيضاء احمرّي وابيضّي وغُرّي غيري.

هذا جَناي وخيارُه فيـه وكلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيهْ

قال ابن قُتيبة: هذا مَثَل ضَرَبه، وكان الأصمعيّ يقوله: «وهِجانه فيه»، أي خالصُه، وأصل المثـل لعمرو بن عَدِيّ ابن أُخت جَذِيمـة الأبرش، كان يجني الكمأة مع أتراب له، فـكان أترابه يأكلون ما يجدون، وكان عمرو يأتي به خاله ويقول هذا القول[1].

* * *

ومنها حديث أبي جاب قال: جاء عَمِّي من البَصْرة يذهب بي وكنت عند أمي، فقالت: لا أتركك تذهب به، ثم أتت عليًّا عليه السلام فذكرت ذلك له، فجاء عَمّي من البصرة، فقال: نعم والله لأذهَبَنّ به وإن رغم أنفُك، فقال عليّ عليه السلام: كذبت والله، ووَلَقْت، ثم ضرب بين يدَيه بالدِّرة، قال: ولَقْت مثل كَذَبْتَ وكذلك وَلَعت بالعين، وكانت عائشة تقرأ: ﴿إذ تَلِقُونه بألسِنَتِـكُمْ﴾[2] وقال الشاعر:

* وهنّ من الأخلاف والوَلَعانِ[3] *

يعني النساء أي من أهل الأخلاف.

* * *

ومنها قوله عليه السلام: إن من ورائكم أموراً متماحلة رُدُحا وبلاء مكلِّحا مبلِّحا.

---

(١) ا: «الكلام». (٢) سورة النور ١٥

(٣) اللسان (ولع)، وصدره:

* لخلابةِ العينين كذابة المنى *

قال ابن قتيبة : المتماحلة الطِّوال ، يعنى فتنا يَطُول أمرُها ويعظم ؛ ويقال : رجل مُتماحل وسَبَنْسَب مُماحل ، والرُّدحُ جمع رِداح ، وهى العظيمة ؛ يقال للكتيبة إذا عَظُمَتْ رَدَاح ، ويقال للمرأة العظيمة العَجيزة رَداح .

قال : ومنه حديثُ أبى موسى، وقيل له زمن علىّ ومعاوية : أهىَ أهىَ ؛ فقال : إنما هـذه الفِتْنة حَيْضة مِن حيضات الفتن ، وبقيت الرّداح المُظلمة التى من أشرَف أشرَفت له .

ومكلحا أى يكلح الناسُ بشدّتها ، يقال كلَح الرجل وأكلحه، الكلحة الهمّ . والمبلّح ، من قولهم : بلّح الرجُل إذا انقطع من الإعياء ، فلم يقدِر على أن يتحرّك ، وأبلحه السيرُ ؛ وقال الأعشى .

* واشتكى الأوصالَ منه وبَلحْ *

* * *

ومنها قولُه عليه السلام يوم خَيْبرَ :

أنا الّذى سمّتنِى أمّى حَيْدَرَهْ   كليثِ غاباتٍ كريهِ المَنظَرَهْ

* أوفِيهم بالصّاع كَيْلَ السّنْدَرَهْ *

قال ابن قتيبة : كانت أمّ علىّ عليه السلام سمّتْه وأبو طالبٍ غائبٌ حين ولدته أسداً باسم أبيها أسَدِ بنِ هاشم بنِ عبد مَناف ، فلمّا قدم أبو طالب غيّر اسمَه وسمّاه عَليّا ، وحَيْدرة : اسمٌ من أسماء الأسد ، والسّنْدَرة : شجرةٌ يُعمَل منها القِسِىّ والنَّبل ؛ قال :

* حَنوتُ لهم بالسّنْدرِىّ المؤتّر *

فالسندرة فى الرّجَز يُحتَمل أن تكون مِكيالا يُتخذ من هذه الشّجرة ، سمّى باسمها كما يسمّى القوْس بَنْبعة . قال : وأحسب إن كان الأمرُ كذلك أنّ الكَيْل بها قد كان

جُزافاً فيه إفراط ؛ قال : ويَحتمل أن تكون السَّنْدَرة هاهنا امرأةً كانت تكيل كَيْلا وافِياً أو رَجُلا .

***

ومنها قولُه عليه السلام : من يَطُلْ أيْرُ أبيه يَتمنطَقْ به .

قال ابن قتيبة : هذا مَثَل ضرَبَه ، يريد من كثُرتْ إخوتُه عَزّ واشتدّ ظهرُه ، وضَرَب المِنطَقة إذا كانت تشدّ الظّهر مَثلا لذلك ، قال الشاعر :

فلو شاء ربِّي كان أيرُ أبيكُمُ ... طويلاً كأيْرِ الحارثِ بن سَدُوسِ[1]

قيل كان للحارث بن سَدُوس أحدٌ وعشرون ذَكَرا ، وكان ضرارُ بنُ عمْرو الضبيّ يقول : ألا إنّ شرَّ حائلٍ أمٌ ، فزوّجوا الأمّهات ، وذلك أنّه صُرِع ، فأخذته الرِّماح ، فاشتَبكَ عليه إخوتُه لأمّه حتّى خلّصوه .

قال : فأمّا المَثَل الآخرُ وهو قولهم : من يَطُلْ ذَيْلُه يتَمنْطَقْ به ، فليس من المَثل الأوّل فى شيء ، وإنّما معناه من وَجَد سعةً وضَعَها فى غير مَوضِعها وأنفق فى غير ما يلزَمه الإنفاق فيه .

***

ومنها قولُه : خيرُ بئرٍ فى الأرض زَمْزم ، وشرُّ بئرٍ فى الأرض بَرهوت .

قال ابن قتيبة : هى بئرٌ بحضرَمَوْت يُرْوَى أن فيها أرواحَ الكفّار .

قال : وقد ذَكَرَ أبو حاتم عن الأصمعيّ عن رجل من أهل حَضْرَمَوْت قال : نجد فيها الرائحة المنتِنة الفظيعةَ جدّا ، ثمّ نمكث حِينا فيأتينا الخبرُ بأنّ عظيما من عُظَماء الكفّار قد مات ، فنَرى أنّ تلك الرائحة منه ، قال : وربّما سُمِع منها مثل أصوات الحاجّ ، فلا يستطيع أحدٌ أن يمشِيَ بها .

***

(١) اللسان (نطق) ، من غير نسبة .

ومنها قوله عليه السلام : أيما رجلٍ تزوّج امرأةً مجنونةً ، أو جذْماء ، أو برْصاء ، أو بها قَرْن ؛ فهى امرأته ، إن شاء أمسك ، وإن شاء طلّق .

قال ابن قُتَيبة : القَرْن بالتّسكين : العَفلة الصغيرة؛ ومنه حديث شُريح أنّه اختُصم إليه فى قَرْن بجارِيَةٍ ، فقال : أقعِدُوها فإن أصاب الأرضَ فهو عَيْب ، وإن لم يُصِب الأرض فليس بعيب .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لَوَدَّ معاويةُ أنّه ما بقِىَ من بنى هاشم نافِخُ ضِرْمة إلّا طَعن فى نِيطه .

قال ابن قتيبة : الضِّرْمة النار ؛ وما بالدار نافخُ ضِرْمة ، أى مابها أحد .

قال : وقال أبو حاتم عن أبى زيد : طَعنَ فلانٌ فى نِيطه أى فى جِنازته ، ومن ابتدأ فى شىء أو دَخَل فيه فقد طَعَن فيه ، قال : ويقال : النِّيط : الموْت ، رماه الله بالنِّيط ؛ قال : وقد روى «إلّا طُعِن» بضم الطاء ، وهذا الرّاوى يَذهَب إلى أن النّيط نِيَاط القَلْب ، وهى عَلاقَتُه التى يَتعلّق بها ، فإذا طُعِن إنسانٌ فى ذلك المكان مات .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : إنّ الله أوحَى إلى إبراهيمَ عليه السلام أنِ ابنِ لى بيتاً فى الأرض ، فضاقَ بذلك ذَرْعا ، فأرسَل اللهُ إليه السّكِينة ، وهى رِيحٌ خَجُوج ، فتطوّقت[1] حولَ البَيْتِ كالحَجَفة .

وقال ابن قتيبة : الخَجُوج من الرِّياح : السريعةُ المرور ؛ ويقال أيضا : خَجَوْجاء ، قال ابن أحمر :

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا ، د : « تطوت » .

هَوْجاء رَعْبَلة الرّواح خَجَوْ جاةُ الغُدُوّ رَواحُها شَهْرُ (١)

***

قال : وهذا مثلُ حديث عليّ عليه السلام الآخَر ، وهو أنّه قال : السّكينة لها وجهٌ كوَجْه الإنسان ، وهي بعدُ ريحٌ هَفّافة ، أى خفيفةٌ سريعةٌ ، والحَجَفة : التُّرْس .

***

ومنها أنّ مُكاتبا لبعض بنى أسَد، قال : جئتُ بنَقَدٍ أجلِبُه إلى الكُوفة ، فانتهيْتُ به إلى الجِسْر ، فإنّى لأُسَرِّبُه عليه إذ أقبل مولًى لبكْر بن وائل يتخلّل الغَنَم ليقطَعها ، فنفَرَتْ نَقَدة ، فقطّرت الرّجُل فى الفُرات ، فغرِق ، فأخذت . فارتفعنا إلى عليّ عليه السلام فقَصَصْنا عليه القِصّة ، فقال : انطلِقوا فإن عرَفتم النَّقَدَة بعَيْنها فادفَعوها إليهم . وإن اختَلَطت عليكم فادفَعوا شَرْواها من الغَنَم إليهم .

قال ابن قُتيبة : النَّقَد : غَنَم صِغار ، الواحدةُ نَقَدة ؛ ومنه قولُهم فى المَثَل : « أذلّ من النَّقَد » .

وقوله : « أُسَرِّبه » أى أرْسِله قطعةً قطعةً . وشَرْواها: مثلها .

***

ومنها قولُه عليه السلام فى ذِكر المَهْدِيّ من وَلَد الحُسَين عليه السلام ، فقال : إنّه رجلٌ أجْلَى الجبين ، أقْنَى الأنف، ضَخْم البطْن ، أزْيَل الفَخِذين ، أفلَج الثّنايا ، بفَخِذه اليُمنَى شامة .

قال ابن قتيبة : الأجْلَى والأجْلَح شىء واحد ، والقَنا فى الأنف: طولُه ودِقّة أرْنَبَته

---

(١) اللسان ٣ : ٧١ ; قال : « يصف الريح » .

وحَدَبٌ فى وَسَطه . والأَزْبَل الفَخِذَين : المتباعدُ ما بينهما ، وهو كالأفحَج ؛ تَزَبَّل الشىء ؛ أى انفرَج ، والفَلَج : صُفرةٌ فى الأسْنان .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : إنّ بنى أُميّة لا يزالون يَطعُنون فى مَسجَل ضَلالة ، ولهم فى الأرض أَجَل حتى يُهَرِيقوا الدّم الحرامَ فى الشّهر الحَرام ، واللهِ لكأنّى أنظرُ إلى غِرْنَوْق من قُرَيْش يتخبّط فى دَمِه ، فإذا فعلوا ذلك لم يَبقَ لهم فى الأرض عاذِر ، ولم يَبقَ لهم مُلك ، على وجهِ الأرض .

قال ابنُ قتيبة : هو من قولك : ركبَ فلانٌ مَسجَله ، إذا جَدّ فى أمرٍ هو فيه كلاماً كانَ أو غيرَه ، وهو من السَّجْل وهو الصَّبّ . والغِرْنوق : الشابّ .

قلتُ : والغِرْنوق القُرَشىّ الذى قتلوه ، ثمّ انقضى أمرُهم عقيبَ قتلِه إبراهيم الإمام ، وقد اختَلَفت الرّواية فى كيفيّة قتله ، فقيل : قُتِل بالسّيف ؛ وقيل : خُنِق فى جِراب فيه نُورَة ، وحديث أميرِ المؤمنين عليه السلام يُسنِدُ الرّوايةَ الأولى .

* * *

ومنها ما رُوِى أنّه اشترى قميصا بثلاثة دَرَاهم ثم قال: الحمدُ لله الذى هذا مِن رياشه .

قال ابنُ قتيبة : الرِّيش والرِّياش واحد ، وهو الكِسْوة ، قال عزّ وجل : ﴿ قَدْ أَنزَلْنا عليكم لباساً يُوارِى سَوْآتِكم ورِيشا ﴾ ، وقُرِىء ﴿ ورِياشا ﴾ .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لا قَوَد إلاّ بالأَسَل .

قال ابن قتيبة : هو ما أُرهِف وأُرِقّ من الحديد ، كالسِّنان والسيف والسكين ؛ ومنه قيل : أَسَلة الذِّراع لما استدَقّ منه ، قال : وأكثرُ الناس على هذا المذهب

وقومٌ من الناس يقولون : قد يجوز أن القَوَد بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قُتل بغير ذلك .

* * *

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلا فى الشمس، فقال : قُمْ عنها فإنها مَبْخَرة مَجْفَرة، تُثقِل الرِّيح ، وتُبلى الثَّوب ، وتُظهِر الدَّاء الدَّفين .

قال ابنُ قتيبة : مَبخَرة: تُورِث البَخَر فى الفَم . ومَجْفَرة: تَقطع عن النِّكاح وتُذهبُ شَهوة الجماع ، يقال جفر الفَحْل من الإبل؛ إذا أكثر الضِّراب حتى يملّ وينقطع ، ومثله قَذَرَ ، وتقذَّر ، قذوراً ، ومثله أقطَعَ فهو مقطع .

وجاء فى الحديث أن عثمان بن مظعون قال : يا رسول الله ، إنى رجل تَشُقُّ علىّ العُزْبة فى المغازِى ، أفتأذن لى فى الخِصاء ؟ قال : لا ، ولكن عليك بالصَّوم فإنّه مُجْفِر .

قال : وقد رَوى عبدُ الرحمن عن الأصمعىّ عمّه، قال : تكلّم أعرابىّ فقال : لا تنكحنّ واحدة فتحيض إذا حاضت، وتمرض إذا مرضت، ولا تنكحنّ اثنتين فتكون بين ضَرّتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثافٍ ، ولا تنكِحَنّ أربعاً فيفلِسنك ويهْرِمنك ويُنْحِلْنَكَ ويُجفِرنك فقيل له : لقد حرّمْتَ ما أحلّ الله ، فقال : سبحان الله ! كُوزان، وقُرْصان، وطِمْران وعِبادة الرحمن ، وقوله «تُثقِل الريح» ، أى تُنْتِنُها ، والاسم الثُّفْل، ومنه الحديث «وليخرجنّ ثفلات» . والداء الدّفين : المستتر الذى قد قهرَتْه الطّبيعة ، فالشمسُ تُعينهُ على الطّبيعة وتُظهِره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة فى زاويته : فارَ التنور ، وفيه هَلَكَ يَغُوث ويَعُوق ، وهو الفاروق ، ومنه يُستَتِر جبلُ الأهواز، ووَسَطه على رَوْضةٍ من

رياضِ الجنّة ، وفيه ثلاثُ أعينٍ أنبتتْ بالضِّغثِ ، تذهِبُ الرِّجس ، وتُطهِّرُ المؤمنين : عَيْن من لَبَن ، وعَيْن من دُهْن ، وعينٌ من ماء ، جانبهُ الأيْمن ذِكْر ، وفى جانبه الأيْسر مَكْر ، ولو يَعلم الناسُ ما فيه من الفضْل لأتَوْه ولو حَبْواً .

قال ابن قتيبة : قوله : « أنبتتْ بالضِّغث » أحسبهُ الضِّغثُ الذى ضرب أيّوب أهله . والعَين التى ظهرت لما رَكَض الماء برجله . قال : والباء فى « بالضِّغث » زائدة ، تقديرُه : أنبتَت الضِّغْث ، كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدُّهن[1] ﴾ ، وكقوله : ﴿ يشرَبُ بها عباد الله[2] ﴾ .

وأما قوله : « فى جانبه الأيْمن ذِكْر » ، فإنّه يَعنى الصلاة . و« فى جانبِه الأيْسر مَكْر » أراه أراد به المَكْرَ به حتى قُتِل عليه السلام فى مسجد الكوفة .

***

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا رافع مولاه يتلقى جعفرَ بنَ أبى طالب لمّا قَدِم من الحبَشة ، فأعطاه علىٌّ عليه السلام حَتِيًّا وعُكّة سَمْن ، وقال له : أنا أعلم بجعفر أنّه إنْ علم ثَرّاه مرّة واحدة ثم أطعمَه ، فادفع هذا السَّمْن إلى أسماء بنتِ عُمَيس تَدْهنُ به بنى أخى مِنْ صَمَرِ البَحْر ، وتُطعِمُهم من الحَتِىّ .

قال ابن قتيبة : الحَتِىّ : سَوِيق يُتّخذ من المُقْل ، قال الهذلىّ يذكر أضيافه :

لا دَرَّ دَرِّىَ إنْ أطعَمْتُ نازِلَكُمْ ... قِرْفَ الحَتِىِّ وعندِى البُرُّ مَكْنُوزُ[3]

---

(١) سورة المؤمنين : ٢٠

(٢) سورة الدهر : ٦

وقوله : « ثَرّاه مَرّة » أى بَلّه دَفعة واحدة وأطعمه الناسَ ، والثرا : النَّدَا . وصَمَر البحرِ نَتْنه وغَمْقهُ ، ومنه قيل للدُّبُر الصُّمَارَى .

* * *

ومنها قوله عليه السلام يوم الشُّورَى لمـا تـكلّم : الحمد لله الذى اتّخذ محمدا منّا نبيا ، وابتَعثه إلينا رسولا ، فنحن أهلُ بيت النبوّة ، ومَعدن الحِـكْمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونَجاةٌ لمن طَلَب ، إنّ لنا حَقّاً إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نُمنعه نركب أعجازَ الإبل ، وإن طالَ السُّرَى ، لو عَهد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله عهداً لجالَدْنا عليه حتى نموت ، أو قال لنا قولا لأنفذنا قوله على رَغْمِنا . لن يُسرِع أحدٌ قَبلى إلى صِلَةِ رَحِمٍ ودعوة حَقّ ، والأمرُ إليك يابن عوف على صِدْق النّية ، وجُهْد النُّصْح ؛ وأستغفرُ الله لى ولـكم .

قال ابنُ قتيبة : أى أن مَعْناه رَكِبنا مركب الضَّيْم والذّل ، لأنّ راكب عجزُ البعير يجد مَشَقّة ، لا سيا إذا تطاول به الركوب على تلك الحال ، ويجوز أن يكون أراد : نصبر على أن نـكون أتباعا لغَيْرِنا ، لأنّ راكب عجزُ البعير يكون رِدْفا لغيره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام لمـا قَتل ابنُ آدم أخاه : غَمَصَ اللهُ الخَلْقَ ونقص الأشياء .

قال ابن قتيبة : يقال غَمَصْتُ فلانا أغمِصه واغتمصتُه إذا استصغرْته واحتقرْته ، قال : ومعنى الحديث أنّ الله تعالى نقص الخَلْق من عظم الأبْدان وطُولها من القوّة والبَطْش وطول العُمْر ونحو ذلك .

* * *

ومنها أنّ سلامة الـكندىّ قال : كان علىٌّ عليه السـلام يعلّمنا الصلاة على

رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيقول : اللهم داحيَ المدحوّات ، وباريءَ المسموكات ، وجبّارَ القلوب على فطراتها ، شقيّها وسعيدها ، اجعـــلْ شرائف صلواتِك ، ونوامىَ بركاتِك ، ورأفة تحيّاتك ، على محمد عبدِك ورسولك ، الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والمُعْلِنِ الحقّ بالحقّ ، والدامغ جيشات الأباطيـل ، كما حَمّلْته فاضطَلَع بأمْرِك لطاعتِك ، مستوفزاً في مَرْضاتك ، لغير نُكُلٍ في قِدَم ، ولا وَهَن في عَزْم ، داعيا لوحْيك ، حافظا لِعَهْدِك ، ماضيا على نفاذِ أمرِك ، حتى أورَى قَبَسا لقابس ، آلاءُ الله تصل بأهله أسبابه به ، هديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم ، موضحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازِنُ عِلْمك المخزون ، وشهيدُك يوم الدِّين ، وبعيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم أفسح له مفسحاً في عَدْلك ، واجْزِه مضاعَفاتِ الخير من فضلك ، مهنّآتٍ غير مكدَّرات ، من فَوْزِ ثوابك المحلول، وجَزْل عطائك المَعلول ، اللهم أعِل على بناء البانين بناءه ، وأكرِم مثواهُ لديك ونُزُله وأتمم له نورَه ، واجزِه من ابتعاثِك له مقبول الشهادة ، مَرْضِيَّ المقالة ، ذا منطق عَدْل ، وخُطّة فصل ، وبرهان عظيم .

قال ابن قتيبة : داحي المدحوّات ،أي باسط الأرَضِين، وكان الله تعالى خَلقها رَبْوة ثم بَسطها ، قال سبحانه ﴿ والأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها ﴾[1] ؛ وكلّ شيء بسطتَه فقد دَحَوْتَه ومنه قيل لموضع بَيْض النَّعامة أُدْحِيّ ، لأنها تَدْحُوه للبيض أى تُوسِّعه ، ووَزْنُهُ أفعول .

وباريءُ المسْمُوكات: خالق السموات . وكلّ شيء رفعته وأعليته فقد سَمَكْته ،وسَمْك البيت والحائط ارتفاعهُ ، قال الفرزْدَق :

إنّ الذى سَمَك السماءَ بَنَى لنا بيتـاً دعائمُه أعزُّ وأطوَلُ

---

(١) سورة النازعات ٣٠

وقوله : جبّار القلوب على فِطَرَاتها . من قولك جَبَرْت العَظْم فجُبِر إذا كان مَكْسورا فلأَمْتَه وأقمْتَه ، كأنّه أقامَ القلوب وأثبتها على مافطَرها عليه من معرفته والإقرار به ، شقيّها وسعيدها ، قال : ولم أجعلْ جبّارا هاهنا ، من أجبرتُ فلاناً على الأمر إذا أدخلتَه فيه كرْها ، وقسَرْته ، لأنّه لا يقال من أفعل فعّال ، لا أعلم ذلك إلا أنّ بعض القرّاء قرأ ﴿ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَّادِ ﴾ (١) بتشديد الشين ، وقال: الرشّاد الله ، فهذا فعال من أفعل ، وهي قراءة شاذّة ، غيرُ مستعمَلة ، فأمّا قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ (٢) فإنه أراد وما أنتَ عليهم بمسلّط تسليط الملوك . والجبابرة: الملوك ، واعتبار ذلك قولُه : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (٣) أي بمُتَسلّط تسلُّط الملوك ، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرتُ فلانا على الأمر أنا جبّارٌ له ، وكان هذا محفوظا ، فقد يجوز أن يُجعَل قولُ عليٍّ عليه السلام : جبّار القلوب من ذلك ، وهو أحسَنُ في المعنى .

وقوله : « الدامغ جَيْشات الأباطِيل » ، أي مُهلِك ما نَجَم وارتفع من الأباطيل ، وأصل الدّمْغ من الدّماغ ، كأنّه الذي يَضرِب وَسَط الرأسِ فيَدْمَغُه أي يصيب الدّماغَ منه . ومنه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ (٤) أي يُبطِله والدّماغ مَقتَل ، فإذا أصيبَ هَلَك صاحبُه .

وجَيْشات: مأخوذٌ من جاشَ الشيء أي ارتفَع ، وجاش الماء إذا طَمى ، وجاشَت النفسُ .

وقولُه : « كما حمل فاضطَلَع » افتعَل مِن الضَّلاعة وهي القوّة .

---

(١) سورة المؤمنين : ٣٨
(٢) سورة ق : ٤٥ .
(٣) سورة الغاشية : ٢٢
(٤) الأنبياء : ١٨

وقوله : « لغيرِ نُكُلٍ فى قِدَم » ، النُّكُل: مَصدَر وهو النُّكول ، يقال : نَكَل فلانٌ عن الأمر يَنكُل نُكولًا ، فهذا المشهورُ ونَكِل بالكسر يَنكَل نُكُلا قليلة .

والقِدَم : التقدّم ، قال أبو زيد :رجلٌ مِقْدام إذا كان شجاعا ، فالقدم يجوزُ أن يكون بمعنى التقدّم ، وبمعني المتقدِّم .

قوله : « ولا وَهْن فى عَزْم » ، أى ولا ضَعف فى رأى .

وقوله : « حتّى أورى قَبساً لقابِس » ، أى أظهر نورا من الحقّ ، يقال : أوْرَيْتُ النارَ إذا قدَحْتَ ماظهر بها ، قال سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [1] .

وقوله : « آلاء الله تصلُ بأهلِه أسبابه » ، يريد نِعَم الله تَصِل بأهلِ ذلك القَبَس ، وهو الإسلام والحقّ سبحانه أسبابه وأهله ، المؤمنون به .

قلتُ : تقديرُ الكلام حتّى أورى قبساً لقابس : تَصِل أسبابُ ذلك القَبَس آلاءُ الله ونِعَمُه بأهلِ المؤمنين به . واُعلم أنّ اللام فى « لغير نُكُل» متعلّقةٌ بقوله :«مستوفِزا » ، أى هو مُستوفِزٌ لغير نُكول ، بل للخوف منك ، والخضوعِ لك .

قال ابنُ قُتَيبة : قولُه عليه السلام : « به هُدِيَت القلوب بعدَ الكُفر ، والفِتَن مُوضحات الأعلام » ، أى هديته لمُوضِحات الأعلام؛ يقال هَدَيتَ الطريقَ وللطّريق وإلى الطريق .

وقوله : «نائرات الأحكام ، ومُنِيرات الإسلام ، يريد الواضحات البيّنات ، يقال : نار الشيء وأنارَ ، إذا وَضَح .

وقوله : « شَهيدك يومَ الدّين » ، أى الشاهد على النّاس يومَ القيامة . وبَعِيثُك رَحْمة ، أى مَبعُوثُك ، فَعيل فى معنى مَفْعول .

---

(١) سورة الواقعة : ٧١

وقوله : « افسح له مَفسَحا » ؛ أى أوسِع له سَعةً ؛ ورُوِى « مُفْتسحا » بالتاء .

قوله : « فى عَدْلِك » أى فى دارعدلك ، يَعْنى يومَ القيامة ، ومن رواه « عَدْنِك » بالنون ، أراد جَنّةَ عَدْن .

وقوله : « من جَزْل عَطائك المَعْلول » ، من العَلَل ، وهو الشُّرْب بعد الشُّرْب ، فالشُّرْب الأوّل نَهَل ، والثانى عَلَل ، يريد أنّ عَطاءه عزّ وجلّ مُضاعَف ، كأنّه يَعُلّ عِبادَه ، أى يُعطِيهم عَطاء بعد عَطاء .

وقوله :« أعْلِ على بناءه البانين بِناه» ، أى ارْفَع فَوقَ أعمالِ العاملين عَمَلَه . وأَكرِم مَثْواه ، أى مَنزِلَته ، من قولِك : ثوَيْتُ بالمكان أى نزَلْته وأقمت به ، ونُزُله : رزقه .

ونحن قد ذكَرْنا بعضَ هذه الكلمات فيما تقدّم على رواية الرّضىّ رحمه الله وهى مخالِفةٌ لهذه الرواية ، وشرحنا ما رَواه الرّضىّ ، وذكَرْنا الآن ماروواه ابنُ قُتيْبَة وشرحَه لأنّه لا يخلو من فائدة جديدة .

***

ومنها قوله عليه السلام :« خُذِ الحِكمَةَ أنّى أتتْك » ، فإنّ الكلمةَ من الحكمة تكونُ فى صدر المنافق فتَتَلَجْلَجُ فى صَدْرِه حتّى تَسكُن إلى صاحبِها .

قال ابن قتيبة : يريدُ الكلمةَ قد يَعلَمها المنافقُ فلا تزال تتحرك فى صَدْرِه ولا تَسكُن حتّى يَسمَعَها منه المؤمنُ أو العالِم فيَعِيها ويَثْقَفُها ويَفْقهها منه ، فتَسكُن فى صَدْره إلى أخواتها من كَلِم الحِكْمَة .

***

ومنها قوله عليه السلام : البيتُ المَعمور نِتاقُ الكَعْبة من فَوقِها .

قال ابنُ قُتَيبة : نِتاقُ الكَعْبة، أى مُظِلّ عليها من فوقِها ، من قولِ الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾[١] ، أى زُعزِع فأظلّ عليهم .

***

ومنها قوله عليه السلام : «أنا قَسيم النار» ، قال ابن قُتَيبة : أراد أنّ الناسَ فريقان ! فريقٌ معى فهم على هُدًى ، وفريقٌ علىّ فهمْ على ضَلالة ، كالخوارِج ، ولم يجسُر ابن قُتيبة أن يقول : « وكأهل الشّام » يتورّع بزعم ، ثمّ إن الله أنطَقه بما تورّع عن ذِكْرِه ، فقال متمّما للكلام بقوله : فأنا قَسِيم النّار ، نصفٌ فى الجنّة معى ، ونصفٌ فى النار ؛ قال : وقَسِيم فى معنى مُقاسِم ، مثل جَلِيس وأَكِيل وشَرِيب .

قلت : قد ذكر أبو عُبيد الهرَوىّ هـذه الكلمة فى الجمع بين الغَرِيبَيْن ؛ قال : وقال قوم : إنّه لم يُرِد ماذكره ، وإنّما أراد: هو قَسِيم النّار والجنّة يومَ القيامة حقيقة، يقسم الأمّة ، فيقولُ : هذا للجنّة ، وهذا للنار .

***

(١) سورة الأعراف : ١٧١

[خطبة منسوبة للإمام عليّ خالية من حرف الألف]

وأنا الآن أذكُرُ من كلامِهِ الغريب مالم يُورِدْه أبو عُبيد وابنُ قُتيبة فى كلامهما وأشرَحُه أيضا ، وهى خُطْبةٌ رَواها كثيرٌ من الناس له عليه السلام خاليَةٌ من حَرْف الألف ؛ قالوا : تذاكر [1] قوم من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله : أىُّ حروف الهجاء أدخَل فى الكلامِ ؟ فأجمَعوا على الألف ، فقال علىٌّ عليه السلام :

حَمِدْتُ مَنْ عظُمت مِنّته ، وسَبَغَت نعمتُه ، وسبقَتْ غضبَه رحمتُه ، وتمت كلمتُه ، ونفذتْ مشيئتُه ، وبلغت قضيّتُه ؛ حَمِدْته حَمْدَ مُقِرٍّ بِرُبوبيته ، متخضّعٍ لعبوديَّته ، متنصِّلٍ مِنْ خطيئتِهِ ، متفرِّدٍ بتوحيدِهِ ، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تُنْجيهِ ، يومَ يُشْغَلُ عن فصيلتِهِ وبنيهِ .

ونستعينُهُ ونسترشدُهُ ونستهديهِ ، ونُؤْمِنُ بِهِ ونتوكّلُ عليه ، وشهدْتُ له شهودَ مُخْلِصٍ موقِنٍ ، وفرّدْتُهُ تفريدَ مُؤْمِنٍ مُتيقِّنٍ ، ووحّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ ، ليس له شريكٌ فى مُلْكِهِ ، ولم يكن له ولِىٌّ فى صنعِهِ ، جَلّ عن مشيرٍ ووزيرٍ ، وعن عونٍ مُعينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ .

عَلِمَ فستر ، وبَطَن فخبَرَ ، وملكَ فقهرَ ، وعُصِىَ فغفر ، وحكَمَ فعدلَ ، لم يزلْ ولن يزولَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[2] ، وهو بعد كلّ شىء ربٌّ متعزِّزٌ بعزّتِهِ ، متمكّنٌ بقُوّتِهِ ، متقدِّسٌ بعلوّه ، متكبِّرٌ بسموِّهِ ، ليس يدركُهُ بصرٌ ، ولم يُحِطْ به نظرٌ ، قوىٌّ منيعٌ ، بصيرٌ سميعٌ ، رءوفٌ رحيمٌ .

عَجَزَ عن وصفِهِ من يصفُهُ ، وضلّ عن نعته من يعرفه .

---

(١) فى الأصل : « يذاكر » ؛ تصحيف .

(٢) سورة الشورى : ١١

قَرُبَ فبعُدَ ، وبعُد فقرُب ، يُجيبُ دعوةَ من يدعوه ، ويرزقهُ ويحبوه ، ذو لطف خَفِيٍّ ، وبطشٍ قويٍّ ، ورحمةٍ مُوسَعةٍ ، وعقوبةٍ موجِعةٍ ، رحمتُهُ جنة عريضةٌ مونقةٌ ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ .

وشهدْتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ ، وعبدِهِ وصفيِّهِ ، ونبيِّهِ ونَجِيِّه ، وحبيبِهِ وخليلِهِ ،بعثه في خيرِ عصرٍ ، وحين فترةٍ وكفرٍ ، رحمةً لعبيدهِ ، ومِنَّةً لمزيدِهِ ، ختم به نبوّته ، وشيَّدَ به حجّته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، رءوفٌ بكلِّ مُؤْمنٍ ، رحيمٌ سخيٌّ ، رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ ، وبركةٌ وتكريمٌ ، مِنْ رَبٍّ غفورٍ رحيمٍ ، قريبٍ مُجيب .

وَصيَّتكُمْ معشرَ منْ حضرَنِي بوصيَّةِ ربِّكُم ، وذكَّرتكُمْ بسنَّةِ نبيِّكُمْ ، فعليكم برَهْبةٍ تَسْكُنُ قلوبَكم ، وخشيةٍ تُذْرِي دُمُوعكم ، وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قَبْل يوْمٍ تُبليكم وتذهِلكم ، يوْم يفوزُ فِيهِمنْ ثقلَ وزنُ حسنتهِ ، وخفَّ وزنُ سيئتهِ ،ولتكُنْ مسألتكم وتملقُكُمْ مسألة ذلٍّ وخضوعٍ ، وشكْرٍ وخشوعٍ ، بتوْبةٍ وتورُّعٍ ، وندمٍ ورجُوعٍ ، وليغتنمْ كلُّ مُغتَنِمٍ منكُمْ صحّتَهُ قبل سقمه ، وشبيبتِه قبل هرَمِهِ ، وسعتهُ قبلَ فقْرِهِ ، وفرْغتَهُ قبل شغله، وحضَرَه قبل سفره . قبلَ تكبُّرٍ وتهرُّمٍ وتسقُّمٍ ، يملُّهُ طبيبهُ ، ويعرِضُ عنْهُ حبيبهُ ويتقطعُ غمْدُهُ ، ويتغيَّرُ عقلهُ ، ثم قِيلَ : هُوَ موعُوكٌ ، وجسمهُ منْهوكٌ ، ثمّ جُدَّ في نزْعٍ شديدٍ ، وحضرَهُ كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، فشَخصَ بصرُهُ ، وطمِحَ نظرُهُ ، ورشَحَ جبينهُ ، وعطفَ عرينهُ ، وسكَنَ حَنينُهُ ، وحزَنتْهُ نفسهُ ، وبكتهُ عِرْسُهُ ، وحُفِرَ رَمْسهُ ، ويتِمَ منْهُ ولدُهُ ، وتفرَّقَ منْهُ عدَدُهُ ، وقُسِم جَمْعُه ، وذهبَ بصرُهُ وسَمْعُهُ ، ومُدِّدَ وجُرِّدَ ، وعُرِّيَ وغُسِلَ ، ونُشِّفَ وسُجِّيَ ، وبُسِط لَهُ وهُيِّئ ، ونُشِر عليهِ كفنهُ ، وشُدَّ منْهُ ذَقنهُ ، وقُمِّصَ وعمِّمَ ، ووُدِّعَ وسلّمَ ، وحُمِلَ فوْقَ سريرٍ ، وصُلِّيَ عليهِ بتكْبيرٍ ، ونُقل مِنْ دُورٍ مُزخرفَةٍ ، وقُصُورٍ مُشيَّدَةٍ ، وحُجَرٍ مُنجَّدَةٍ ، وجُعلَ في ضريحٍ ملْحُودٍ

وضيق مرصُودٍ ، بلَبِن منضُودٍ ، مُسقَّف بجُلْمُودٍ ، وهيلَ عليهِ حفرُهُ ، وحُثِيَ عليهِ مدَرُهُ ، وتحقَّق حِذْرُهُ ، ونُسِيَ خبرُهُ ، ورَجع عنهُ وليُّه وصفيّه ، ونديمُهُ ونَسيبه ، وتبدّل به قرينه وحبيبُهُ ، فهو حشو قبرٍ ، ورهينُ قفرٍ ، يسعى بجسمه دُود قبرِهِ ، ويسيل صديدهُ مِنْ مَنْخِرِهِ ، يسحقُ تُرْبُه لحمَـهُ ، وينشَفُ دَمَهُ ، ويَرُمّ عظمهُ حتّى يوم حشرِهِ ، فنشرَ مِنْ قبرِهِ حِينَ ينفخُ في صُورٍ ، ويُدْعَى بحشرٍ ونشُورٍ .

فثمّ بعثِرتْ قبُور ، وحُصِّلَتْ سريرةُ صُدُورٍ ، وَجِيء بكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ وشهيدٍ ، وتوحَّد لِلفَصْلِ قديرٌ بعبدِهِ خبيرٌ بصير ، فكَمْ مِنْ زفرة تُضْنيه ، وحسرةٍ تنضيه ، في موْقفٍ مهُولٍ ، ومشهدٍ جليلٍ ، بيْنَ يدَيْ ملكٍ عظيمٍ ، وبكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ عليمٍ ، فحينئذٍ يُلْجِمُهُ عرَقُهُ ، ويُحصِرُه قلقهُ ، عبْرتُهُ غير مرحومةٍ ، وصرْخته غيرُ مسموعة ، وحجتهُ غيرُ مقبولة ، زالتْ جريدته ، ونشرتْ صحيفتهُ : نظرَ في سوءِ عمله ، وشهدتْ عليهِ عينه بنظره ، ويدهُ ببطشهِ ، ورجلُهُ بخطْوه ، وفرْجهُ بلمسهِ ، وجلدُه بمسِّهِ ، فسلسِلَ جيدُه ، وغُلَّتْ يده ، وسيقَ فسحب وحْدَه ، فورَد جهنّمَ بكرْبٍ وشدَّةٍ ، فظلَّ يعذّبُ في جحيمٍ ، ويُسْقى شرْبةً مِنْ حميمٍ ، تَشْوي وجهَهُ ، وتسلخُ جلدَهُ ، وتضربهُ زبنِيَةٌ بمقمعٍ مِنْ حديدٍ ، ويعودُ جلده بعْدَ نُضْجه كجلْدٍ جديدٍ ، يستغيثُ فتعرض عنهُ خزنةُ جهنّمَ ، ويستصرِخُ فيلبث حقبةً يندَمُ .

نعوذُ بربٍّ قديرٍ ، مِنْ شرِّ كلِّ مصيرٍ ، ونسْأله عفو مَنْ رَضيَ عنهُ ، ومغفرة مَنْ قبله ، فهوَ وليُّ مسألتي ، ومُنجحُ طلبتي ، فمنْ زُحزِحَ عَنْ تعذيب ربِّهِ جُعِل في جنّتهِ بقُرْبهِ ، وخلد في قصورٍ مُشيَّدة ، ومُلِّكَ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ ، وطيفَ عليهِ بكئوسٍ ، أسْكِنَ في حظيرةِ قدُّوس ، وتقلَّبَ في نعيمٍ ، وسُقِيَ مِنْ تسنيمٍ ، وشرب مِنْ عيْنٍ سَلْسَبيلٍ ، ومُزِجَ له بزنجبيلٍ ، مختّمٍ بمسكٍ ، وعبيرٍ مُستديمٍ للملكِ ، مُستشعرٍ للسُّرُر ، يشربُ مِنْ خمُورٍ ، في رَوْضٍ مُغدقٍ ، لَيْسَ يُصدَّعُ مَنْ شربه ، ولَيْسَ يُنزَفُ .

هَـذِهِ مَنْزِلةُ مَنْ خَشِىَ رَبَّهُ، وحذَّر نَفسَهُ معصيتهُ، وتلكْ عقُوبَةُ مَنْ جَحَد مشيئتهُ، وسوَّلتْ له نفسهُ معصيتهُ، فهو قَوْلٌ فصلٌ، وحُكم عـدْلٌ، وخبرٌ قصصٌ قصٌّ، وَوَعْظ نَصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] نَزَلَ بِهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبين، عَلَى قَلْب نبيٍّ مُهْتَدٍ رَشِيدٍ، صلَّتْ عليهِ رُسُلٌ سفَرَةٌ، مُكرَّمُونَ بَرَرَةٌ، عُذتُ بربٍّ عَلِيمٍ، رَحِيمٍ كَرِيمٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ عدُوٍّ لَعينٍ رَجِيمٍ، فلْيَتضرَّعْ مُتضرِّعكم، ولْيبتهلْ مُبتهلُكمْ، وليستغفرْ كلُّ مرْبوبٍ منكُمْ لى ولـكم، وَحسبى رَبِّى وحدَهُ.

***

الشَّرح :

فصيلةُ الرجل : رهطُه الأدْنَوْن. وكَدح : سعى سعياً فيه تعب، وفرْغتهْ : الواحدةُ من الفَراغ، تقول : فَرَغْت فرْغةً، كقولك : ضربتُ ضربةً. وسَجّى الميّتَ : بسط عليه رداء. ونَشَر الميّت من قبرْه بفتح النون والشين، وأنشَرَه اللهُ تعالى.

و بُعثِرت قبور : انتَثرتْ و نُبِشَتْ.

قوله : « وسيق بسحب وحدَه »، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسّى بغيره، فكان أخفَّ لألمه وعـذابه، و إذا كان وحده كان أشدّ ألماً وأهوَل، و[illegible] «فسيق [illegible]حَب وحدَه»، وهذا أقرب إلى تناسُب الفقرَتين، وذاك أفخم معنًى.

وزِبْنية على وَزْن « عِفْرِية » واحد الزبانية، وهم عند العرب الشرط، وسُمّىَ بذا[illegible] بعض الملائكة لدَفْعهم أهل النار إليها كما يَفعل الشّرط فى الدُّنيا، ومن أهل اللّغة من يجعَل واحد الزّبانية زبانىّ. وقال بعضهم: زَابن، ومنهم من قال : هو جمع لا واحدَ له، نحو أبابيل وعبـاديد، وأصـل الزبْن فى اللّغـة الدَّفْع، ومنـه ناقَةٌ زَبُون : تَضرب حالبَها وتدفعه.

---

(١) سورة فصلت : ٤٢

وتقول : مَلَكَ زيدٌ بفلانةَ بغير ، ألف والباء هاهنا زائدة كما زيدت فى « كَفَى بالله حسيبا » ، وإنما حَكمنا بزيادتها لأنّ العرب تقول: ملكتُ أنا فلانةَ أى تزوّجتُها وأملكْت فلانةَ بزيدٍ أى زوّجْتها به ، فلمّا جاءت الباء هاهنا ولم يكن بُدٌّ من إثبات الألف لأجلِ مجيئها جعلناها زائدة ، وصار تقديرُه : ومَلَكَ حُوراً عينا .

وقال المفسّرون فى تَسْنيم : إنه اسمُ ماء فى الجنة ، سُمّى بذلك لأنّه يجرى من فوق الغُرَف والقُصور .

وقالوا فى سلسبيل : إنه اسمُ عَيْنٍ فى الجنة ليس يُنزِف ولا يُخَمِّرُ كما يُخَمِر شارب الخمْر فى الدنيا .

***

انقضَى هذَا الفصلُ ، ثمّ رَجعنا إلى سَنَن الغرضِ الأوّلِ .

الأصلُ :

وقالَ عليه السلامُ ، لمّا بلغهُ إغارَةُ أصْحابِ معاوِيةَ على الأنْبار ، فخرجَ بنفسِهِ ماشِياً حتى أتَى النُّخَيلةَ ، وأدْرَكهُ النَّاسُ وقالُوا : يا أميرَ المُؤمِنين ، نحْنُ نَكْفِيكهمْ فقَال عليه السَّلام :

وَاللهِ مَا تَكْفُونَنِي أنفُسَكُمْ ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ ! إنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا ، فَإِنِّي الْيَوْمَ لأشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي ، كَأَنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ ، أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ .

قال : فلمّا قال هذا القول فى كلام طويل قد ذكرْنا مُخْتارَهُ فى جملة الخطب ، تقدَّم إلَيْهِ رَجُلانِ من أصحابه ؛ فقال أحدهما : ﴿ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾[1] ، فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نُنَفِّذْ[2] ، فقال : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ !

***

الشَّرْحُ :

السَّنَن : الطريقة ، يقال : تَنحَّ عن السَّنَن ، أى عن وَجْه الطَّريق . والنُّخَيلة : بظاهر الكوفة ، ورُوِى « ماتَكْفُونِى » بحذف النون .

والحَيْف : الظلم .

والوَزَعة : جمع وازِع ، وهو الدافع الكاف .

ومعنى قوله : « ماتكفوننى أنفسكم » ، أى أفعالُكم رديئة قبيحة تحتاجُ إلى جندٍ غيركم

(١) سورة المائدة : ٢٥ (٢) فى الأصل : « نَنْقُذ » ، تصحيف .

أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم ، فَمَنْ هذه حاله كيف أثقّفُ به غيرَه ، وأهذّبُ به سواه !

وإن كانت الرعايا : إنْ هاهنا مخفّفة من الثقيلة ، ولذلك دَخَلت اللام فى جوابها.

وقد تقدّم ذكرُنا هذين الرّجلين ، وإن أحدَهما قال : ياأمير المؤمنين ؛ أقول لكَ ماقاله العبْد الصالح : (ربِّ إنّى لاأملِك إلاّ نفسى وأخِى)[1]. فشكر لهما وقال : وأين تقعان ممّا أريد !



(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٣٦٨)

الأصل :

وَقيلَ : إنَّ الحَارِثَ بنَ حَوطٍ أَتَى عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُ : أَتَرَانِي أَظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَ الجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

يَا حَارِ ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ ، فَحِرْتَ ؛ إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ ؛ وَلَمْ تَعْرِفِ البَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ .

فَقَالَ الحَارِثُ :

فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إِنَّ سَعْداً وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الحَقَّ ، وَلَمْ يَخْذُلَا البَاطِلَ .

* * *

الشرح :

اللفظة التى وردتْ قبلُ أحسَنُ من هذه اللفظة، وهى أولئك قومٌ خذلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل ، وتلك كانت حالُهم ، فإنّهم خذلوا عليّا ولم ينصرُوا مُعاوية ولا أصحابَ الجَمَل .

فأمّا هذه اللفظة ففيها إشكالٌ ؛ لأنّ سعدا وعبد الله لعَمْرِى إنهما لم ينصُرا الحقّ ، وهو جانبُ علىّ عليه السلام ، لكنّهما خذَلا الباطلَ ، وهو جانبُ معاويةَ وأصحاب الجَمَل ، فإنّهم لم ينصُروهم فى حرْب قطّ ، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا بأولادهم ، فينبغى

أن نتأوّل كلامَه فنقول : إنّه ليس يَعنِي بالخِذْلان عـدمَ المُساعَدة فى الحرب ، بل يَعنِي بالخِذْلان هاهنا كلّ ما أثّر فى مَحق الباطلِ وإزالتِه ، قال الشاعر يصف فرَسا :

وهو كالدّلْوِ بـكفِّ المُستَقِي   خذلتْ عنـــه العَراقِ فانْجذَمْ

أى باينَتْه العَراقِ ، فلمّا كان كلُّ مؤثّرٍ فى إزالةِ شىء مُبايناً له نقل اللّفظ بالاشتراك فى الأمر العامّ إليه ، ولمّا كان سعدٌ وعبدُ الله لم يَقُوما خَطِيبَين فى النّاس يُعلّمانهم باطلَ معاويةَ وأصحاب الجمل ، ولم يَـكشِفا اللّبْس والشُّبْهة الداخلَة على الناس فى حرْب هذين الفَريقين ، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة علىٍّ عليه السلام فيردّ النـاسَ عن اتّباع صاحبِ الجَمَل وأهل الشام صدق عليهما أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ . ويُمكن أن يتأوّل على وجهٍ آخَر ، وذلك أنّه قد جاء خذلت الوحشيّة إذا قامتْ على ولدِها ، فيـكون معنَى قوله : «ولم يَخذُلا الباطل » ، أى لم يَقُما عليه وينصُراه ، فترجِـع هذه اللّفظة إلى اللّفظة الأولى ، وهى قوله : « أولئك قوم خذلوا الحقّ ولم يَنصُروا الباطلَ » .

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة . ويقال : إن الموجود فى خَطّ الرضىّ « ابن خَوط » بالخاء المعجمة المضمومة .

الأصل :

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ .

***

الشرح :

قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَمِيّة مستحسَنة تُناسِب هذا المعنى ، أو تجرى مَجْراه في شَرْح حالِ السلطان ، نحو قولِهم : صاحب السُّلطان كراكبِ الأسَد يَهابُه الناس ، وهو لمرْكوبه أهْيَب .

وكان يقال : إذا صَحِبْتَ السلطانَ فلتكنْ مُدارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لَبَعْلِها المُبغِض لها ، فإنّها لا تَدَعُ التصنُّع له على حالٍ .

قيل للعَتَّابيّ : لمَ لا تقصِد الأميرَ ؟ قال : لأنّى أراه يُعطِي واحداً لغيرِ حَسَنة ولا يَدٍ ، ويَقتُل آخرَ بلا سَيّئةٍ ولا ذَنْب ، ولستُ أدرِى أيَّ الرّجُلين أكون ! ولا أرجو منه مقدارَ ما أُخاطِر به .

وكان يقال : العاقل مَن طَلَب السلامةَ مِن عَمَل السلطان ، لأنّه إن عَفّ جَنَى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة ، وإن بَسَط يَده جَنَى عليه البَسْط ألسِنَة الرّعِيّة .

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول : عمل السّلطان كالحمّام ، الخارجُ يُؤْثِر الدُّخول ، والدّاخل يُؤْثر الخرُوج .

ابن المقفَّع : إقبالُ السّلطان على أصحابه تَعَب ، وإعراضُه عنهم مَذَلّة .

وقال آخر : السلطان إنْ أرضَيْتَه أتعبك ، وإنْ أغضبته أعطَبَك .

وكان يقال : إذا كنتَ مع السلطان فكُنْ حَذِرا منه عند تقريبه ، كاتمًا لِسرّه إذا استَسَرّك ، وأمينا على ما ائتمنك، تشكُر له ولا تكلفه الشُّكر لك ، وتعلّمه وكأنك تتعلّم منه ، وتؤدِّبه وكأنّه يؤدِّبُك ، بصيراً بهواه ، مؤثرا لمنفعته ، ذليلاً إنْ ضامَك ، راضياً إن أعطاك ، قانعا إنْ حرَمك ، وإلّا فأبعدْ منه كلّ البُعْد .

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السلطانَ : لا تَصحَبْهم ، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التنُّور ، كلّما مسّه الإنسانُ اسودّ منه ،فقال : إن كان خارج تلك القِدْر أسوَد فداخِلُها أبيَض .

وكان يقال : أفضَل ماعُوشِر به الملوك قِلّة الخِلاف ، وتخفيف المئونة .

وكان يقال : لا يَقدِر على صُحْبة السلطان إلا من يستقلّ بما حمّلوه ، ولا يُلحِف إذا سألَهم ، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه ، ولا يتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه ، ولا يَطغَى إذا سلّطوه ، ولا يَبطَر إذا أكرَموه .

وكان يقال : إذا جعلك السلطانُ أخًا فاجعله ربًّا ، وإن زادكَ فزِدْه .

وقال أبو حازم : للسُّلطان كُحْل يَكحَل به مَنْ يُولّيه، فلا يُبصِر حتى يُعزَل .

وكان يقال : لا يَنبغِي لصاحب السّلطان أن يبتدئَه بالمسألة عن حاله ، فإنّ ذلك من كلام النَّوْكَى [١] وإذا أردت أن تقولَ : كيف أصبحَ الأمير ؟ فقل : صبّح اللهُ الأميرَ بالكرامة ، وإن أردتَ أن تقول : كيف يَجِد الأميرُ نفسَه ، فقل : وَهَب اللهُ الأمير العافية ؛ ونحو هذا ، فإنّ المسألة توجِب الجواب ، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك ، وإن أجابَك اشتدّ عليه .

وكان يقال : صُحبةُ الملوكِ بغير أدب كركوب الفلاةِ بغيرِ ماء .

---

(١) النوكى : الحمق

وكان يقال : ينبغى لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به ، أوحشَ ما يكونُ منه .

وكان يقال : شِدّة الأنقباضِ من السلطان تُورِثُ التّهمة ، وسُهولة الأنبساط إليه تُورِثُ المَلالة .

وكان يقال : اصحَب السلطانَ بإعمالِ الحذَر ، ورَفْض الدّالّة ، والاجتهاد فى النّصيحة ، ولْيكُن رأسَ مالِكَ عندَه ثلاث: الرّضا ، والصبر ، والصّدْق .

واعلمْ أنّ لكل شىء حَدّا ، فما جاوَزه كان سَرَفا ، وما قَصّر عنه كان عَجْزا ، فلا تَبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِىَ حاشيتَه خاصّتَه وأهلَه ، فإنّ ذلك ليس من حَقّه عليك ، وليكُن أقضى لحقّه عنك ، وأدعَى لاستمرارِ السّلامة لك ؛ أن تَستصلح أولئك جُهْدَك ، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمتَه ، وأَمِنتَ سطوتَه ، وقلّلت عدوّك عندَه ، وإذا جاريْتَ عند السلطان كُفْؤا من أكفائك فلتكنْ مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة ، وإن عَضَهك [1] ، وبالرّفق وإن خَرِف بك . واحذر أن يستلحّك فتحمَى ، فإنّ الغَضَب يُعمِي عن الفرصة ، ويَقطَع عن الحجّة ، ويُظهِر عليكَ الخصْم ، ولا تتورّدَنّ على السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاكَ ، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك ، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونَك ، فإنّ السلطان يَعرِضُ له ثلاثٌ دونَ ثلاث : القدرة دون الكَرَم ، والحَمِيّة دون النَّصَفة ، واللَّجاج دونَ الحظّ .

---

(١) عضهك : كذبك .

(٢٧٠)

الأصْلُ :

أحْسِنُوا فى عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فى عَقِبِكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

أكثر ما فى هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة ، فقد رأينا عِياناً مَن ظَلم الناس فظُلِم عقِبُه ووَلَدُه ، ورأينا من قَتَلَ الناس قُتِل عَقِبه وولدُهُ ، ورأينا من أخْرَب دُوراً فأُخرِبتْ دارُه ، ورأينا من أحْسَن إلى أعقاب أهل النعم فأحْسَنَ الله إلى عَقِبه وولدِه .

وقرأتُ فى تاريخ أحمد بن طاهر[1] أنّ الرشيد أرسَل إلى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يقرّعه بذنوبه، ويقول له : كيف رأيت! ألَمْ أخَرِّبْ دارك ؟ ألم أقتُل ولدك جعفرا ؟ ألم أنْهَبْ مالك ؟ فقال يحيى للرسول : قُلْ له : أما إخرابُك دارى فستُخرَّب دارُك ، وأما قتلُك ولدِى جعفرا فسيُقْتل ولدُك محمد ، وأما نهبُك مالى فسيُنْهَب مالُك وخزانتُك . فلما عاد الرسولُ إليه بالجواب وَجَمَ طويلاً وحزن ، وقال : والله ليكونَنّ ما قال ، فإنه لم يَقُل لى شيئاً قطّ إلا، وكان كما قال؛ فأُخرِبتْ[2] دارُه -وهى الخلد- فى حِصار بغداد ، وقُتِل ولدُه محمد ، ونُهِب مالُه ، وخِزانته نهبها طاهرُ بنُ الحسين .

---

(١) هو أحمد بن طاهر صاحب تاريخ بغداد

(٢) ا : « خربت »

(٢٧١)

الأصْـلُ :

إنَّ كَلام الْحكماء إذا كانَ صَوَاباً كانَ دَوَاء ، وإذا كان خَطَأً كانَ دَاء .

* * *

الشَّـرْحُ :

كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الْحكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواء وإذا كان خطأً كان داء ، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به ، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنّواهي ، فإذا كان حقّاً أفلحوا ، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ ، وكانوا كالدّواء الْمبرِئ للسّقَم ، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا[١] ولم يُفلِحوا ، فكان بمنزلة الداء والْمرَض .

(١) ا : « خسروا ذلك » .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ حِينَ سألهُ رَجلٌ أنْ يُعرِّفَهُ ما الإيمانُ ، فقال :

إذَا كانَ غدٌ فَأْتِنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ على أسماعِ النَّاس ، فإنْ نَسِيت مقَالتِي حفِظَهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ ، فإنَّ الكَلامَ كالشَّارِدَةِ يَثْقَفُها هَذَا ويُخْطِئُها هَذَا .

قال : وقد ذكرنا ما أجابَه به عليهِ السلامُ فيما تقدَّم من هذا الباب ، وهو قوله : « الإيمانُ على أربع شعب »

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : إذا كان غدٌ فأْتِنِي فتكون « كان » ها هنا تامّة ، أي إذا حدَث ووُجِد ، وتقول : إذا كان غداً فأتني فيكون النصب باعتبارٍ آخر ، أي إذا كان الزمان غداً ، أي موصوفاً بأنه من الغدِ ؛ ومن النحويين من يقدِّره : إذا كان الكونُ غداً ؛ لأنّ الفعل يدلّ على المَصدَر ، والكَوْن هو التجدّد والحدوث .

وقائل هذا القول يُرجِّحه على القول الآخَر ، لأنّ الفاعل عندهم لا يُحذَف إلاّ إذا كان في الكلام دليلٌ عليه .

ويثقفها : يجدها ؛ ثقِفتُ كذا بالكسر ، أي وجدته وصادفته .

والشاردة : الضالّة .

(٢٧٣)

الأَصْـلُ :

يابْنَ آدَمَ ، لا تَحْمِـلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِى لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِى قَدْ أَتاكَ ، فإنَّهُ إنْ يَكُنْ مِنْ عُمُرِكَ يَأْتِ اللهُ فيهِ بِرِزْقِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم هـذا الفصلُ بتمامه . واعلمْ أنَّ كلَّ ما ادَّخرتَه ممّا هو فاضل عن قوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغيرك .

وخلاصةُ هذا الفصل النهىُ عن الحِرْص على الدّنيا والاهتمام لها ، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرِّزقَ لكل حَىٍّ مِن خلقِه ، فلو لم يتكلَّف الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يحتسِب .

وفى المَثل : يارزّاقَ البُغاث[1] فى عُشّه .

وإذا نظر الإنسانُ إلى الدّودة المسجونة داخلَ الصخرة كيف تُرزَق عَلِم أنّ صانع العالم قد تكفّل لكلّ ذى حياةٍ بمادّةٍ تقيم حياته إلى انقضاء عُمُره .

---

(١) البغاث : صغار الطير .

(٢٧٤)

الأصْـلُ :

أحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً ما ،عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ، وَأبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً ما ، عَسَى أنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

الهوْن بالفتح : التأنّى ، والبَغيض . المبغض .

وخلاصةُ هذه الكلمة . النّهىُ عن الإسراف فى المودّة والبِغْضة ؛ فربّما انقلب من تودّ فصار عدوّا ، وربّما انقلب من تُعاديه فصار صديقا .

وقد تقدّم القولُ فى ذلك على أتمّ مايكون .

وقال بعضُ الحكماء : توَقَّ الإفراطَ فى المحبّة ، فإن الإفراطَ فيها داعٍ إلى التّقصير منها ، ولأنْ تكونَ الحالُ بينكَ و بيَن حبيبك نامية أوْلَى من أنْ تكون مُتناهِية .

ومن كلام عمر : لا يكن حبُّك كلَفاً ، ولا بغضُك تلفاً .

وقال الشاعر :

وأحبِبْ إذا أحببْتَ حُبًّا مقارِبًا فإنّك لا تَدْرِى متى أنت نازِعُ !

وأبغضْ إذا أبغضْت غيرَ مُبايِنٍ[1] فإنّك لا تَدْرِى متى أنتَ راجعُ !

وقال عَدِىُّ بنُ زيْد :

ولا تأمَنَنْ من مُبغِضٍ قربَ داره ولا مِنْ محِبٍّ أن يَملَّ فيبعدا

---

(١) مباين : مفارق .

الأصلُ :

النّاسُ فِي الدُّنيَا عامِلَان :

عَامِلٌ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا ، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ .

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدنيا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، فَأَحْرَزَ الحَظَّيْنِ مَعاً ، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً ، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ ؛ لا يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ .

***

الشرحُ :

معنى قوله : « و يأمنهُ على نَفْسِه » ، أى ولا يبالى أن يكون هو فقيرا ، لأنه يعيش عَيشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ ، لـكنّه يدّخر المـال لوَلده فيُفنِى عمرَه فى منفعة غيره .

و يجوز أن يكون معناه إنّه لـكثرةِ مالِهِ قد أَمِن الفقر على نفسه [illegible] :

ولـكنّه لا يأمَن الفقرَ على وَلده لأنّه لا يَثِق من وَلَده بحُسْن الاكتساب كما وَثق من نفسِه ، فلا يزال فى الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولدِه الّذى يخاف عليه الفقرَ بعد موْته .

فأما العاملُ فى الدّنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة ، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كَدّ ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ ، فقد حصَل لهم الحظّان جميعاً .

الأَصْلُ :

وَرُوِيَ أنهُ ذُكِرَ عِندَ عمر بن الخطابِ فى أيامهِ حَلْىُ الكَعبةِ وكثرتُهُ ، فقالَ قومٌ : لوْ أخذتَهُ فَجهَّزْتَ بهِ جيوشَ المسلمينَ ، كانَ أعظمَ للأجرِ، وما تصنعُ الكعبةُ بالحلى ! فهمَّ عُمرُ بذلكَ ، وسألَ عنهُ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ ، فقال : إنَّ هَـذَا القُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وآلهِ ، وَالأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ ، أَمْوَالُ الْمُسلِمِينَ ، فَقَسَّمها بَيْنَ الوَرَثَةِ فى الفَرَائِضِ ، وَالفَىْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا ، وكَانَ حَلْىُ الكَعْبَةِ فِيها يَوْمَئِذٍ ، فتركَهُ اللهُ عَلَى حالِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسيانًا ، وَلَمْ يَخْفَ عنه مَكَانًا ، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمر : لَوْلَاكَ لَافْتَضَحْنَا ، وَتَرَكَ الحَلْىَ بِحَالِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا استدلال صحيح ، ويمكن أن يورد على وجهين :

أحدهما أن يقال : أصلُ الأشياء الحظر والتحريم كما هو مَذهَب كثيرٍ من أصحابنا البغداديّين ؛ فلا يجوز التصرّف فى شىء من الأموال والمنافع إلّا بإذن شرعىّ ؛ ولم يوجد إذن شرعى فى حَلْى الكَعْبة ، فبقينا فيه على حُكْم الأصل .

والوجه الثانى أن يقال : حَلْى الكعبة مال مختصّ بالكعبة ؛ هو جارٍ مجرى ستور الكعبة ، ومجرى باب الكعبة ، فكما لا يجوز التصرّف فى ستور الكعبة وبابها

إلاّ بنصّ فكذلك حلى الكعبة ، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلَّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يكون الاستدلالُ .

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام عليه ، وألاّ يُحمل على ظاهره لأنّ لمعترضٍ أن يعترض استدلاله إذا حمل على ظاهره ، بأن يقول : الأموالُ الأربعة الّتي عدّدها إنما قسمها اللهُ تعالى حيث قسمها لأنّها أموالٌ متكرّرة بتكرُّر الأوقات على مرّ الزمان ، يذهب الموجودُ منها ويخلفه غيرُه ، فكان الاعتناء بها أكثر ، والاهتمام بوجوه متصرّفها أشدّ ، لأنّ حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذوي الاستحقاق كثيرة ومتجدّدة بتجدّد الأوقات ، وليس كذلك حلى الكعبة ، لأنّه مال واحدٌ باقٍ غير متكرّر ، وأيضا فهو شيء قليلٌ يسير ، ليس مثله ممّا يقال : ينبغي أن يكون الشارعُ قد تعرّض لوجوهِ مصرفه حيث تعرّض لوجوهِ مصرف الأموال ، فافترق الموضعان .

(٢٧٧)

الأصْلُ :

رُوِيَ أَنَّهُ رُفِعَ إلَيْهِ رَجُلَانِ سَرَقَا مِنْ مالِ اللهِ ، أَحَدُهُما عَبْدٌ مِنْ مالِ اللهِ ، والآخَرُ مِنْ عُرُضِ النَّاسِ ، فَقالَ : أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مالِ اللهِ فلا حَدَّ عَلَيْهِ ، مالُ اللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الحَدُّ الشَّدِيدُ ، فَقَطَعَ يَدَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مَذهَب الشِّيعة أنّ عبد المَغنَم إذا سَرَق من المَغنَم لم يُقطَع ، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطَع إذا كان ما سَرَقه زائدا عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار النِّصاب الّذى يجب فيه القَطْع ، وهو رُبْع دينار ، وكذلك الحرّ إذا سَرَق من المَغنَم حُكمه هذا الحكم بعَينه ، فوَجَب أن يُحمَل كلامُ أميرِ المؤمنين على أنّ العبدَ المقطوعَ قد كان سَرَق من المَغنَم ما هو أزيَدُ من حقّه من الغنيمة بمقدارِ النِّصاب المذكور أو أكثر .

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسمَتها ، سواء كان ما سَرَقه أكثر من حَقّه أو لم يكن ، لأنّ مُخالَطةَ حقّه ومُمازَجته للمسروق شُبْهة فى الجملة تَمنَع من وجوب القَطْع ، هذا إن كان له حَقٌّ فى الغنيمة بأن يكونَ شَهِد القتالَ بإذنِ سَيِّده ، فإن لم يكن ذلك وكان لسيِّده فيها حقّ لم يُقطَع أيضاً لأنّ حِصّةَ سيِّده المُشاعةَ شُبهة تَمنعُ من قَطعه ، فإن لم يَشهَد القتالَ[1] ولا شَهِدَه سيِّدُه وسَرَق من الغنيمة قبل القِسْمة ما يجب فى مِثلِه القَطْع وَجَب عليه القَطْع .

---

(١) ا : « ولم يشهد سيده »

(٢٧٨)

الأصْلُ :

لَوْ قَدِ اُسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هَذِهِ اَلْمَدَاحِضِ لغَيَّرْتُ أَشْيَاء

***

الشَّرْحُ :

لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب فى الأحكام الشرعيّة والقضايا إلى أشياء يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة ، نحو قطعه السارق من رءوس الأصابع ، وبيعِه أمّهات الأولاد ، وغير ذلك ، وإنّما كان يَمنَعه من تغيُّر أحكامِ مَن تَقدّمه اشتغالُه بحرب البُغاة والخوارج ، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض التى كان يؤمّل استواء قدميه منها ، ولهذا قال لقُضاتِه : « اقضُوا كما كنتم تقضون حتّى يكونَ للنّاس جماعةٌ » ، فَلَفظة « حتّى » هاهنا مؤذِنةٌ بأنّه فَسَح لهم فى اتّباع عادَتِهم فى القضايا والأحكام التى يَعهدونها إلى أن يصيرَ للنّاس جماعة ، وما بعد « إلى » و « حتّى » ينبغى أن يكون مخالفاً لما قبلهما .

فأمّا أصحابُنا فيقولون : إنّه كان فيما يُحاوِل أن يَحكُم بين الناس مجتهِدا ، ويجوز لغيرِه من المجتهدين مخالَفتُه .

والإماميّة تقول : ما كان يَحكُم إلّا عن نَصّ وتوقيف ، ولا يجوز لأحد من الناسِ مخالَفته .

والقول فى صحّة ذلك وفسادِه فَرْعٌ من فروع مسألة الإمامة[1] .

---

(١) د : « الإمامية » .

(٢٧٩)

الأصْـلُ :

اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ، أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِى ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ ما سُمِّيَ لَهُ فى الذِّكْرِ الحَكِيمِ. وَالْعَارِفُ لِهذَا، الْعَامِلُ بِهِ؛ أَعْظَمُ النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ؛ وَالتَّارِكُ لَهُ، الشَّاكُّ فِيهِ، أَعْظَمُ النَّاسِ شُغْلاً فى مَضَرَّةٍ.

ورُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى، ورُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لهُ بالبَلْوَى. فَزِدْ أيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فى شُكْرِكَ، وقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى الحِرْص والجشع وذمّهما وذمّ الكادِح فى طَلَب الرّزق، ومدْح القَناعة والاقتصار، ونذكر هُنا طَرَفا آخر من ذلك. قال بعضُ الحكماء: وجدتُ أطولَ الناس غمّاً الحسود، وأهنأهم عيْشا القَنُوع، وأصبرَهم على الأذى الحريص، وأخفضهم عَيْشا أرفضُهم للدنيا، وأعظمَهم ندامةً العالمُ المفرِّط.

وقال عمر: الطّمع فَقْر، واليأس غِنًى، ومن يئس ممّا عند الناس استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء : ما الغِنَى؟ قال : قلّةُ تمنّيك ، ورِضاكَ بما يكفيك . ولذلك قيل : العيشُ ساعات تمرّ ، وخُطوب تكرّ .

وقال الشاعر :

اقنعْ بعيشك ترضَـــهُ ... واتركْ هواكَ وأنت حرٌّ
فلرُبَّ حتفٍ فـــوقَهُ ... ذَهَبٌ وياقوتٌ ودرٌّ

وقال آخر :

إلى متى أنا فى حِلٍّ وترْحال ... من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ
ونازحِ الدارِ لا أنفكُّ مغترباً ... عن الأحبّةِ لا يدْرون ما حالى
بمَشرِق الأرضِ طوْراً ثم مَغرِبها ... لا يخطرُ الموتُ مِن حِرص على بالى
ولو قنِعتُ أتانى الرزقُ فى دَعَةٍ ... إنّ القنوعَ الغِنَى لا كثرةُ المالِ

وجاء فى الخبر المرفوع : « أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِب له ، ولن يخرُجَ عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيَه ما كُتِب له فى الدنيا وهى راغمة » .

(٢٨٠)

الأصْلُ :

لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً ، ويَقِينَكُمْ شَكّاً ؛ إذَا عَلِمْتُمْ فاعْمَلُوا ، وإذَا تَيَقَّنْتُمْ فأقْدِمُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا[1] نهيٌ للعلماء عن تَرْكِ العمل ؛ يقول : لا تجعلوا عِلمَكم كالجهل ، فإنّ الجاهل قد يقول : جَهِلتُ فلم أعمَل ، وأنتم فلا عُذرَ لكم ، لأنّكم قد علِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر ، فوجَب عليكم أن تعملوا ، ولا تجعلوا عِلمَكم جَهلا ، فإنّ مَن[2] علِم المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأتِه كان سفيها .

(١) ا : « في »

(٢) ا : « الذي »

الأصلُ :

الطَّمَعُ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ ، وضامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ ، ورُبَّما شَرِقَ شارِبُ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ ، وكُلَّما عَظُمَ قَدْرُ الشيء المُتَنافَسِ فيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ ، والأماني تُعْمِي أعْيُنَ الْبَصائِرِ ، والحظّ يأْتِي مَنْ لا يأْتِيهِ

***

الشَّرْحُ :

قد تقدم القول فى هذه المعانى كلِّها .

وقد ضرب الحكماء مِثالاً لفرط الطَّمع ، فقالوا : إنّ رجلا صادَ قُبَّرَةً فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ؛ قالت : والله ما أشفى مِنْ قَرَم ، ولا أُشبِع من جُوعٍ ، ولكنّى أعلِّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك من أَكلى ؛ أمّا واحدة فأعلِّمك إيّاها وأنا فى يَدِك ، وأمّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة ، وأمّا الثالثة فإذا صرتُ على الجبل . فقال : هاتِ الأولى ؛ قالت : لا تَلَهَّفَنّ على ما فات ، فخلّاها ، فلما صارت على الشّجرة قال : هاتِ الثانية ، قالت : لا تُصَدِّقَنّ بما لا يكون أنه يكون ، ثمّ طارت ، فصارت على الجبل ؛ فقالت : يا شَقِيّ لو ذَبحْتَنى لأخرَجْتَ من حَوْصَلَتى دُرّتَين وزنُ كلِّ واحدةٍ ثلاثون مِثقالاً ، فعَضَّ على يدَيه وتلهّف تلهُّفا شديدا ؛ وقال : هاتِ الثالثة ؛ فقالت : أنت قد أُنسِيتَ الاثنتَين ، فما تَصنع بالثالثة ، ألم أقل لك : لا تَلَهَّفَنّ على ما فات

وقد تَلَهَّفْتِ ، وألم أقل لك لا تصدِّقن بما لا يـكون أنه يـكون . وأنا وَلَحمى ودَمِى وريشى لا يـكون عشرين مثقالا ، فـكيف صدّقت أنّ فى حَوْصَلتى درّتين كلّ واحدة منهما ثلاثون مثقالا ! ثم طارت وذهبتْ .

وقوله : وربّما شَرِق شاربُ الماء قبلَ ريِّه » ، كلامٌ فصيح ، وهو مَثَلٌ لمن يُختَرم (١) بَغتةً أو تَطرُقه الحوادثُ والخطوب وهو فى تلهِيَةٍ مِنْ عيشه .

ومثل الكلمة الأخرى قولهم : على قدْر العَطِيّة تـكون الرزِيّة .

والقولُ فى الأمانى قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبـــل ،وكذلك فى الحظوظ .

(١) يخترم بغتة ، أى يأتيه الموت بغتة .

الأصـل :

اللّهُمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ أنْ تُحَسّنَ في لامِعَةِ العُيُونِ عَلانِيَتِي ، وتُقَبِّحَ فيما أبْطِنُ لكَ سَرِيرَتِي ، مُحافِظاً على رِياءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسي بجَميعِ ما أنْتَ مُطّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي ، فأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظاهِرِي ، وأُفْضِيَ إلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تقَرُّباً إلى عِبادِكَ وتَباعُداً مِنْ مَرْضاتِكَ .

***

الشـرح :

قد تقدّم القولُ في الرّياء ، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفِعل الجميل ما يُبطن غيره ، ويقصد بذلك السّمعة والصّيت لا وجه الله تعالى .

وقد جاء في الخبر المرفوع : « أخوَفُ ما أخافُ على أمّتي الرّياء والشّهوة الخفيّة » .

قال المفسّرون : والرّياء من الشّهوة الخفيّة ، لأنه شَهوة الصّيت والجاه بين الناس بأنه مَتِين الدّين ، مُواظِب على نوافِل العِبادات ، وهذه هي الشّهوة الخفيّة ، أي ليست كشهوة الطعام والنّكاح وغيرهما من المَلاذّ الحسيّة .

وفي الخبر المرفوع أيضا : أنّ اليَسير من الرّياء شِرْكٌ[1] ، وأن الله يُحبّ الأتقياء الأخفياء الذّين هم في بُيوتهم إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإذا حضَروا لم يُعرَفوا ، قلوبهم مَصابيحُ الهدى ، ينجون من كلّ غَبراء مُظلِمة .

---

(١) كلمة غامضة في الأصول

(٢٨٣)

الأصل:

وقالَ عليه السلام:

لَا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْـهُ فِي غُبَّرِ لَيْـلَةٍ دَهْمَاء، تَـكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

***

الشرح:

قد رُوِي: «تفترّ عن يوم أغرّ».

والغُبّر: البقايا (١)، وكذلك الإغبار. وكَشَر أي بَسَم، وأصله الكشف.

وهذا الكلام إما أن يكون قالَه على جهة التفاؤل، أو أن يكون إخباراً بغَيْب؛ والأوّل أوجَه (٢).

---

(١) ومنه قول أبي كبير الهذلي:

ومبرّأٍ من كل غبّر حَيْضةٍ وفسادِ مرضعةٍ وداء مُغْيِلِ

قال في اللسان: «وغبر الحيض: بقاياه».

(٢) ا: «والوجه الأول».

(٢٨٤)

الأصل :

قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ ، أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

***

الشرح :

لا ريبَ أنّ من أراد حِفظَ كتاب من الكُتُب العلمية فحَفِظ منه قليلا قليلا ، ودام على ذلك ، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيرا ، ولا يَدُوم عليه لملالِه إيّاه وضَجَره منه ، والتجربة تَشهَد بذلك .

والقول فى غير الحفظ كالقول فى الحفظ ، نحو الزّيارة القليلة للصّديق ، ونحو العطاء اليسير الدائم [1] الّذى هو خيرٌ من الكثير المنقطِع ، ونحو ذلك .

---

(١) بعدها فى ا : « غير المنقطع » .

(٢٨٥)

الأصْلُ :

إذَا أضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى النافلة : هل تصحّ ممّن عليه فريضة لم يؤدّها ، وذكرْنا مذاهبَ الفُقَهاء فى ذلك .

ولا ريبَ أنّ مَن استغرق الوقتَ بالنوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها ، وشغلها بالعبادة النّفليّة ، فقد أخطأ ؛ والواجب أنْ يَرفُض النافلةَ حيث يتضيّق وقتُ الفريضة ، لا خلافَ بين المسلمين فى ذلك ، ويَصلُح أن يكون هذا مَثلا ظاهرُه ماذكرْنا ، وباطنُه أمرٌ آخَر .

الأصـل :

مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ استَعَدَّ .

***

الشـرح :

هـذا مِثل قولهم فى المَثَل :« الليلُ طويل ، وأنتَ مُقمِر» (١) ؛ وقال أيضا : تَشَّ ولا تَغترّ (٢) .

وقال أصحابُ المعانى : مَثَل الدنيا كرَكْبٍ فى فلاة وَرَدوا ماء طيّبا ، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا يسيرا ، ثمّ أفكر فى بُعد المسافة الّتى يَقصِدونها ، وأنّهُ ليس بعد ذلك الماء ماء آخَر ، فتزوّد منه ماء أوصَلَه إلى مَقصِده ، ومنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا عظيما ولَها عن التزوّد والأستعداد ، وظَنّ أنّ ماشَرِب كافٍ له ومُغْنٍ عن ادّخار شىء آخَر ، فقطع به ، وأخْلَفَه ظَنُّه ، فعَطِش فى تلك الفَلاة ومات .

وقد رُوِى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه : «إنّما مَثَلى ومَثَلكم ومَثَل الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبْراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ماسَلَكوا منها أكْثَرُ أَمْ ما بَقِي! أَنفَدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر ، وبقُوا بين ظَهْرَانَى المَفازة لا زاد ولا حَمولة ، فأيقنوا بالهَلَكة ، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل فى حُلّة يَقطُر رأسُه ماء ، فقالوا : هـذا قريب عهدٍ بِريف ، وما جاءكم هذا إلّا من قريب ؛ فلمّا أنتهى إليهم وشاهد حالَهم قال : أرأيتم إن هدَيْتُكم إلى ماء رَواء ، ورِياض خُضْرٍ ماتعملون ؟ قالوا : لا نَعْصِيك شيئاً ؛

(١) الميدانى . . .
(٢) الميدانى . . .

قال : عُهودَكم ومواثيقَكم بالله ، فأعطَوْه ذلك ، فأوردَهم ماءً رَواءً ورِياضاً خُضْراً ، ومَكث بينهم ماشاء الله ، ثم قال : إنّي مُفارِقكم ،قالوا إلى أين؟ قال : إلى ماءٍ ليس كمائِكم، ورِياضٍ ليست كرِياضِكم ؛ فقال الأكثرون منهم : والله ماوَجَدْنا مانحن فيه حتّى ظنَنّا أنا لا نجده ، وما نَصنَع بمنزلٍ خير من هذا ! وقال الأقلّون منهم : ألم تُعطُوا هذا الرجلَ مَواثيقَكم وعهودَكم بالله لا تَعصُونه شيئاً ، وقد صدقكم فى أوّل حديثِه ، والله ليصدُقَنّكم فى آخِره؟ فراحَ فيمَن تَبِعه منهم ، وتخلّف الباقون، فدَهَمهم عدوٌّ شديد البأس عظيم الجَيْش ، فأصبَحوا مابين أسيرٍ وقَتيل » .



(٢٨٧)

الأصْلُ :

لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ مَعَ الإِبْصَارِ ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا ، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [1] .

أي ليس العَمَى عَمَى العين ، بل عَمَى القَلْب .

كذلك قولُ أمير المؤمنين عليه السلام ، ليست الرؤية مع العُيون ، وإنّما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول .

وقد ذهبَ أكابرُ الحكماء إلى أن اليقينيّات هي المَعقولات لا المَحْسوسات ؛ قالوا : لأنّ حُكمَ الحسّ في مَظِنة الغَلط ، وطالَ ما كَذَبَ الحسّ ، واعتقدنا بطريقِه اعتقاداتٍ باطلة ، كما نرى الكبيرَ صغيرا ، والصغيرَ كبيرا ، والمتحرّك ساكنا ، والساكنَ متحرّكا ، فأمّا العقل فإذا كان المعقول به بَديهيّ أو مُستنِدا إلى مقدّمات بَديهيّة فإنّه لا يَقع فيه غَلط أصلا .

---

(١) سورة الحج ٤٦

(٢٨٨)

الأَصْلُ :

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها ، وأنّها بشهَواتها ولذّاتِها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعظة ، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بالعاجلة ، ويتوهّم دَوامَ ماهو فيه ، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه ، هذا إن كان ممّن يَعترِف بالمَعادِ ، فإنّ كثيرا ممّن يُظهِر القول بالمَعاد هو في الحقيقة غيرُ مستيقِنٍ له ، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية ، غرورٌ لا محالةَ ، والحازمُ من عَمِل لما بعدَ الموت ، ولم يُمَنِّ نفسَه الأمانيّ التي لا حَقيقةَ لها .

(٢٨٩)

الأصل :

جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ .

***

الشرح :

هذا قريب مما سلف : يقول : إنّ الجاهل من الناس مُزداد من جهله ، مُصرٌّ على خطيئته ، مسوِّف من توهّماته وعقيدته الباطلة بالعفو عن ذنبه ، وليس الأمر كما توهمه . ﴿ ليسَ بأمانيّكُمْ ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ مَن يَعمَلْ سوءاً يُجْزَ به ولا يَجِدْ له من دُون الله وليّا ولا نصيرا ﴾ .

(٢٩٠)

الأصْلُ :

قَطَعَ الْعِلْمُ عذرَ الْمُتَعَلِّلِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هـذا أيضاً قريبٌ ممّا تقدم ، يقول : قَطَعَ العِلْم عُذرَ الَّذِين يُعلِّلون أنفسهم بالباطل ، و يقولون : إنّ الربَّ كريم رحيم ، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفسنا بالعبادة ، كما قال الشاعر :

قَدِمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال ذا ذنبٍ عظيمِ
وسُوء الظنّ أن تَعتَدّ زاداً ... إذا كانَ القدومُ على الكريم

وهـذا هو التعليل بالباطل ، فإن الله تعالى و إن كان كريما رحيما عفوًّا غفورا ، إلاّ أنه صادقُ القول ، وقد توعّد العُصاةَ وقال : ﴿ و إنّ الفُجّار لفي جحيم * يصلونها يومَ الدِّين * وماهُمْ عنها بغائبينَ ﴾[1] وقال : ﴿ لا تختصموا لدَيَّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيدِ ما يُبدَّلُ القولُ لدىّ وما أنا بظلّام للعبيدِ ﴾[2] ، و يكفى فى رحمته وعفوه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُه أكثر ممّا يستحقّه من العقاب ، فالقول بالوعيد معلوم بأدلّة السّمع المتظاهِرة المتناصِرة التى قد أطنب أصحابُنا فى تَعدادها و إيضاحِها ، و إذا كان الشىء معلوما فقد قَطَع العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتمنّى ، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض مايُخالِفه .

---

(١) سورة الأنفطار ١٤ ـ ١٦ (٢) سورة ق ٢٨ ، ٢٩

الأصْلُ :

كُلُّ مُعاجَلٍ يَسْأَلُ الْإِنْظَارَ ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .

***

الشَّرْحُ :

قال الله سبحانه : ﴿ حتّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربّ ارجعون لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ كلّا إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون[1] ﴾ .

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل ، فأمّا من أُجِّل فإنّه يعلّل نفسه بالتسويف ، ويقول : سوفَ أتوبُ ، سوف أقلِع عمّا أنا عليه ، فأكثرُهم يُخترَم[2] من غير أن يَبلُغ هذا الأمل ، وتأتيه المنيّة وهو على أقبح حال وأسوئها ، ومنهم من تشمله السّعادة فيتوب قبل الموت ، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير ، وهم في العالَم كالشّعرة البيضاء في الثّور الأسوَد .

---

(١) سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) يقال : اخترمته المنية ؛ أي أخذته من بينهم .

(٢٩٢)

الأصل:

ما قالَ النّاسُ لِشَيْءٍ: طُوبَى لهُ! إلّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوءٍ.

***

الشرح:

قد تقدّم هذا المعنى، وذكَرْنا فيه نُكتاً جيّدة حميدة.

***

[نبذ من الأقوال الحكميّة في تقلبات الدهر وتصرّفاته]

كان محمّد بنُ عبد الله بنِ طاهر أميرَ بغداد في قَصْره على دِجْلة يوماً، وإذا بحشيشٍ على وَجْه الماء، في وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة، فأمر بأخْذِها، فإذا فيها:

تاهَ الأُعَيْرِجُ واستولَى به البَطَرُ ... فقل له: خيرُ ما استعملتَه الحَذَرُ
أحسنتَ ظَنَّكَ بالأيّام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللّيالي فاغْتَرَرْتَ بها ... وعند صفوِ اللّيالي يَحدُثُ الكَدَرُ

فما انتفع بنفسه مدّة.

وفي المَثَل: الدّهر إذا أتى بسَحْوَاءَ سَحْسَح[1]، يُعقِبها بنَكْباء زَعْزَع، وكذاك شربُ العَيْش فيه تلوُّن، بَيْناه عَذْبا إذْ تحوّل آجِنا.

---

(١) أي سحابة تصب مطراً شديداً.

يحيى بنُ خالد : أعطانا الدهر فأسرَف، ثمّ مال علينا فأجْحَف .

وقال الشاعر :

فيا لَنعيمٍ ساعدَتْنــــــا رقابُه وخاسَتْ بنا أكفالُه والرّوادِفُ

إسحٰق بنُ إبراهيمَ المَوْصِلِيّ :

هيَ المقــادِيرُ تجرِي في أعِنّتِها فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ

يوماً تَرِيشُ خَسيسَ الحالِ ترفَعه إلى السّماء ويوماً تخفِض العالِي

إذا أدبَرَ الأمر أتَى الشرُّ من حيث كان يأتي الخير .

هانئُ بنُ مسعود :

إنّ كِسرَى أبَى على المَلِك النُّعْـ ـمانِ حتّى سقاهُ أمّ الرّقوبِ

كلُّ مُلْكٍ وإن تصعَّدَ يوما بأُناسٍ يعــودُ للتصويبِ

أُحَيْحَة بنُ الجَلاح :

وما يَدرِي الفقيرُ متَى غِناهُ وما يَدرِي الغنيُّ متَى يَعِيلُ

وما تَدْرِي إذا أضرَبْتَ شَوْلًا أتُلقِـح بعد ذلك أم تحِيلُ[(١)]

وما تَدرِي إذا أزمَعْت سَيْرًا بأيِّ الأرض يُدْرِكُك المَقِيلُ

آخَر :

فما درّ الدنيـــا بباقٍ لأهلِه ولا شِرّة الدنيا بضَربةِ لازمِ

آخَر :

رُبّ قومٍ غَبَرُوا من عيشِهمْ في سرورٍ ونعيمٍ وغَـــدَقْ

---

(١) الشول : الناقة التي نقصت ألبانها .

سَكَتَ الدهرُ زماناً عنهمُ   ثم أبكاهمْ دماً حين نَطَقْ

ومن الشعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدة :

يانَفْس قد حَقَّ الحذَرْ   أين الفِرارُ من القَدَرْ

كلَّ امرىء مما يخا   ف ويرتجيه على خَطَرْ

من يرتَشِفْ صفوَ الزّما   ن يَغَصَّ يوماً بالكَدَرْ



الأصْـلُ :

وقالَ عليـهِ السَّلامُ وقد سُئِلَ عنِ القَدَرِ : طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلَا تَسْلُـكوه ثم سئلَ ثانياً فقال : بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجُوهُ ؛ ثم سئل ثالثاً فقالَ : سِرُّ اللهِ فلا تَتَـكَلَّفُوهُ .

الشَّـرْحُ :

قد جاء فى الخبر المرفوع : القَدَرُ سِرُّ اللهِ فى الأرض ، ورُوِى : سر الله فى عباده ، والمرادُ نهىُ المستضعفين عن الخوْض فى إرادة الـكائنات ، وفى خلق أعمال العباد ، فإنه ربَّما أفضى بهم القول بالجبر ، لما فى ذلك من الغموض ، وذلك أنّ العامىّ إذا سمع قولَ القائل : كيف يجوز أن يقع فى عالمِه مايكرَهه ، وكيف يجوز أن تغلب إرادة المخلوق إرادةَ الخالق ؟

ويقول أيضاً : إذا علِم فى القدم أنّ زيداً يكفر ، فكيف لزيدٍ أن لا يكفُر وهل يُمكن أن يقع خلافُ ماعلِمه الله تعالى فى القِدَم ، اشتبه عليه الأمر ، وصار شُبهةً فى نفسِه ، وقوِىَ فى ظنّه مذهبُ المجبِّرة ، فنهى عليه السلام هؤلاء عن الخوْض فى هـذا النّحو من البَحْث ، ولم ينْه غيرَهم من ذوى العقول الـكاملة ، والرياضة القويّة ، والملـكة التامّة ، ومن له قدرةٌ على حَلِّ الشُّبَه ، والتقصّى عن المشكلاتِ .

فإن قلت : فإنّـكم : تقولون : إنّ العامىّ والمستضعَف يجب عليهما النظرُ .

قلت : نعمْ إلا أنه لا بد لهما من موقف بعد إعمالها ما ينتهى إليه جُهْدُهما من النظر ، بحيث يُرشِدُهما إلى الصَّواب ، والنّهى إنّما هو لمن يَستبدّ من ضعفاء العامّة بنفسه فى النّظر ، ولا يَبحث مع غيرِه ليُرشِدَه .

الأصل :

إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم .

***

الشرح :

أرذله : جعله رذلا ، وكان يقال : من علامة بغض الله تعالى للعبد أن يبغض إليه العلم .

وقال الشاعر :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وقال لأن حفظ العلم فضل وفضل الله لا يؤتيه عاصى

وقال رجل لحكيم : ما خير الأشياء لى ؟ قال : أن تكون عالما ، قال : فإن لم أكن ؟ قال : أن تكون مثريا ؛ قال : فإن لم أكن : قال : أن تكون شاريا ؛ قال : فإن لم أكن ؟ قال : فأن تكون ميتا .

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين فقال :

إذا فاتك العلم جد بالورى وإن فاتك المال سد بالقراع
فإن فات هذا وهذا وذاك فمت لحياتك شر المتاع

وقال أيضا فى المعنى بعينه :

ولولا الحجا والقرا والقراع لما فضل الآخر الأولا
ثلاث متى يخل منها الفتى يكن كالبهيمة أو أرذلا

الأصل :

وقال عليه السلام :

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي ٱللهِ ، وَكَانَ يُعَظِّمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ ، فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً ، فَإِنْ قَالَ بَذَّ ٱلْقَائِلِينَ ، وَنَقَعَ غَلِيلَ ٱلسَّائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً ، فَإِنْ جَاءَ ٱلْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ عَادٍ ، وَصِلُّ وَادٍ ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً ، كَانَ لَا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ ٱلْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ ٱعْتِذَارَهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ ، وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ ، وَكَانَ إِنْ غُلِبَ عَلَى ٱلْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى ٱلسُّكُوتِ ، وَكَانَ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى ٱلْهَوَى فَخَالَفَهُ ، فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ ٱلْخَلَائِقِ فَٱلْزَمُوهَا ، وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَٱعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ ٱلْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ ٱلْكَثِيرِ .

* * *

الشرح :

قد اختلف الناسُ فى المعنىّ بهذا الكلام ، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه ؟ فقال قوم : هو رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، واستبْعَده قومٌ لقوله : « وكان ضعيفا مستضعفا » ، فإن النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يقال فى صفاته مثل هذه الكلمة ،

وإن أمكن تأويلُها على لين كلامه وسماحةِ أخلاقه ، إلّا أنّها غيرُ لائقة به عليه السلام .

وقال قومٌ : هو أبو ذَرٍّ الغِفارِيّ واستبعَدَه قومٌ لقوله : فإن جاء الجدّ فهو لَيث عادٍ ، وصِلٌ واد ، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة ، والمعروفين بالبَسالة

وقال قومٌ : هو المقدادُ بن عَمْرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد ، وكان من شِيعة عليّ عليه السلام المخلِصين ، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريقة ، وقد ورد في فضلِه حديث صحيحٌ مرفوع .

وقال قومٌ : إنه ليس بإشارةٍ إلى أخٍ مُعيّن ، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل ، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك ، مثل قولهم في الشّعر : فقلت لصاحبي ، و ياصاحبي ، وهذا عندي أقوَى الوجوه .

***

[نبذ من الأقوال الحكميّة في حمد القناعة وقلّة الأكل]

وقد مضى القولُ في صِغر الدنيا في عَيْن أهل التّحقيق ، فأمّا سلطان البَطْن وَمَدْح الإنسان بأنه لا يكثِر من الأكل إذا وَجَد أكلا ، ولا يَشتهي من الأكل مالا يجده ، فقد قال الناسُ فيه فأكثروا .

قال أعشى باهلة يرثي المنتشرَ بنَ وَهْب :

طاوِي المَصيرِ على العَزّاء مُنصلِتٌ ... بالقوم ليلةَ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[1]

تكفيه فلذةُ لَحْمٍ إنْ ألمّ بها ... من الشِّواء ويُروِي شربَه الغمرُ

ولا يُبارِي لِما في القِدْر يَرْقُبُهُ ... ولا تَرَاه أمامَ القوم يفتقِرُ

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ . المصير : واحد المصران . والعزاء : الأمر الشديد .

لا يَغمِزُ الساقَ مِن أيْنٍ ولا وَصَبٍ ولا يَعَضّ على شُرْسُوفهِ الصَّفَـرُ

وقال الشَّنْفَرَى :

وأطوِي على الخُمصِ الحوَايا كما انطَوَتْ خيوطة ماريّ تُغار وتُفتَـلُ (١)

وإن مدّت الأيدِي إلى الزاد لم أكن بأعجلِهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

وما ذاكَ إلّا بَسْطة عن تفضّلٍ عليهمْ وكان الأفضلُ المتفضّلُ

وقال بعضهم لابنه : يا بُنيّ عوِّدْ نفسك الأثَرَة ، ومجاهَدةَ الهوى والشهوة ، ولا تَنهَش نَهْشَ السِّباع ، ولا تَقضِم قَضْمَ البَراذين ، ولا تُدْمِن الأكلَ إدمانَ النِّعاج ، ولا تلقَمْ لَقْمَ الجمال ، إنّ الله جعلك إنسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سَبُعا ، واحذَرْ سُرعة الكِظّة ، وداء البِطْنة ، فقد قال الحكيم : إذا كنت بطِناً فعُدّ نفسك من الزَّمْنى (٢)

وقال الأعشى :

* والبِطْنَةُ يوما تُسفِّه الأحلاما *

واعلم أن الشِّبَع داعيةُ البَشَم ، والبَشَمَ داعيةُ السَّقَم ، والسَّقَم داعيةُ الموت ، ومن ماتَ هذه الميتةَ فقد مات موتةً لئيمة ، وهو مع هذا قاتِلُ نفسه ، وقاتلُ نفسِه ألْوَم من قاتِلِ غيره ، يا بُنيّ ، والله ما أدّى حقّ السجود والرّكوع ذو كِظّة ، ولا خشع لله ذو بِطْنة ، والصومُ مصحّة ، ولرُبّما طالت أعمارُ الهِنْد ، وصحّت أبدانُ العرَب ، ولله دَرّ الحارثِ بن كَلَدة حيث زَعَم أن الدَّواء هو الأزْم ، وأنّ الدّاء إدخالُ الطعام في أثَر الطعام ، يا بُنيّ لِمَ صَفَتْ أذهانُ الأعرابِ ، وصَحّت أذهان الرُّهبان مع طُول الإقامة في الصوامع ، حتّى لم تَعرِف وجعَ المفاصل ، ولا الأورام ، إلّا لقلّة الرُّزء ، ووقاحة الأكل ، وكيف لا ترغب في تدبيرٍ يَجمع لك بين صحّة البدن وذَكاء الذّهن وصلاحِ المَعاد

---

(١) لامية العرب ٢٧ (٢) الزمني : المرضى عن كبر وهرم .

والقرب وعَيْش الملائكة . يا بُنَيّ لم صار الضَّبّ أطول شيء ذَماء ، إلّا لأنه يتبلّغ بالنّسيم ، ولِمَ زَعَم الرسولُ صلّى الله عليه وآله أنّ الصومَ وِجاء ، إلّا ليجعله حجابا دونَ الشّهوات ! فافهمْ تأديبَ الله ورسولِه ، فإنهما لا يَقْصدان إلّا مِثلَك ، يا بُنَيّ ، إنى قد بلغتُ تسعين عاما ما نَقَص لى سِنّ ، ولا انتشَر لى عَصَب ، ولا عرفتُ دنينَ أنف ، ولا سَيَلان عَيْن ، ولا تقطير بَوْل ، ما لذلك علة إلّا التّخفيف من الزاد ، فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنتَ تريدُ الموت فلا يُبعِد الله إلا من ظَلَم .

وكان يقال : البِطْنة تذهِب الفِطْنة .

وقال عمرو بنُ العاص لأصحابه يومَ حكم الحكمَين : أكثِروا لأبي موسى من الطّعام الطّيب فوالله ما بَطِنَ قومٌ قطّ إلّا فقدوا عقولهم أو بعضها ، وما مضى عزمُ رجلٍ باتَ بَطِينا .

وكان يقال : أقِلّ طعاما تحمد مناما .

ودعا عبدُ الملك بنُ مروانَ رجلا إلى الغَدَاء فقال : ما فىّ فضْل ؛ فقال : إنى أحبّ الرجلَ يأكل حتى لا يكون فيه فضل ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، عندى مُسْتزاد ، ولكنّى أكرَه أن أصير إلى الحال التى استقبحها أميرُ المؤمنين .

وكان يقال : مسكينٌ ابن آدم ، أسيرُ الجوع ، صَريع الشِّبَع .

وسأل عبْد الملك أبا الزُّعَيْزعة ؛ فقال : هل أتخمتَ قطّ ؟ قال : لا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنّا إذا طَبَخْنا أنضجْنا ، وإذا مضَغْنا دقّقنا ، ولا نُكظّ المَعدة ولا نُخليها .

وكان يقال : من المرُوءة أن يَترُك الإنسانُ الطعامَ وهو بعدُ يشتهيه .

وقال الشاعر :

فإنّ قِرابَ البَطْنِ يكفيك مَلْؤهُ ... ويكفيكَ سَوْآتِ الأمور اجتنابُها

وقال عبد الرحمن ابن أخى الأصمعىّ : كان عمّى يقول لى : لا تخرُج يا بُنَىّ من منزِلك

حتّى تأخذَ حِلمَك ، يعني تتغذّى ، فإذا أخذتَ حِلمَك فلا تزددْ إليه حِلماً ، فإنّ الكثرة تئول إلى قِلّة ؛ وفي الحديث المرفوع : ماملأ ابنُ آدم وعاءً شرّاً من بَطْن ، بحَسْب الرَّجُل من طَعمه ما أقامَ صُلْبه ، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلُث طعام ، وثلثٌ شراب ، وثلث نَفَس .

ورَوَى حُذَيفة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : من قَلَّ طعمُه ، صَحَّ بطنُه ، وصفا قَلبُه ، ومَن كَثُر طعمُه ، سَقُم بَطْنه وقسا قلبُه ؛ وعنه صلّى الله عليه وآله : لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطّعام والشّراب ، فإنّ القلبَ يموت بهما ، كالزّرع يموت إذا أكثِر عليه الماء . ورَوَى عَوْن بنُ أبي جُحَيفة عن أبيه قال : أكلتُ يوما ثَريداً ولحماً سَميناً ، ثمّ أتيتُ رسولَ الله وأنا أتجشّأ ، فقال : احبِسْ جُشاءَك أبا جُحَيفة ، إن أكثرَكم شِبَعاً في الدّنيا أكثرُكم جُوعاً في الآخرة ، قال : فما أكل أبو جُحَيفة بعدها ملءَ بطنِه إلى أن قَبَضه الله ، وأكل عليٌّ عليه السلام قليلا من تَمْر دَقَل[1] وشَرِب عليه ماء ، وأمَرّ يدَه على بطنه وقال : من أدخلَه بطنُه النارَ فأبعده اللهُ ، ثم تمثّل :

فإنّك مَهما تُعطِ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجَك نالا مُنتهى الذمّ أجمعا

وكان عليه السلام يُفطِر في رمضانَ الّذي قُتِل فيه عند الحَسَنِ ليلةً ، وعند الحُسَين ليلةً ، وعند عبد الله بنِ جعفر ليلة ، لا يَزيد على اللُّقْمَتين أو الثلاث ، فيقال له : فيقول : إنّما هي ليالٍ قلائل ، حتّى يأتيَ أمرُ الله وأنا خَميصُ البَطْن ، فضَرَبه ابنُ مُلجَم لعنه الله تلك الليلة .

وقال الحسن : لقد أدركتُ أقواماً ماياًكل أحدُهم إلّا في ناحيةِ بطنِه ، ماشَبِع رجلٌ منهم طعاماً حتّى فارَقَ الدنيا ، كان يأكل ، فإذا قارَبَ الشّبَع أمسك وأنشد المبرِّد :

فإنّ امتلاء البطن فى حسب الفتى　　قليلُ الغناء وهو فى الجسم صالحُ

وقال عيسى عليه السلامُ : يابنى إسرائيل ، لاتُكثِروا الأكل ، فإنّه من أكثر من الأكل أكثر من النّوم ، ومن أكثَر النوم أقلّ الصّلاة ، ومن أقلّ الصلاة كُتِب من الغافلين ؛ وقيل ليوسفَ عليه السلام : مالَكَ لا تَشبَع وفى يَديْك خزائنُ مِصرَ ؟ قال إنّى إذا شبِعتُ نسيتُ الجائعين .

وقال الشاعر :

وأكلةٍ أوقعتْ فى الهُلْك صاحِبَها　　كحَبّة القمح دقّت عُنقَ عُصفورِ

لَكِسْرةٌ بجَريش المِلح آكُلُها　　ألذُّ مِن تمرةٍ تُحشى بِزُنبور

ووُصِف لسابورَ ذى الأكتاف رجلٌ من اصطَخْرَ للقضاء ، فاستقدمه ، فدعاه إلى الطّعام فأخذ المَلِكُ دجاجةً من بين يديه فنصّفَها ، وجعل نِصفَها بين يدىْ ذلك الرجل فأتى عليه قبل أن يَفرُغ المَلِكُ من أكْل النّصف الآخَر ، فصرَفه إلى بلده ، وقال : إنّ سَلَفنا كانوا يقولون : مَنْ شَرِه إلى طعام المَلِكِ كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه .

قيل لسُمَيْرة بن حبيب : إنّ أبنَك أكل طعاما فأتخم ، وكاد يموت ، فقال : واللهِ لو مات منه ماصَلّيت عليه . أنَس يرفَعه : إنّ من السَّرَف أن تأكل كلّ ما اشتهيْت .

دخل عمرُ على عاصم ابنِه وهو يأكل لَحْما ، فقال : ماهذا ؟ قال : قَرِمْنا إليه ؟ قال أوَكلّما قَرِمْت إلى اللّحم أكلْته ، كَفَى بالمرءِ شَرَهاً أن يَأكلَ كُلّ ما يَشتهِى .

أبو سعيد يَرفَعه : استعيذُوا بالله من الرُّغب ؛ قالوا : هو الشَّرَه ، ويقال : الرُّغب شُؤم . أنَس يرفَعه : أصلُ كلّ داء البردة ، قالوا هى التُّخَمَة ؛ وقال أبو دُرَيد : العرَب تعيّر بكَثْرة الأكل ، وأنشد :

لستُ بأكّالٍ كأكْل العَبْدِ　　ولا بِنَوّامٍ كنَوْم الفَهْدِ

وقال الشاعر :

إذا لم أزُرْ إلا لآكُلَ أكْلةً ... فلا رفعتْ كَفّي إليَّ طعامي

فما أكلةٌ إن نِلتُها بغنيمةٍ ... ولا جَوْعة إن جُعْتُها بغَرامِ

ابنُ عباس ، كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يبيت طاوياً ليالي ماله ولأهله عَشاء ، وكان عامّةَ طعامِهِ الشّعيرُ ؛ وقالت عائشة : والذي بعثَ محمدا بالحق ما كان لنا مُنخُل ، ولا أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله خُبزا مَنْخُولا منذ بعثه الله إلى أن قُبِض : قالوا : فكيف كنتم تأكلون دقيق الشعير ؟ قالت : كنّا نقول : أُفّ أُفّ .

أنس ، ما أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله رغيفاً مُحوّرا إلى أن لَقِي ربَّه عزّ وجلّ .

أبو هريرة : ما شَبِع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأهله ثلاثةَ أيام مُتوالية من خُبْز حِنْطة حتى فارَق الدنيا .

وروَى مَسْروق قال : دخلتُ على عائشة وهي تبكي ؛ فقلتُ : ما يبكيك ؟ قالت : ما أشاء أن أبكي إلاّ بكَيتُ ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله ولم يَشبَع من خُبز البُرّ في يوم مرّتين ، ثمّ انهارتْ علينا الدنيا .

حاتم الطائيّ :

وإنّي لأستحيي صِحابيَ أن يَرَوْا ... مكانَ يَدِي من جانِب الزاد أقرَعا[1]

أقصِّر كفّي أن تَنال أكفَّهمْ ... إذا نحنُ أهوَيْنا وحاجاتُنا معَا

أبيتُ خَميصَ البطنِ مضطمِرَ الحشَا ... حياء أخافُ الضَّيمَ أن أتضلّما

---

(١) ديوانه ١١٥

فإنك إن أعطيتَ نفسك سُؤلها وفرجك نالا مُنتهى الذمّ أجمعا

فأما قوله عليه السلام : « كان لا يَتَشهَّى ، ما لا يَجد » فإنّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ ما لا يَجِد ؛ وقالوا : إنّه دليلٌ على سُقوط المُروءة .

وقال الأحنف : جنّبوا مجالسنا ذِكرَ تشهّي الأطعِمة وحديث النكاح .

وقال الجاحظ : جلَسْنا في دارٍ فجعلْنا نتشهّى الأطعمة ؛ فقال واحد : وأنا أشتهي سِكْبَاجاً[1] كثيرة الزعفران .

وقال آخَر : أنا أشتهي طَبَاهجة ناشفة ، وقال آخر : أنا أشتهي هَرِيسة كثيرة الدّارصيني وإلى جانبنا امرأةٌ بيننا وبينها بئر الدار ، فضربَتِ الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطُوني مِلءَ هذه الغضَارة من طبيخكم ، فقال ثمامة : جارتُنا تَشَمّ رائحة الأماني .

(٢٩٦)

الأصْلُ :

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ سُبْحَانَهُ على مَعْصِيَتِهِ، لَكَانَ يَجِبُ أَلّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قالت المعتزِلة : إنّا لو قدّرنا أنّ الوَعِيد السَّمعىّ لم يرد لما أخلّ ذلك بكون الواجب واجباً فى العقل ، نحو العدل والصّدق ، والعلم ، وردّ الوديعة ، هـذا فى جانب الإثبات ، وأما فى جانب السَّلْب فيَجِب فى العَقل أن لا يَظلِم ، وألّا يَكذِب ، وألّا يجهَل ، وألّا يَخُون الأمانة ، ثمّ اختلَفُوا فيما بينهم ، فقالت معتزِلة بغدادَ : ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعَقل ، لأنّ الواجباتِ إنّما تَجِب على المكلَّف ، لأنّ أداءها كالشُّكر لله تعالى ، وشكر المُنعِمِ واجب ، لأنه شكر منعِم ، فلم يَبقَ وجهٌ يَقتضِى وجوبَ الثّواب على الله سبحانه ؛ وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام .

وقال البَصْرِيّون : بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عَقْلا ، كما يجب عليه العِوَض عن إيلامِ الحىّ ؛ لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مَضَرّة ، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مَضَرّة ، والإلزام كالإنْزال .

الأصل :

وقالَ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له :

يا أشْعَثُ ، إنْ تحزَنْ على ابنِكَ فقَدِ استحقَّتْ ذَلِكَ مِنكَ الرَّحِمُ ، وإنْ تَصْبِرْ فَفي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصيبَةٍ خَلَفٌ .

يا أشْعَثُ إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وأنْتَ مَأجُورٌ ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وأنْتَ مَأزُورٌ .

يا أشْعَثُ ، ابنُكَ سَرَّكَ ، وَهُوَ بَلاءٌ وفِتنَةٌ ، وحَزَنَكَ ، وهُوَ ثَوَابٌ ورَحْمَةٌ .

***

الشرح :

قد رُوِي هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة وروايات متنوِّعة ، هذا الوجهُ أحدُها ، وأخذَ أبو العتاهية ألفاظَه عليه السلام فقال لمن يعزِّيه عن وَلَد :

ولا بدَّ مِن جَرَيانِ القَضاءِ إمّا مُثابًا وإما أثِماً

ومن كلامهم فى التعازى : إذا استأثَرَ اللهُ بشىء فالْهُ عنه ، وتُنسَب هذه الكلمة إلى عُمَرَ بن عبد العزيز .

وذكر أبو العبّاس فى الكامل أنَّ عُقْبة بنَ عِياض بن تميم أحد بنى عامر بن لؤىّ أستُشهِد ، فعزّى أباه مُعَزٍّ فقال : احتَسِبْه ولا تجزَع عليه فقد ماتَ شهيداً ؛ فقال عِياض : أتُرانى كنتُ أُسَرُّ به وهو مِن زينةِ الحياة الدنيا ، وأُساء به وهو من الباقياتِ الصالحات؟

وهذا الكلام مأخوذٌ من كلامِ أميرِ المؤمنين عليه السلام .

ومن التّعازِى الجيِّدةِ قولُ القائل :

ومن لم يَزَلْ غَرَضا للمَنُو ... نِ يَتْرُكه كلّ يومٍ عَميدَا[1]
فإنْ هُنّ أخطأنَه مرّةً ... فيوشِك مُخطِئها أن يَعودا
فبَيْنَا يَحيـــد وأخطأنَه ... قصـــدنَ فأعجلنه أن يَحيدا

وقال آخر :

هو الدّهر قد جرّبتُه وعرفتُه ... فصبرا على مكروهه وتجلّدَا
وما الناسُ إلّا سابقٌ ثم لاحِقٌ ... وفائتُ موتٍ سوف يَلحقُه غدا

وقال آخَر :

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ الليالى ... فالذى أخّرت سريعُ اللّحاق
غَدَراتُ الأيّام منــتزِعاتٌ ... عُنقَينا من أنسِ هذا العِناقِ[2]

ابنُ نُباتةَ السّعدىّ :

نُعلِّل بالدَّواء إذا مَرِضْنا ... وهل يَشفى من الموتِ الدَّوَاء !
ونَختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يؤخِّر ما يقدِّمـــــه القَضاء !
وما أنفاسُنا إلاّ حسابٌ ... وما حرَكَاتُنا إلّا فَنَاء

البُحتُرِىّ :

إنّ الرزيّةَ فى الفقيد فإن هَفَا ... جزعٌ بلبِّك فالرّزيّة فِيكَا[3]
وَمتَى وجدْتَ النّاس إلا تاركًا ... لحميه فى التُّرْب أو متروكا
لو يَنجلى لك ذخرها من نكبةٍ ... جلَلٍ لأضحكك الذى يُبكيكا

---

(١) رجل عميد : هده العشق .

(٢) حاشية ب : قوله : « عنقينا » التثنية باعتبار التقدم والتأخر .

(٣) ديوانه ٢ : ١٥٣ ، من رثائه لمحمد بن وهب .

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه : كيف شُكرُك لله تعالى على ما أخَذ من وديعته ، وعوّض من مَثُوبته .

وعزّى عمر بنُ الخطاب أبا بكرٍ عن طفلٍ ، فقال: عوّضك اللهُ منه ما عوّضه منك ؛ فإنّ الطفل يعوّض من أبويْه الجنّة .

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ عزّى مصابا كان له مِثل أجْرِه » .

وقال عليه السلام : من كُنوز البِرّ كتمانُ المصائب ، وكِتمانُ الأمراض وكتمانُ الصَّدقة .

وقال شاعرٌ فى رِثاء ولدِه :

وسمّيْتُه يَحْيَى ليحْيا ولم يكنْ ... إلى رَدِّ أمرِ الله فيه سبيلُ
تخيّرتُ فيه الفألَ حين رُزِقتُه ... ولم أدرِ أنّ الفألَ فيه يَفِيلُ

وقال آخر :

وهوّنَ وَجْدى بعد فقدِك أننى ... إذا شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحِبُهْ

آخر :

وقد كنتُ أرجو لو تمليّت عِيشةً ... عليكَ الليالى مرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ فى قبْضة الرّدَى ... فقُلْ لليالى فلتصِبْ مَن بدَا لها

أخَذه المتنبي فقال :

قد كنتُ أُشفِق من دَمْعى على بَصَرى ... فاليوم كلُّ عزيز بعدكم هانا[1]

ومِثلُه لغيره :

فراقُك كنتُ أخشى فافترقْنا ... فمن فارقتُ بعدَك لا أبالِى

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٢

(٢٩٨)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلام عِنْدَ وقُوفِهِ على قَبْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ ساعةَ دُفِنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وآله :

إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلاَّ عَنْكَ ، وإنَّ الجَزَعَ لَقَبِيحٌ إلاَّ عَلَيْكَ ، وإنَّ المُصابَ بك لَجَلِيلٌ ، وإنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ .

***

الشرح :

قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراء ؛ فقال بعضهم :

أمسَتْ بِجَفْنِى للدُّموع كُلُومُ حَزَناً عليكَ وفى الخدود رُسومُ[1]

والصبرُ يُحْمَد فى المَواطِن كلِّها إلّا عليكَ فإنّه مذمومُ

وقال أبو تمّام :

وقد كان يُدْعى لابسُ الصّبرِ حازماً فقد صارَ يُدْعَى حازِماً حين يَجْزَعُ[2]

وقال أبو الطيّب :

أجِدُ الجفاءَ على سِواكَ مُروءةً والصّبرَ إلاّ فى نَواكَ جميلاَ[3]

وقال أبو تمّام أيضاً :

الصبرُ أجمَلُ غيرَ أنّ تلذّذاً فى الحبِّ أولَى أن يكونَ جميلا[4]

---

(١) الكامل : ٢ : ٤١ ، ونسبهما إلى محمد بن عبد الله العتبي

(٢) ديوانه ٣٣٣ (بشرح الخياط) ، التبيان ١ : ٢٤٦

(٣) ديوانه ٣ : ٢٣٣ (٤) ديوانه ٢٤٢ (بشرح الخياط) .

وقالت خنساء أخت عمرو بن الشَّريد :

ألا يا صَخْرُ إنْ أبكَيتَ عَيْنِى ... لقد أضحكْتَنِى دهراً طويلاَ

بكيتُكَ فى نساء مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ من أبْدَى العَويلاَ

دفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حَىٌّ ... فمن ذا يَدْفَعِ الخطْبَ الجليلا !

إذا قبُح البكاء على قَتيلٍ ... رأيتُ بكاءَكَ الحسَنَ الجيلا[1]

ومثلُ قوله عليه السلام : « وإنه بعدك لقليل » ، يعنى المصاب ، أى لا مُبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك ، قولُ بعضهم :

قد قلتُ للموتِ حين نازلَهُ ... والموتُ مِقدامـةٌ على البُهَمِ

اذهَبْ بمن شئتَ إذْ ظفِرتَ به ... ما بعـد يحيَى للموتِ من ألمِ

وقال الشَّمرْدَل اليَرْبُوعىّ يرثى أخاه :

إذا ما أتى يومٌ من الدّهر بيننا ... فحيّاكَ عنّا شرْقُه وأصائلُهْ[2]

أبَى الصّبرَ أنّ العين بعدكَ لم تزَلْ ... يُحالِفُ جَفْنَيْها قذًى ما تُزايِلُهْ

وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلكَ مَن بكَى ... فأنت على من مات بعدكَ شاغِلُهْ

أعينىَّ إذ أبكاكما الدهرُ فابْكيا ... لمن نَصْرُه قد بانَ عنّا ونائلُهْ

وكنتُ به أغشَى القِتالَ فعزّنِى ... عليه من المِقـدارِ مَنْ لا أقاتِلُهْ

لعمْرُكَ إنّ الموتَ مِنّا لمُولَعٌ ... بمن كان يُرجَى نفعُهُ وفواضِلُهْ

قوله :

* فأنتَ على من ماتَ بعدكَ شاغِلُهْ *

هو المعنى الذى نحن فيه ، وذكرنا سائرَ الأبيات لأنّها فائقة بعيدةُ النّظير .

---

(١) ديوانها ٢٢٥ (٢) أمالى اليزيدى ٣٢ ، ٣٣ .

وقال آخر يرثى رجلا اسمه جارية :

أجارىَ ما أزدادُ إلاّ صبابةً ... عليكَ وما تزدادُ إلاّ تنائيا

أجارىَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميّتٍ ... فديتُكَ مسرورا بنفسى وماليا

وقد كنتُ أرجو أن أراكَ حقيقةً ... فحال قضاء الله دون قضائيا

ألا فليمُتْ من شاء بعدَكَ إنما ... عليكَ من الأقدار كان حِذاريا

ومن الشِّعر المنسوب إلى علىٍّ عليه السلام — ويقال : إنه قاله يومَ ماتَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله :

كنتَ السّوادَ لناظِرى ... فبكى عليك النّاظرُ

من شاء بعدَكَ فليمُتْ ... فعليكَ كنتُ أحاذِرُ

ومن شِعر الحماسة :

سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعى فإن تَغِضْ ... فحَسْبُكَ منى ما تُجِنُّ الجوانحُ

كأنْ لم يَمُتْ حَىٌّ سِواكَ ولم تَقُمْ ... على أحدٍ إلاّ عليكَ النَّوائحُ

لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثى بوَصفِها ... لقد حَسُنَتْ مِن قبلُ فيك المدائحُ

فما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ ... ولا بسرُورٍ بعد مَوْتِك فارِحُ

(٢٩٩)

الأصل :

لَا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ .

***

الشرح :

المائق : الشديدُ الحمْق ، والموق : شدّة الحمْق ، و إنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صوابا بحُمْقه فيزيّنه لك كما يزيّنُ العاقلُ لصاحبه فعلَه لاعتقاد كونه صوابا ، ولكن هذا صوابٌ فى نفْس الأمر ، وذلك صوابٌ فى اعتقاد المائق ، لا فى نفس الأمر ؛ وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله فليس معناه أنّه يَوَدّ أن تكون أحمَق مثله ، وكيف وهو لا يَعلَم من نفسِه أنّه أحمق ، ولو علِم أنه أحمق لما كان أحمق ، و إنما معناه أنّه لحبّه لك ، وصُحْبتِه إيّاك ، يودّ أن تكون مِثله ، لأنّ كل أحدٍ يودّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه فى أخلاقه وأفعالِه ، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله ، وطهارَة أخلاقه ، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنه يهوَى نفسَه ، فعيبُ نفسه مطوىٌّ مَسْتور عن نفسِه ، كما تخفَى عن العاشق عُيوبُ المعشوق .

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ وقَدْ سُئِلَ عَنْ مَسافَةِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، فقَالَ : مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ.

***

الشَّرْحُ :

هكذا تقول العَرَب « بينهما مَسيرة يوم » بالهاء ، ولا يقولون « مسيرُ يوم » لأنّ المسيرَ المَصْدَر ، والمَسِيرة الاسم.

وهـذا الجوابُ تسمِّيه الحـكماء جواباً إقناعيّاً ، لأن السائل أراد أن يذكر له كمّيّة المسافة مُفصّلة ، نحو أن يقول : بينهما ألفُ فرسخ أو أكثر أو أقلّ ، فعدَل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره ، وهو جواب صحيح لا رَيبَ فيه ، لـكنّه غير شافٍ لغليلِ السائل ، وتحته غرَضٌ صحيح ، وذلك لأنه سأله بحضور العامّة تحتَ المِنبر ، فلو قال له : بينهما ألفُ فرْسخ مَثَلا ، لـكان للسائِل أن يُطالبَه بالدّلالة على ذلك ، والدّلالة على ذلكَ يشقّ حصولُها على البَديهة ، ولو حصلتْ لَشقّ عليه أن يُوصلها إلى فهمْ السائل ، ولو فهمها السائلُ لما فهمتْها العامّة الحاضرون ، ولصارَ فيها قولٌ وخِلاف ، وكانت تـكون فِتنة أو شبيها بالفتْنة ، فعَدَل إلى جواب صحيح إجماليّ أسكت السائل به ، وقَنع به السامعون أيضا وَاستحسنَوه ، وهذا من نتائج حِكمتِه عليه السلام .

(٣٠١)

الأصـلُ :

أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاثَةٌ ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاثَةٌ ؛ فَأَصْدِقَاؤُكَ : صَدِيقُكَ ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ . وَأَعْدَاؤُكَ : عَدُوُّكَ ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذا المعنى .

والأصل فى هذا أنّ صديقك جارٍ مجرَى نفسك ، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك ، وعدوك ضدّك ، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضدّ ، فكما أنّ من عاداك عدوّ لك ، وكذلك مَنْ عادى صديقَك عدُوّ لك ، وكذلك من صادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك ، فكان صديقا لك أيضا ، وأما عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك ؛ وضِدُّ ضِدّك ملائمٌ لك ، لأنك أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ ، فقد اشتركتُما فى ضِدّيّة ذلك الشخص ، فكنتما متناسِبَين ، وأمّا مَنْ صادقَ عدوّك فقد ماثلَ ضِدّك ، فكان ضِدًّا لك أيضا ، ومثلُ ذلك بَياضٌ مخصوص يُعادِى سَواداً مخصوصاً و يضادّه .

وهناك بياض ثانٍ هُوَ مِثلُ البياض الأوّل وصديقُه ، وهناك بياضٌ ثالثٌ مِثلُ البياض الثانى ، فيكون أيضا مِثل البياض الأوّل وصديقه ، وهناك بَياضٌ

رابعٌ تأخذه بالاعتبار ضدّاً للسواد المخصوص المفروض ، فإنه يكون مماثلا وصديقا للبياض الأوّل ، لأنه عدو عدوّه ؛ ثم نفرِض(١) سوادا ثانيا مضادّاً للبياض الثانى ، فهو عدوٌّ للبياض الأوّل ، لأنه عدوُّ صديقه ، ثمّ نفرِض سوادا ثالثا هو مُماثِلُ السّوادِ المخصوص المفروض ، فإنه يكون ضدًّا للبياض المفروض المخصوص ، لأنّه مِثل ضدّه ؛ وإن مثّلت ذلك بالحروف كان أظهرَ وأكشف .



(١) ب : « نقض » تحريف

(٣٠٢)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِرَجُلٍ رَآهُ يَسْعَى على عَدُوٍّ لَهُ بِما فيه إضْرَارٌ بِنَفْسِه : إنَّما أَنْتَ كالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعى ، فإنه إن كان يضرّ نفسَه أولاً ثم يضرّ عدوَّه تَبعاً لإضرارِه بنفسِه ، كان - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام - كالطاعنِ نفسَه لِيقتلَ رِدْفه ؛ والرِّدْفُ : الرجلُ الذى تَرتدِفه خلفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرهما ، وفاعل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلَّهم عقلا ، لأنه يبدأ بقتل نفسه و إن كان يضرّ عدوّه أولا ، يحصل فى ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه ، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنين عليه السلام منطبقا على ذلك ، ولكن يكون كقولى فى غزلٍ من قصيدةٍ لى :

إن تَرْمِ قلبى تُصمِ نفسَك إنّه ... لكَ موطنٌ تأوِى إليه ومَنزلُ[(١)]

---

(١) تصمى أى تصيب .

(٣٠٣)

الأصْلُ :

ما أكْثَرَ الْعِبَرَ وَأَقَلَّ الاعْتِبَارَ !

***

الشَّرْحُ :

ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها ! ولا ريب أنْ العبَر كثيرة جدًّا، بل كلّ شئ فى الوجود ففيه عِبْرَةٌ ، ولا ريب أن المعتبرين بها قليلون ، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى ، وأرداهم حبُّ الدنيا ، وأسكرهم خمرُها ؛ وإنّ اليقين فى الأصل ضعيف عندهم ، ولولا ضعفه لكانتْ أحوالهم غيرَ هذه الأحوال .

الأصل :

مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظَلَمَ ، ولا يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَن خَاصَمَ .

الشرح :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : الغالب بالشرّ مغلوب .

وكان يقال : ما تسابّ اثنان إلا غلبَ ألأمُهما .

وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة فى الكلام والفقه ؛ وقالوا : إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة ، والمجادل يكره أن يقهرَه خصمُه ؛ فلا يستطيع أن يتّقى الله .

وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه .

وأما الخصومة فى غير العلم كمنازعة النّاس بعضِهم بعضاً فى أمورهم الدنياوية ، فقد جاء فى ذمّها والنّهى عنها شىءٌ كثير ، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم قولا كافيا ؛ على أنّ منهم مَنْ مدح الجهْل والشرّ فى موضعهما .

وقال الأحنف : ماقلّ سفهاء قوم إلّا ذلّوا .

وقال بعض الحكماء : لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حُجْزَتِهِ قيراطين من جَهْل ؛ فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل . وقالوا : الجاهل من لا جاهل له .

وقال الشاعر :

إذا كنت بين الجهلِ والحلم قاعــداً ... وخُيِّرْتَ أَنَّى شئت فالعلم أفضــلُ

ولـكن إذا أنصفتَ مَنْ ليس منصفاً ... ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثَلُ

إذا جاءنى مَنْ يطلب الجهلَ عامداً ... فإنى سأعطيه الّذى هو ســائلُ

(٣٠٥)

الأصل :

مَا أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ اللهَ الْعَافِيَةَ .

***

الشرح :

هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها ، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها ، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الذى لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغى للإنسان ألّا يهتم به ، أى لاينقطع رجاؤه عن العفو وتأميله الغفران ، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً ، ويستغفر الله ، ويندم ويعزم على ترك المعاودة ، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصى ، والعون على الطاعة ، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب .

وفى هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب ، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام ، فكأنّه قد قال : الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة ، ولا ريب أنّ الإنسان ليس على ثقةٍ من الموت المفاجئ قبل التوبة ، إنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً ، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيرا يتوقّى الذنوب والمعاصىَ غاية التوقّى .

الأصل :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يُحَاسِبُ اللهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ .

فَقِيلَ : كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .

* * *

الشرح :

هذا جواب صحيح ، لأنه تعالى لا يرزقهم على الترتيب، أعنى واحداً بعد واحد ، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة ، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة .

والجواب الثانى صحيح أيضا ؛ لأنه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق ، صحّ أن يحاسبنا ولا نرى المحاسب .

فإن قلت : فقد ورد أنهم يمكثون فى الحساب ألف سنة ؛ وقيل أكثر من ذلك ، فكيف يجمع بين ماورد فى الخبر وبين قولكم : « إن حسابهم يكون ضربة واحدة » ! ولا ريب أنّ الأخبار تدلّ على أن الحساب يكون لواحدٍ بعد واحد .

قلت : إن أخبار الآحاد لا يُعمل عليها ؛ لا سيّما الأخبار الواردة فى حديث الحساب والنار والجنّة ، فإن المحدّثين طعنوا فى أكثرها ، وقالوا : إنها موضوعة ، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف ، فيقال إن ترتيب المحاسبة فى زمانٍ طويل جدًّا يتضمّن لطفا فى التكليف فيفعله البارى تعالى لذلك ، وإنّما الغرض من المحاسبة صدْق الوعد وما سبق من القول ؛ والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملةً ، فوجب القول بالمتيقَّن المعلوم فيها ورفض مالم يثبت .

الأصل :

رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ .

***

الشرح :

قالوا فى المَثَل : الرّسول على قدر المرسِل .

وقيل أيضا : رسولُك أنتَ ، إلا أنه إنسان آخَر .

وقال الشاعر :

تخيَّرْ إذا ما كنتَ فى الأمر مرسِلاً فمبلغُ آراء الرّجال رسولُها

وروِّ وفكِّرْ فى الكتاب فإنّما بأطراف أقلامِ الرّجال عقولُها

(٣٠٨)

الأصْلُ :

ما المُبْتَلَى الَّذِى قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلاءُ ، بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ المُعَافَى الَّذِى لَا يَأْمَنُ الْبَلاءَ .

***

الشَّرْحُ :

هذا ترغيب فى الدعاء، والذى قاله عليه السلام حقّ ، لأنّ المعافَى فى الصورة مبتلًى فى المعنى ، ومادام الإنسان فى قيد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة ، ثم لا يأمن البلاء الحسّىّ ، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى أنّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوىّ، ومن بلائها الحسىّ فى كلّ حال .

ولا ريبَ أنّ الأدعية مؤثِّرة ، وأنّ لها أوقات إجابة ، ولم يختلف المِلّيُّون [1] والحكماء فى ذلك .

---

(١) ق ا : « أصحاب الملل »

(٣٠٩)

الأصْلُ :

النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد قال عليه السلام فى موضع آخر : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

وقال الشاعر :

ونحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينا بِدَرِّها ... وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ[1]

(١) الدر : اللبن ، والكلام على الاستعارة .

(٣١٠)

الأصْلُ :

إنَّ المِسْكِينَ رَسُولُ اللّهِ ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللّهَ ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللّهَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا حضٌّ على الصدقة ، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها .

وفى الحديث المرفوع : « اتّقوا النّار ولو بشِقّ تمْرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لو صَدَق السّائل لما أفلح مَنْ ردّه » .

وقال أيضا : « مَنْ ردّ سائلا خائبا لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » .

وكان صلى الله عليه وآله لا يَكِلُ خَصْلتيْن إلى غيره : كان يصنع طَهُوره [1] بالّليل ويخمُره ، وكان يناول المسكين بيده .

وقال بعض الصالحين : مَنْ لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه .

وقال بعضهم : الصلاة تبلّغك نصفَ الطريق ، والصّوْم يبلّغك باب المَلِك ، والصدقة تُدخِلك عليه .

---

(١) الطهور : الماء الذى يتطهر به . ويخمره : يستره .

الأصل :

مازنى غيورٌ قطُّ .

***

الشرح :

قد جاء فى الأثر : مَنْ زنى زُنِىَ به ولو فى عَقِبِ عقِبه .

وهذا قد جُرِّب فوجد حقاً ، وقلَّ مَنْ ترى مِقداما على الزّنا إلا والقول فى حَرَمه وأهلِه وذوى محارمه كثير فاشٍ .

والكلمة التى قالها عليه السلام حقٌّ ، لأنَّ مَنْ اعتاد الزنا حتى صار دُرْبته وعادتَه وألفته نفسه ، لابدَّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحا ، أو كالمباح ، لأنَّ مَنْ تدرّب بشىء ومَرَن عليه زال قبحه من نفسِه ، وإذا زال قبحُ الزنا من نفسه لم يعظم عليه مايقال فى أهله ، وإذا لم يعظم عليه ما يقال فى أهله ، فقد سقطت غَيْرتُه .

(٣١٢)

الأصْلُ :

كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِساً !

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى هذا المعنى .

وكان عليه السلام يقول : إن عَلَيّ من الله جُنّة[1] حصينة ، فإذا جاء يَوْمِى أسلمتْنى ؛ فحينئذ لا يَطيش السّهم ، ولا يبرأ الكَلْم .

والقول فى الأجل وكونه حارسا شُعبة من شُعَب القول فى القضاء والقَدَر ، وله موضع هو أملَكُ به[2] .

---

(١) الجنة بالضم : كل ما وقى.

(٢) ا : « أولى به » .

الأصل :

ينام الرجل على الثكل، ولا ينام على الحرب .

***

قال السيد : ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد، ولا يصبر على سلب الأموال .



***

الشرح :

كان يقال : المال عدل النفس .

وفي الأثر أن من قتل من دون ماله فهو شهيد .

وقال الشاعر :

لنا إبل غر يضيق فضاؤها ... ويغبر عنها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا ... ومن دوننا أن تستباح دماؤها

حمى وقرى فالموت دون مرامها ... وأيسر أمر يوم حق فناؤها

(٣١٤)

الأصل :

مَوَدَّةُ الآباءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاء ، وَالقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى المَوَدَّةِ مِنَ المَوَدَّةِ إِلَى القَرَابَةِ .

* * *

الشرح :

كان يقال : الحبّ يُتوارث ، والبُغض يُتوارث .

وقال الشاعر :

أبقَى الضَّغَائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا فلن تبِيدَ وللآباء أبناء

ولا خير فى القرابة من دون مودّة .

وقد قال القائل لمّا قيل له : أيّما أحبُّ إليك ؟ أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحبّ أخي إذا كان صديقا .

فالقربى محتاجة إلى المودّة ، والمودة مستغنية عن القُربَى[1] .

---

(١) ا : « القرابة » .

(٣١٥)

الأصل :

اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ .

***

الشرح :

كان يقال : ظَنُّ المؤمن كَهانة .

وهو أثرٌ جاء عن بعض السلف .

قال أوس بن حجر [١] :

الألمعىُّ الذى يَظُنّ [٢] بك الظَّنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا [٣]

وقال أبو الطيّب [٤] :

ذَكِىٌّ تَظَنِّيه طليعةُ عينِه ... يَرَى قلبُه فى يومه ما يَرَى غدًا [٥]

---

(١) ديوانه ٥٣

(٢) الديوان : « لك » .

(٣) الألمعى : الحديد اللسان والقلب ؛ قال فى الكامل : « وقد أبانه بقوله : « الذى يظن بك الظن » .

(٤) ديوانه ١ : ٢٨٢

(٥) التظنى : هو التظنن ، قلبت النون الثانية ياء . والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو فإذا جاءهم العدو أنذرهم .

(٣١٦)

الأَصْلُ :

لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا كلام فى التوكّل ، وقد سبق القول فيه .

وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيّع أمرَ آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى جود[١] العبد : الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال بعضهم : متى رضيتَ بالله وكيلا ، وجدت إلى كلّ خير سبيلا[٢] .

---

(١) فى ب : « وجود » تحريف . (٢) زاد بعدها فى ا : « واضحاً » .

وقالَ عليه السلامُ لأنَسِ بْنِ مالكٍ ، وقد كان بَعَثَهُ إلى طلحةَ والزُّبير لمَّا جاء إلى البصرةِ يُذَكِّرُهُما شيئاً قد سمِعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وآلهِ في معناهُما، فَلَوَى عن ذلك فرجَعَ ، فقالَ : إنّي أُنْسِيتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، فقال عليه السلامُ :

إنْ كنتَ كاذباً فضرَبكَ اللهُ بها بيضاءَ لامِعَةً لا تُوارِيها العِمامةُ .

***

قالَ : يعني البرصَ ، فأصاب أنساً هـذا الدّاءُ فيما بَعْدُ في وجهِه، فـكانَ لا يُرَى إلا مُتَبَرْقِعاً .

***

الشَّـرْحُ :

المشهور أنّ عليا عليه السّلام ناشد الناس الله في الرّحبة بالـكوفة ، فقال : أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لي وهو منصرف من حَجّة الوداع : « من كنتُ مولاه فعليّ مولاه ، اللهمّ وَالِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه » ! فقام رجال فشهدوا بذلك ، فقال عليه السلام لأنس بن مالك : لقد حضرتَها ، فما بالُك ! فقال : يا أميرَ المؤمنين كبرتْ سنّي ، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره ؛ فقال له : إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العمامة ، فما مات حتى أصابه البرص .

فأما ماذكره الرضيّ من أنّه بعث أنسا إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف ، ولو كان قد بعثه ليذكّرهما بكلام يختصّ بهما من رسول الله صلى الله عليه وآله لما أمكنه أن

يرجع ، فيقول : إنّى أنسيتهُ ، لأنّه مافارقه متوجّها نحوها إلا وقد أقرّ بمعرفته وذكره ، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول : إنى أنسيته ، فينكر بعد الإقرار ! هــذا مما لا يقع .

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص ، والدعوة التى دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك فى كتاب " المعارف " فى باب البُرْص [١] من أعيان الرجال ، وابن قتيبة غير متّهم فى حقّ علىّ عليه السلام ، على المشهور من انحرافِه عنه .



(١) المعارف ٥٨٠ .

(٣١٨)

الأصلُ :

إنَّ لِلقُلُوبِ إقبالاً وَإدبارًا ، فَإذَا أقبَلَتْ فَاحمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ ، وَإذَا أدبَرَتْ فَاقتَصِرُوا بِهَا عَلَى الفَرَائِضِ .

***

الشرحُ :

لا ريب أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ؛ وتُقبل تارةً على العِلمِ وعلى العَمَل ، وتُدبِر تارةً عنهما .

قال عليّ عليه السلام : فإذا رأيتموها مقبلة أى قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل ؛ ليس يعنى اقتصروا بها على النافلة ، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك . و إذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض ، فإنه لا انتفاع بعمل لا يَحضُر القلبُ فيه

(٣١٩)

الأصل :

في القُرآنِ نَبأُ ما قَبْلَكُمْ ، وخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ ، وحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ .

***

الشرح :

هذا حقّ ؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية ، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة ، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة ؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه .

الأصل :

رُدُّوا الحجرَ مِنْ حَيْثُ جاء ، فإنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إلاَّ الشَّر .

* * *

الشرح :

هذا مثل قولهم فى المثل : إن الحديد بالحديد يُفلَح وقال عمرو بن كُلثوم .

ألاَ لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا(١)

وقال الفِنْد الزِّمّانيّ :

فلما صرّح الشّرّ فأمسى وهوَ عُريانُ(٢)

ولم يبقَ سِوى العُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا

وبعض الحِلم عند الجهـلِ للذّلّة إذعان

وفى الشـرّ نجاة حيـنَ لا ينجيك إحسانُ

وقال الأحنف :

وذِى ضِغْنٍ أمتّ القولَ عنه بحِلمى فاستمرّ على المَقالِ

ومن يَحلُمْ وليس له سفيهٌ يُلاقِ المعضلاتِ من الرّجالِ

---

(١) من المعلقة ص ٣٢٣ــ بشرح التبريزى (٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ ــ ٢٦ ــ بشرح التبريزى قالها فى حرب البسوس .

وقال الراجز :

لا بد للسودُد من أرْماحِ ومِنْ عَديدٍ يتّقى بالرّاحِ

* ومن سفيهٍ دائم النُّباحِ *

وقال آخر :

ولا يلبثُ الجهّال أن يتهضّمُوا أخا الحلم ما لم يستعِنْ بجَهُولِ

وقال آخر :

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تاركى ولكن متى أُحمَلْ على الشرّ أركبُ

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِـكاتِبِهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أبي رَافِعٍ :

أَلِقْ دَوَاتَكَ ، وأطِلْ جِلفَةَ قَلَمِكَ ، وفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ ، وقَرْمِطْ بَيْنَ الحُرُوف فإنَّ ذَلِكَ أجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الخطِّ .

***



الشَّـرْحُ :

لاقَ الحِبرُ بالـكاغَد يليق ، أي التصق ، ولِقتُهُ أنا يتعدّى ولا يتعدّى ، وهذه دواة مليقة : أي قد أُصلح مدادُها ، وجاء ألَقِ الدّواة إلاقةً فهي مُليقة ، وهي لغة قليلة وعليها وردت كلمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقال للمرأة إذا لم تحـظ عند زوجها : ما عاقَتْ عند زوجها ولا لاقَتْ ، أي ما ألتصقت بقلبه .

وتقول : هي جِلفَة القلم بالـكسر، وأصل الجَلف القَشْر، جلفتُ الطين من رأس الدنّ ، والجِلفة هيئة فتحَة القلم التي يستمدّ بها المداد ، كما تقول: هو حَسَن الرِّكبة والجلسة ونحو ذلك من الهيئات .

وتقول : قد قرمط فلانٌ خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضِيق وتقارُب ؛ وكذلك القول في تضييق الحروف .

فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطّ بهاء ووضوحا .

الأصل :

أنا يَعْسُوبُ المُؤْمنينَ ، والمَالُ يَعسُوب الفُجّارِ .

* * *

وقالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ المُؤْمِنِينَ يَتْبَعُونَنِي ، والفُجّار يَتْبَعُونَ المَالَ ؛ كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَهَا ، وهُوَ رَئِيسُهَا .

* * *

الشرح :

هذه كلمةٌ قالهـا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بلفظين مختلفين ، تارةً : « أنت يعسوب الدِّين » وتارة : « أنت يعسوب المؤمنين » ، والكلّ راجع إلى معنًى واحد ، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيِّدَهم ، أو جعل الدِّين يتبعه ، ويقفُو أثرَه ؛ حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ .

وهذا نحو قوله : « وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ » .

الأصل :

وقالَ لبعضِ اليهودِ حينَ قالَ لهُ : مادَفَنتُمْ نبيَّكُمْ حَتَّى اختَلَفتُمْ فيه !
فقالَ لهُ :

إنَّما اختَلَفْنا عَنْهُ لا فِيهِ ؛ وَلـكِنَّكُمْ ماجَفَّتْ أرْجُلُكُمْ مِنَ البَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1] .

***

الشرح :

ما أحسن قوله : « اختلفنا عنه لا فيه » ، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن فى التوحيد والنبوّة ؛ بل فى فرُوع خارجة عن ذلك ، نحو الإمامة والميراث ، والخلاف فى الزكاة هل هى واجبة أم لا ؛ واليهود لم يختلفوا كذلك ، بل فى التوحيد الذى هو الأصل .

قال المفسرون : مرُّوا على قوم يعبدون أصناما لهم على هيئة البقَر ؛ فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها ، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام ، وخلاصهم من رقّ العبوديّة ، وعبورهم البحر ، ومشاهدةِ غَرَق فرعون ؛ وهذه غاية الجهل .

وقد روى حديث اليهودىّ على وجه آخر ؛ قيل : قال يهودىٌّ لعلىّ عليه السلام : اختلفتم بعد نبيِّكم ولم يجفّ ماؤه ـ يعنى غسله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال عليه السلام : وأنتم قلتم : اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم .

(١) سورة الأعراف : ١٣٨

الأصل :

وقِيلَ لَهُ عليهِ السَّلامُ : بأيِّ شيءٍ غَلَبْتَ الأقْرَانَ ؟ قالَ :
ما لَقِيتُ أحَداً إلا أعانَنِي على نَفْسِهِ .

* * *

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ اللهُ تعالى : يُومِئُ بِذَلِكَ إلَى تَمَكُّنِ هَيْبَتِهِ فِي الْقُلُوبِ .

* * *

الشرح :

قالت الحكماء : الوهم مؤثّر ، وهذا حقّ ، لأن المريض إذا تقرّر في وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوهم ، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة ؛ ويقع في خياله أنها قاتلته ؛ فإنه لا يكاد يسلم منها ، وقد ضربو لذلك مثالاً ، الماشي على جِذْع معترض على مهواة ؛ فإن وهمه وتخيّله السقوط يقتضي سقوطه ؛ وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهْواة كمشيه عليه وهو ملقًى على الأرض ؛ لا فرق بينهما إلاّ الوَهْم والخوف والإشفاق والحذَر ، فكذلك الذين بارزوا عليًّا عليه السلام من الأقران ؛ لما كان قد طار صيتُه ، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول ، غلب الوهم عليهم ، فقصرت أنفسهم عن مقاومته ، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته ؛ وكان هو في الغاية القصوى من الشّجاعة والإقدام ، فيقتحم عليهم ويقتلهم .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لابنِهِ محمَّدِ بنِ الحنفيَّةِ :

يا بُنَيَّ إنِّي أخافُ عليكَ الفقرَ ؛ فاستعِذْ باللهِ منهُ ، فإنَّ الفقرَ مَنقصَةٌ للدِّينِ ، مَدْهَشَةٌ لِلعَقلِ ، دَاعِيَةٌ لِلمَقتِ .

***



الشرح :

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفقر والغنى]

هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيرا ، ففضّل قومٌ الغنى ، وفضّل قومٌ الفقر .

فقال أصحاب الغنى : قد وصف الله تعالى المال ، فسمّاه خيراً ، فقال : ﴿ إنِّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكرِ ربِّي ﴾(1) .

وقال ممتنًّا على عباده ، واعدا لهم بالإنعـام والإحسان : ﴿ ويُمْدِدْكُمْ بأموالٍ وبنين (2) ﴾ .

وقال : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً ممدودًا ﴾(3) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « المال الحسب، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال » .

وقال عليه السلام : « نعم العون على تقوى الله المال » .

---

(1) سورة ص ٣٢ (2) سورة نوح ١٢
(3) سورة المدثر ١٢ .

قالوا : ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيّأ حصولها إلا بالمال؛ كالحج والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد .

وقد جاء في الخبر : « خير المال سِكّة مأبورة [1] أو مُهرة مأمورة » .

وقالت الحكماء : المال يرفعُ صاحبَه وإن كان وضيعَ النسب ، قليل الأدب ، وينصره وإن كان جبانًا ، ويبسط لسانه وإن كان عَيًّا ، به تُوصَل الأرحام ، وتصانُ الأعراض ، وتظهر المروءة ، وتتمّ الرياسة ، ويعمر العالم ، وتُبلَغ الأغراض ، وتدرك المطالب ، وتُنال المآرب ؛ يصلك إذا قطعك الناس ، وينصرك إذا خذلوك ، ويستعبد لك الأحرار ، ولولا المال لما بان كرمُ الكريم ، ولا ظهر لؤم اللئيم ، ولا شُكِر جواد ، ولا ذُمّ بخيل ، ولا صِين حريم ، ولا أدرك نعيم .

وقال الشاعر :

المـــال أنفعُ للفتى من عِلْمِهِ   والفقرُ أقتلُ للفتى من جَهْلِهِ
ما ضرّ مَنْ رفع الدّرَاهم قدره   جهلٌ يناط إلى دناءةِ أصـــلِهِ

وقال آخر :

دعــــوتُ أخي فولّى مشمئزًّا   ولبّى دِرهمي لمـــــا دعوتُ

وقال آخر :

ولم أر أوفَى ذِمّةً من دراهمي   وأصدقَ عَهْدا في الأمور العظائمِ
فكم خانني خلٌّ وثقتُ بعهدِهِ   وكان صديقًا لي زمانَ الدّرَاهمِ

وقال آخر :

أبو الأصفر المنقوش أنفعُ للفتى   من الأصل والعِلم الخطير المقدّمِ

---

(١) السكة : الطريقة . والمأبورة : الملقحة ، وانظر نهاية ابن الأثير ١ : ١٠

وما مدح العلم امرؤ ظفرت به ... يداه ولكن كلُّ مُقْوٍ ومعدِمِ

وقال الشاعر :

ولم أر بعد الدّين خيراً من الغِنى ... ولم أرَ بعد الكفر شرّا من الفقرِ

وقال العتّابيّ : الناس لصاحب المال ألزمُ من الشّعاع للشمس ؛ وهو عندهم أرفع من السماء ، وأعذب من الماء ، وأحلى من الشّهد ، وأزكى من الوَرْد ؛ خطؤه صواب ، وسيئته حسنة . وقوله مقبول ، يُغشَى مجلسه ، ولا يُمَلّ حديثُه ، والمفلس عندهم أكذب من لمعان السّراب ، ومن رؤيا الكِظّة ، ومن مرآة اللّقوة ، ومن سحاب تَمُّوز ، لا يسأل عنه إن غاب ، ولا يسلَّم عليه إذا قدم ؛ إن غاب شتموه ، وإن حضر طردوه ؛ مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة ؛ أثقل من الأمانة ، وأبغض من السائل المبرِم .

وقال بعض الشعراء الظرفاء ، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته :

أصونُ دراهمِي وأَذُبّ عنهَا ... لِعلمِي أنهـا سَيْفِي وتُرْسِي
وأذخرُهـا وأجمعُها بجهدِي ... ويأخذ وارثِي منها وعُرْسِي
فيأكلهـا ويشربُهـا هنيئاً ... على النّغمات من نَقْر وَجَسٍّ
ويقعد فوق قبرِي بعـد موتِي ... ولا يتصـدقنْ عنّي بفَلْسِ
أحبّ إليّ من قصـدى عظيما ... كبيراً أصـله من عبد شمسِ
أمدّ إليـه كفّي مستميحاً ... وأُصْبِحُ عَبْـدَ خدمته وأُمسِي
ويتركني أجرّ الرّجـلَ مِنّي ... وقد صارت كنفس الكلْب نفسِي

***

وقال أصحاب الفقر : الغِنَى سبب الطُّغيان ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ [٢] .

وكان يقال : الغنى يورث البَطَر ، وغنى النفس خيرٌ من غنى المال .

وقال محمود البقّال :

الفقر خيرٌ فاقنَعْ واقتصد ... إنّ من العِصْمة ألّا تجدْ
كَمْ واجدٍ أطلق وجدانُه ... عنانَه في بعض ما يُرِد
ومُدْمِنٍ للخمر غادٍ على ... سماع عُـــودٍ وغناء غَرِدْ
لو لم يجدْ خمراً ولا مُسمِعاً ... يردّ بالماء غليــــلَ الـكَبِدْ
كَمْ من يدٍ للفقر عند امرئٍ ... طأطأ منه الفقر حتّى اقتصدْ

وكان يقال : الفقر شعار الصالحين ، والفقر لباس الأنبياء .

ولذلك قال البحترى :

فقرٌ كفقر الأنبيـــاء وغربةٌ ... وصبابةٌ ليس البلاء بواحد [٣]

وكان يقال : الفقر مُخِفّ ، والغنى مُثقِل .

وفى الخبر : نجا المخفّون .

وما أحسن قول أبي العتاهية :

ألَمْ ترَ أنّ الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغني يُخشَى عليه من الفقرِ

وقد ذم الله تعالى المال ، فقال : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة العلق ٦ ، ٧
(٢) سورة الإسراء ٨٣
(٣) ديوانه ١ : ١٦٨
(٤) سورة الأنفال ٢٨

وكان يقال : المال ملول الملل ، ميّال المال غاد ورائح ، طبع المال كطبع الصبيّ ، لا يوقف على وقت رضاه ، ولا وقت سخطه . المال لا ينفعك حتى يفارقك .

وإلى هذا المعنى نظر القائل :

وصاحبِ صدقٍ ليس ينفع قربُهُ ولا ودّه حتّى تفارقه عمداً

– يعني الدينار .

وَمَا أَحْسَنَ ماقاله الأوّل :

وقد يُهلِكُ الإنسانَ حسنُ رياشِهِ كما يُذبَح الطّاوُس من أجل ريشِهِ

وقال آخر :

رُوَيدَكَ إنّ المال يُهلِكُ ربَّهُ إذا جمّ واستعلى وسُدَّ طريقُهُ

ومن جاوزَ الماء الغزير فَجَّهُ وسدَّ طريقَ الماء فهو غريقُهُ

(٣٢٦)

الأصل :

وقال لسائل سأله عن مسألة :

سَلْ تَفَقُّهاً ، وَلَا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ .

***

الشرح :

قد ورد نهى كثير عن السؤال على طريق الإعنات .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى كلام له : من حَقّ العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنته فى الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل ، ولا تلحّ عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تُفْشِ له سرًّا ، ولا تغتابنّ عنده أحداً ، ولا تنقلنّ إليه حديثا ، ولا تطلبنّ عثرته ، وإن زلّ قبلت معذرتَه ، وعليك أن توقّره وتُعظّمه لله مادام حافظاً أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته .

وقال ابن سيرين لسائل سأله : سلْ أخاك إبليس ، إنك لن تسأل وأنت طالب رشد .

وقالوا : اللهمّ إنا نعوذ بك أن تُعْنِت كما نعوذ بك أن نُعْنَت ، ونستكفيك أن تَفضَح، كما نستكفيك أن نُفضَح .

وقالوا : إذا آنس المعلّم من التلميذ سؤال التعنّت حَرُم عليه تعليمه .

(٣٢٧)

الأصـلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ :

لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى ، فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي .

***

الشـرح :

الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيرا ، فالواجب على مَنْ يشير عليه بأمرٍ فلا يقبله أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عَرَف من المصلحة مالم يعرف .

ولقد أحسن الصابي في قوله في بعض رسائله : ولولا فضلُ الرّعاة على الرّعايا في بُعْدِ مَطْرَح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة ، لتساوت الأقدام، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

(٣٢٨)

الأصْلُ :

وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِماً مِنْ صِفِّينَ مَرَّ بِالشَّامِيِّينَ ، فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلَى صِفِّينَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ حَرْبُ بْنُ شُرَحْبِيل الشَّامِيُّ ؛ وَكَانَ مِنْ وُجُوهِ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ ! أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّنِينِ !

وَأَقْبَلَ حَرْبٌ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاكِبٌ، فَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ .

* * *

الشّرحُ :

قد ذكرنا نسب الشاميّين فيما اقتصصناه من أخبار صِفّين فى أول الكتاب .

والرّنين : الصوت ، وإنما جعله فتنة للوالى لما يتداخله من العُجْب بنفسه والزّهو ، ولا ريب أيضا فى أنّه مذلّة للمؤمن ، فإنّ الرّجل الماشى إلى ركاب الفارس أذلّ النّاس .

الأصل :

وَقالَ عليه السلامُ وَقدْ مرَّ بقَتْلَى الخوارِجِ يومَ النَّهْرَوانِ :

بُؤْساً لَكُم ! لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ .

فقيلَ لهُ : منْ غرَّهم يا أميرَ المؤمنينَ ؟

فقالَ :

الشَّيْطانُ المُضِلُّ ، والنَّفسُ الأمَّارَةُ بالسُّوءِ ؛ غَرَّتْهُمْ بالأمانِيِّ ، وفَسَحَتْ لَهُمْ في المَعاصِي ، ووَعَدَتْهُمُ الإظْهارَ ؛ فاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ .

***

الشرح :

يقالُ: بؤسَى لزيد وبؤساً «بالتنوين» لزيد ، فبؤسى نظيره نُعمَى ، و بؤساً نظيره نعمةً ، ينتصب على المصدر .

وهذا الكلام ردّ على المجبّرة ، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعله .

والإظهار : مصدر ، أظهرته على زيد ، أى جعلته ظاهرا عليه غالبا له ، أى وعدتهم الانتصار والظفر .

(٣٣٠)

الأصل :

اتَّقُوا معاصِيَ اللهِ فِي الخَلَوَاتِ ، فإنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحاكِمُ .

* * *

الشرح :

إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنى عمن يشهد عنده ؛ فالإنسان إذن جديرٌ أن يتقي الله حقّ تُقَاته ، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه[1] .

(١) ا : « فيه » .

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لما بلغهُ قتلُ محمّدِ بنِ أبي بكرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ :

إنَّ حزنَنَا عَلَيْهِ على قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ ، إلّا أنَّهُمْ نَقصُوا بَغيضاً ؛ ونَقصْنَا حَبِيباً .

***



الشّرحُ :

قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضى الله عنه .

وقال عليه السلام : إن حزننا به فى العِظَم على قدر فرَحهم به ؛ ولكنْ وَقع التفاوت بيننا و بينهم من وجه آخر ؛ وهو أنّا نقصنا حبيبا إلينا ، وأما هم فنقصوا بغيضا إليهم .

فإن قلت : كيف نقصوا ، ومعلوم أن أهل الشام مانقصوا بقتل محمّد شيئاً لأنه ليس فى عددهم !

قلت : لمّا كان أهل الشام يعدُّون فى كل وقت أعداءهم و بغضاءهم من أهل العراق ، وصار ذلك العدد معلوما عندهم محصور الكمّيّة ، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحدا ، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم ، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر ، و يتمنّوْن لهم الخطوب والأحداث ، كأنّه يقول : استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم .

الأصل :

وقال عليهِ السلامُ : العُمرُ الّذِى أعْذَرَ اللهُ فيهِ إلى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً .

***

الشرح :

أعذَرَ الله فيه ؛ أى سَوَّغ لابن آدم أن يَعتذِر ، يعني أنّ ماقبل السّتين هي أيّام الصِّبا والشبيبة والكُهولة ، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هَوَى النفس لغَلَبَة الشّهوة ، وشِرّه الحداثة ، فإذا تجاوز السّتين دخل في سِنّ الشّيْخُوخة ، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرّتِه ، فلا عُذرَ له في الجهل .

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى في دُون هذه السِّنّ الّتي عيّنها عليه السلام .

قال بعضهم :

إذا ما المرء قَصّر ثمّ مرّتْ　　عليه الأربعونَ عن الرِّجالِ
ولم يَلحَق بصالِحهم فَدعْــهُ　　فليسَ بلاحِقٍ أُخرى اللّيالِي

(٣٣٣)

الأصل:

ما ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإثمُ بهِ، والغالبُ بالشرِّ مغلوبٌ.

***

الشرح:

قد قال عليه السلام نحوَ هذا، وذكرْناه في هذا الكتابِ: مَنْ قصّرَ في الخصومة ظَلَمَ، ومَنْ بالَغَ فيها أَثِمَ.

الأصل :

إنَّ اللهَ سُبحانَهُ فَرَضَ في أمْوَالِ الأغنِياء أقْوَاتَ الفُقَرَاء ، فما جاعَ فَقِيرٌ إلّا بِما مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ ، واللهُ تعالى سائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ في الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها .

وقد ورد في الأخبار الصحيحة أنَّ أبا ذَرّ قال : انتهيتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو جالس في ظِلّ الكعبة ، فلمّا رآني قال : هم الأخسرون وربِّ الكعبة ! فقلت : مَنْ هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا ، إلا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله ، وقليلٌ ماهُم ، مامِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدِّى زكاتَها إلّا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه ، تنطَحُه بقرونها ، وتطأه بأظلافها ، كلّما نَفِدَتْ أخراها عادَتْ عليه أولاها حتّى يقضىَ الله بين الناس ..

الأصْـلُ :

الاسْتِغْناء عَنِ الْعُذْرِ ، أعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

رُوِيَ «خيرٌ مِن الصِّدق» ، والمعنى : لا تفعل شيئاً تعتذر عنه و إن كنت صادقا فى العُذْر ، فألّا تفعلْ خـيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعل ثمّ تعتذر و إن كنتَ صادقا .

ومِن حِـكَم ابن المعتزّ : لا يقوم عزُّ الغضب بذلّ الاعتذار .

وكان يقال : إيّاك أن تقومَ فى مقامِ مَعْذِرة ، فربَّ عذرٍ أسجل بذنب صاحبه .

اعتذَر رجلٌ إلى يحيى بن خالد ، فقال له : ذَنْبك يستغيثُ مِن عُذْرك .

ومن كلامِهم : مارأيت عُذراً أشبه بذَنبٍ مِن هذا .

ومن كلامهم : أضرِبْه عَلَى ذَنبـه مائةً ، وأضربْهُ على عُذْره مائتين .

قال شاعرهم :

إذا كان وجهُ العُذْر ليس بواضحٍ   فإنّ اطّراحَ العُذْر خيرٌ من العُذْرِ

كان النَّخَعيّ يكره أن يُعتـذَر إليه ويقول : اسكُت مَعْذورا ، فإنّ المعـاذِيرَ يحضُرها الـكَذِب .

الأصل :

أَقَلُّ ما يَلْزَمُكُمْ لِلهِ سُبْحَانَهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ .

***

الشرح :

لا شُبْهَةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِك على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيجعلَ ذلك المالَ مادّةً لِعصيانه والخروج عليه ، ثمّ يُحاربه بأولئك العبيد ، وبذلك السلاح بعينه .

وما أحسَنَ ماقال الصابى فى رسالته إلى سُبُكْتُكِين من عِزّ الدّولة بختيار :

وليتَ شِعرى بأىّ قدَمٍ تَواقفنا وراياتُنا خافقة على رأسِك ، ومماليكُنا عن يَمينِك وشمالِك ، وخيلُنا موسومةٌ بأسمائنا تحتَك ، وثيابُنا محُوكَة فى طِرازِنا على جسدِك ، وسلاحُنا المَشحوذُ لأعدائنا فى يدِك !

(٣٣٧)

الأصل :

إنَّ اللهَ سُبحانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ الأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجَزَةِ .

***

الشرح :

الأكياس : العُقلاء أولو الألباب .

قال عليه السلام : جعلَ اللهُ طاعتَه غنيمةَ هؤلاء ، إذا فرّط فيها العَجَزة المَخْذولون من النّاس ، كصَيْدٍ استذفّ [1] لرَجُلين : أحدُهما جَلْد والآخر عاجز ، فقعَد عنه العاجز لعجزه وحِرْمانه ، واقتنَصه الجَلْد لشَهامته وقوّة جِدِّه [2] .

---

(١) استذفّ : تهيأ .

(٢) ا : « وقوته » .

(٣٣٨)

الأصل :

السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ .

***

الشرح :

الوازعُ عن الشيء : الكافُّ عنه ، والمانعُ منه ، والجمع وَزَعة، مِثل قاتِل وقَتَلة .

وقد قيل هذا المَعنَى كثيراً ، قالوا : لابدَّ للنَّاس مِن وَزَعة .

وقيل : ما يَزَع اللهُ عن الدِّين بالسّلطان أكثَرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن . وتُنسَب هذه اللّفظة إلى عُثمانَ بنِ عفّان .

قال الشاعر :

لَا يَصلُح الناسُ فَوضَى لا سَرارةَ لهمْ ولا سَراةَ إذا جُهّالُهم سادُوا [1]

وكان يقال : السّلطان القاهر وإن كان ظالماً خيرٌ للرّعيّـة وللملك من السّلطان الضعيف وإن كان عادِلا .

وقال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [2] .

قالوا في تفسيره : أراد السلطان .

---

(١) للأفوه الأودي ، ديوانه ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية) .

(٢) سورة البقرة ٢٥١

الأصْل :

وقال عليه السلام فى صفة المؤمن :

بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ . أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً ، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً . يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ . طَوِيلٌ غَمُّهُ ، بَعِيدٌ هَمُّهُ ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ ، مَشْغُولٌ وَقْتُهُ ، شَكُورٌ صَبُورٌ . مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ . سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ ؛ نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ ؛ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ .

***

الشّرح :

هذه صفاتُ العارفين ؛ وقد تقدّم كثيرٌ من القول فى ذلك .

وكان يقال : البِشْر عُنوان النّجاح ، والأمْر الذى يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه فى وَجْهه وهو حزين وحُزْنُه فى قلبه ، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد فى كثيرٍ من الناس .

ثمّ ذكر أنّه أوسَع الناس صَدْرا ، وأذلّهم نَفْسا ، وأنه يَكرَه الرّفعة والصّيت .

وجاء فى الخبَر فى وصفهم : « كلّ خامِلٍ نُوَمة » .

وطُولُ الغَمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم ، وكذلك كَثْرةُ الصّمت وشَغْل الوَقْت بالذّكر والعِبادة ، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق فى الفِكْر وتدبُّر آياتِ الله تعالى فى خَلْقه ، والضّنّ بالخلّة وقلّة المخالطَة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلُق ولِين الجانب ، وأن يكون قَوِىَّ النفس جدّا ، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُعٍ بينهم ؛ وهذه الأمور كلُّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم .

الأصْلُ :

الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمة قد رُوِيتْ مرفوعةً ، وقد تقدّم القولُ فى الطّمع وذمّه ، واليأسِ ومَدْحِه .

وفى الحديث المرفوع : « ازْهَدْ فى النّاس يُحبّك الله ، وازْهَدْ فيما فى أيدِي الناسِ يُحبّك الناس » .

ومن كلامِ بعضِهم : ما أكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه .

وكان يقال : نَعوذُ بالله من طَمَعٍ يُدْنِي إلى طَبَعٍ [١] .

وقال الشاعر :

أرَحْتُ رُوحِى من عَذابِ المِلاحْ　　لليأسِ روح مِثل روح النَّجاحْ

وقال بعضُ الأدباء : هذا المعنى الّذى قد أطنَبَ فيه الناسُ ليس كما يزعمونه ، لَعَمْرِى إنّ لليأس راحة ، ولكن لا كَراحةِ النّجاح ، وما هوَ إلّا كقَولِ مَن قال : لا أدرِي نِصفُ العِلم ، فقيل له : ولكنّه النّصف الّذى لا ينفَع !

وقال ابن الفضل :

لا أمدَحُ اليأسَ ولكنّه　　أروَحُ للقَلْب مِن المَطمَعِ

---

(١) الطبع : الدنس .

أفلحَ من أبصرَ روضَ المُنَى　　يُرْعَى فلمْ يرْعَ ولم يرْتَعِ

وممّا يُروى لعبد الله بنِ المُبارَك الزاهد :

قد أرحْنا واسترَحْنا　　مِن غُـــدُوٍّ ورواحِ

واتّصالٍ بأمـــيرٍ　　ووزيرٍ ذي سماحِ

بعفــافٍ وكَفافٍ　　وقُنوعٍ وصَـــلاحِ

وجَعلْنــا اليأسَ مِفتا　　حاً لأبوابِ النّجاحِ



(٣٤١)

الأصْـلُ :

المَسئُول حُرٌّ حتّى يَعِد .

***

الشَّـرْحُ :

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الوعد والمطل]

قد سَبَق القولُ فى الوَعد والمَطْل ، ونحن نذكر هاهنا نُـكَتاً أخرى :

فى الحديث المرفوع : « مَن وَعَد وَعْدا فـكأنما عَهِد عَهْداً » .

وكان يقال : الوعدُ دَيْن الـكِرام ، والمَطْل دَيْن اللئام .

وكان يقال : الوعد شَبـكَة من شِبَاك الأحرار يتصيّدون بها المَحامِد .

وقال بعضُهم : الوعد مَرَض المعروف ، والإنجاز بُرْؤه .

وقال يحيى بنُ خالد : الوعد سَحاب ، والإنجاز مَطَرُه .

وفى الحديث المرفوع : « عِدَة المؤمن عطيّة» .

وعنه عليه السلام : « لا تُواعِد أخاك موعداً لتُخلِفَه » .

وقال يحيى بن خالد لبنيه : يا بَنِيّ ، كونوا أُسْداً فى الأقوال ، نُجَازاً فى الأفعال ، ولا تَعِدُوا إلاّ وتُنجزوا ، فإنّ الحرّ يثق بوعْد الـكَرِيم ، وربما ادّان عليه .

وكان جعفرُ بنُ يَحيى يَـكْره الوَعْد ويقول : الوعدمن العاجز ، فأمّا القادر فالنَّقْد .

وفى الحديث المرفوع : « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ » .

وقال ابن الفضل :

أثْرَوْا ولم يقْضوا دُيونَ غَريمِهمْ   واللّؤمُ كلُّ اللّؤم مَطلُ المُوسِرِ

وقال الآخر :

إذا أتت العطيّةَ بعـدَ مَطْلٍ   فلا كانت وإن كانتْ سَنِيّةْ

وكان يقال : المَطْل يَسُدّ على صاحبه بابَ العُذْر ، ويوجِب عليه الأحْسَن والأكثر ، والتعجيل يُحسِّن سيئته ، ويَبسُط عُذْرَه فى التقليل .

وقال يحيى بن خالد لبَنيه : يا بَنى لا تَمطُلوا معروفكم ، فإنّ كثير العطاء بعدَ المَطْل قليل ، وعجّلوا فإنّ عُذْرَكم مقبول مع التعجيل .

ومن كلام الحسن بن سهل : المَطْل يُذهِب رَوْنَق البِرّ ، ويكدِّر صَفْوَ المعروف ، ويُحبِط أجر الصَّدَقة ، ويَعقِل اللّسان عن الشكر . وللتعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة ، ولذّةٌ وإن صَغُرت الصَّنيعة ، وربّما عَرَض ما يَمنع الإنجازَ مِن تعذُّرِ الإمكان ، وتغيُّر الزمان ، فبادر المُكْنة ، وعاجِل القُدْرة ، وانتهز الفُرْصة .

وقال الشاعر :

تُحيلُ على الفَراغ قَضاء شُغْلى   وأنتَ إذا فرَغْتَ تكونُ مِثلى

فلا أُدعى بخادِمِك المُرَجّى   ولا تُدْعَى بسيّدِنا الأجَـلّ

وقال آخر :

لو عَلم الماطلُ أنّ المِطالْ   فَقْدٌ به يذهب طَعْمُ النّوالْ

وإنّ أعْلى الـبِرِّ ما نالَه   طالبُه نَقْدا عَقِيبَ السؤالْ

عجّـلَ للسائلِ معروفَه   مهنّأً من طُولِ قيلٍ وقالْ

(٣٤٢)

الأصْلُ :

لَوْ رَأَى العَبْدُ الأَجَلَ ومَصِيرَهُ ، لأَبْغَضَ الأَمَلَ وغُرُورَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم من الكلام فى الأمل ما فيه كفاية .

وكان يقال : واعجبا لصاحب الأَمَل الطَّويل ! وربما يكون كَفَنُه فى يد النّساج وهو لا يعلم .

(٣٤٣)

الأصل :

لِكُلِّ امرئٍ في مالِهِ شَرِيكانِ : الْوَارِثُ والحوَادِثُ .

***

الشرح :

أخَذَه الرّضيُّ فقال :

خُذْ من تُراثِكَ ما استطعتَ فإنما   شُرَكاؤكَ الأيامُ والوُرّاثُ[1]

لم يقضِ حَقَّ المالِ إلا معشَرٌ   نظروا الزمانَ يعيثُ فيه، فعاثُوا

وقد قال عليه السلام في موضعٍ آخَر : بَشِّرْ مالَ البخيل بحادثٍ أو وارث .

ورأيتُ بخطّ ابن الخشاب رحمه الله على ظهر كتاب « لعبدِ الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادثٍ أو وارث » ، كأنّه يَمْنِي ضَنّه به ، أى لا أُخرجه عن يَدِي اختيارا .

---

(١) ديوانه ١ : ١٧٨

الأصلُ :

الدّاعِي بلا عَمل ، كالرّامِي بلا وَتَرٍ .

***

الشرح :

مَنْ خَلا من العَمَل فقد أخَلّ بالواجبـات ، ومن أخَلّ بالواجبات فقد فسَق ، والله تعالى لا يَقبل دُعَاء الفاسق .

وشَبّهه عليه السلام بالرّامي بلا وَتر ، فإن سهمه لا ينفذ [1] .

---

(١) ا : « فإن سهامه » .

الأصل :

الْعِلْمُ عِلْمَانِ : مُطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ ، إذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ .

* * *

الشرح :

هذه قاعدةٌ كليّــة مذكورةٌ فى الـكتب الحكميّة ، إنّ العلومَ منها ماهو غريزىّ ، ومنها ماهو تـكليفى ؛ ثمّ كلّ واحدٍ من القسمين يختلِف بالأشدّ والأضعف ، أما الأوّل فقد يكون فى النّاس من لا يحتاج فى النّظر إلى ترتيب المقدّمات ، بل تنساق النتيجةُ النظريّة إليه سَوْقا من غير احتياج منه إلى التأمّل والتدبّر ، وقد يكون فيهم مَنْ هُو دونَ ذلك ، وقد يكونُ مَن هُو دُون الدُّون ، وأما الثانى فقد يكون فى النّاس من لا يُجدِى فيهالتعليم ، بل يكونُ كالصّخرة الجامدةِ بلادةً وغباوةً ، ومنهم من يكون أقلّ تبلُّدا وجُنوحَ ذهْن من ذلك ، ومنهم مَنْ يكون الوَقْفة عندَه أقلّ ، فيكون ذا حالٍ متوسِّطة ، و بالجملة فاستِقراء أحوالِ النّاس يَشهد بصحّة ذلك .

وقال عليه السلام : ليس يَنفَع المسموعُ ، إذا لم يكن المطبوع ، يقول : إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدّرْس والتّكرار ، وقد شاهدْنا مِثلَ هـذا فى حَقّ أشخاصٍ كثيرة اشتَغلوا بالعِلم الدّهَر الأطولَ ؛ فلم ينجَعْ معهم العِلاج ، وفارَقوا الدّنيا وهم على الغَرِيزة الأولى فى الساذجيّة وعَدَم الفَهْم .

الأصل :

صَوَابُ الرَّأيِ بِالدُّوَلِ يُقْبِلُ بِإِقْبَالِهَا ، وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا .

***

الشرح :

قال الصُّولىُّ :

اجتمع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد فى آخِر دوْلتهم وهم يومئذ عشرة ، فأداروا بينهم الرأىَ فى أمرٍ فلم يصلح لهم ، فقال يحيى : إنا لله ! ذهبتْ واللهِ دولتُنا ! كنّا فى إقبالنا يُبرِم الواحدُ منّا عَشْرة آراء مُشكلة فى وقت واحد ، واليومَ نحنُ عَشرة فى أمرٍ غيرِ مُشكل ، ولا يَصِحّ لنا فيه رَأْى ! اللهَ نسأل حُسنَ الخاتمة .

أرسَل المنصورُ لمّا[1] هاضَه أمرُ إبراهيمَ إلى عمّه عبدِ الله بن علىّ وهو فِى السّجن يَستشيرُه مايصنَع ! وكان إبراهيمُ قد ظهر بالبَصرة ، فقال عبد الله : أنا محبوس ، والمحبوس محبوس الرأى ، قال له: فعلَى ذاك ؟ قال يُفرّق الأموال كلّها على الرّجال ويلقاه ، فإن ظَفِر فذاك ، وإلاّ يتوجّه إلى أبيه محمّد بجُرْجَان ، ويَتركه يقدُم على بُيوتِ أموال فارغة ، فهو خيرٌ له من أن تكون الدّبْرَة عليه ، ويقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة .

قال سليمانُ بن عبدالملك ليزيد بن أبى مُسلِم صاحبِ شُرْطة الحجاج يوماً: لعن اللهُ رجُلا أجرّك رَسَنه ، وخرّب لك آخرته . قال : يا أمير المؤمنين ، رأيتَنى والأمرُ عنّى مُدبر ولو رأيتَنى والأمرعلىّ مُقبِل لاستكبرْتَ منّى ما استصْغرْتَ ، ولاستعْظمت منى مااستحقرْتَ .

---

(١) ا : « حين » .

الأصل :

العَفَافُ زِينَةُ الفَقْرِ ، والشُّكْرُ زِينَةُ الغِنَى.

***

الشرح :

قد سَبَق القولُ فى أنّ الأجمل بالفقير أن يكون عفيفا ، وألّا يكون جَشِعا حَرِيصا ، ولا جادًّا فى الطّلب متهالِكا ، وأنّه ينبغى أنه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناء الوقت ، فإنّ التِّيه فى مِثل ذلك المَقام لا بأسَ به ، ليَبعُد جدًّا عن مَظِنّة الحِرْص وَالطّمع .

وقد سبق أيضا القولُ فى الشّكر عند النعمة ووجوبه ، وأنّه سبب لاستدامتها ، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالها ، وذكرنا فى هذا الباب أموراً مستحسَنة ، فلتراجَع ، وقال عبدُ الصّمد بنُ المعذّل فى العفاف :

سأقنَى العَفافَ وأرضَى الكَفافَ ... وليس غِنَى النفس حوزُ الجزيلِ
ولا أتصدّى لشُكْرِ الجوادِ ... ولا أستَعدّ لذمّ البَخيلِ
وأعْلَمُ أنّ بناتِ الرّجاء ... تُحِلّ العزيزَ مَحلّ الذّليلِ
وأنْ ليسَ مستغنِياً بالكثير ... مَن ليسَ مستغنياً بالقليلِ

(٣٤٨)

الأصل:

يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ، أشدُّ مِنْ يَوْمِ الجَوْرِ على المَظْلُومِ.

***

الشرح:

شيئان مُؤلمان: أحدُهما يُنقضى سريعاً، والآخر يدُوم أبداً؛ فلاَ جَرم، كان اليومُ المذكور على الظّالم؛ أشدّ من يَوْم الجور على المظلوم!

الأصْلُ :

الأقاويلُ مَحفُوظَةٌ ، والسَّرائِرُ مَبلُوَّةٌ و ﴿ كُلُّ نفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ . والنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، سائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ ، يَكَادُ أفْضَلُهُمْ رَأياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا والسُّخْطُ ، وَيَكَادُ أصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ ، وَتَسْتَحِيلُهُ الكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ .

***

الشَّرْحُ :

السرائر هاهنا : ما أُسِرَّ فى القلوب من النيّات والعقائد وغيرِها ، وما يخفَى من أعمال الجوارح أيضا . و بلاؤها : تعرُّفُها وتصفُّحُها ، والتميز بين ماطابَ منها وما خَبُثَ .

وقال عمر بنُ عبد العزيز للأحوص لمّا قال :

سَتَبْلَى لها فى مُضمَر القلبِ والحشا سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السّرائرُ

إنّك يومئذٍ عنها لمشغول .

ذكَر عليه السلام الناسَ فقال : قد عمّهم النّقص إلّا المعصومين . ثم قال : سائلُهم يَسألُ تعنُّتا ، والسّؤال على هذا الوجه مَذْموم ، ومجيبُهم متكلِّف للجواب ، وأفضلُهم رأيا يكاد رِضاهُ تارةً وسُخْطه أخرى يَرُدُّهُ عن فضل رأيه ، أى يتبعون الهوى

و يكاد أصلبُهم عودا ، أى أشَدّهم احتمالا .

تنكَؤُه اللّحظة ، نكأتُ القَرْحَة إذا صَدَمْتها بشىء فتقشرَها .

قال : « وتَستحيله الكلمةُ الواحدة » ، أى تحيله وتغيِّره عن مُقتضى طبعِه ؛ يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلوّن ، وأنّهم مُطيعون دواعِيَ الشّهوةِ والغضَب . واستَفعَل بمعنى « فَعَل » قد جاء كثيرا استَغلَظ العسل ، أى غَلظُ .



الأصْلُ :

قالَ : مَعَاشِرَ النَّاسِ ، اتَّقُوا اللهَ ؛ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مالا يَبْلُغُهُ ، و بانٍ مالا يَسْكُنُهُ ، وجامِعٍ ماسَوْفَ يَتْرُكُهُ ، ولَعلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، ومِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ ؛ أصابَهُ حَرَاماً ، واحْتَمَلَ بِهِ آثاماً ، فَباءَ بِوِزْرِهِ ، وقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ ، آسِفاً لاهِفاً ، قَدْ ﴿ خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ﴾ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم شرحُ هذه المعانى والكلامُ عليها ، أمّا الآمال التى لا تُبلَغ ، فأكثرمن أن تُحصَى ، بل لا نهايةَ لها .

وما أحسنَ قولَ القائل :

واحسرتا ماتَ حظّى من وصالِكُمُ وللحظوظِ كما للناس آجالُ
إنْ متّ شوقا ولم أبلُغْ مَدَى أملِى كم تحتَ هذى القبورِ الخُرْس آمالُ !

وأمّا بناء مالا يُسكَن ، فنحو ذلك .

وقال الشاعر :

ألم ترحَوْشَباً بالأمس يَبْنِى بناءً نفعُه لبنى نُفيلَهْ
يؤمّل أن يُعمَّرَ عمرَ نوحٍ وأمرُ الله يطرُق كلَّ ليلَهْ

وأمّا جامعُ ماسوفَ يترُكه ، فأكثرُ الناس ، قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يَسعَى ويَحسبها له أخو تَعَبٍ فى رَعْيها ودُءوبِ
غدَتْ وغدَا رَبٌّ سِواه يسوقُها وبُدِّل أحجاراً وجالَ قليبِ

(٣٥١)

الأصْلُ :

مِنْ العِصْمة تَعَذُّرُ المعَاصِى .

***

الشّرح :

قد وردتْ هذه الكلمة على صِيَغ مختلفة . من العِصْمة ألّا تقدر . وأيضا ، من العِصْمة ألّا تجد .

وقد رُوِيتْ مرفوعةً أيضاً .

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمة الّتى ذكرها المتكلّمون ، لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة ، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية عنده من المعصية ، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادِر فى اندفاع العقوبة عنه كالقادِر الذى لا يفعَل .

الأصل :

ماءُ وجْهِكَ جامِدٌ يُقطِرُهُ السؤالُ ، فانظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقطِرُهُ .

***

الشرح :

هذا حسَن ، وقد أخذَه شاعرٌ فقال :

إذا أظمأتكَ أكُفُّ اللِّئامِ   كفَتْكَ القَناعةُ شِبْعا وريَّا
فكنْ رَجُلا رِجْلُه في الثَّرى   وهامةُ همّته في الثُّريّا
فإنّ إراقةَ ماءِ الحياةِ   دونَ إراقةِ ماءِ المحيّا

وقال آخَرَ :

رددتَ لي ماءَ وجهي في صفيحتِه   ردَّ الصّقالِ بهاءَ الصّارمِ الجذِمِ
وما أبالِي وخيرُ القول أصدَقُه   حقَنتَ لي ماءَ وَجْهي أو حَقَنْتَ دَمي

وقال مصعب بنُ الزّبير : إنّي لأستحيي من رجل وجّه إليّ رغبتَه ، فباتَ ليلَته يتملْمَل و يتقلْقَل على فِراشه ، يَنتظِر الصّبح ، قد جعَلني أهْلًا لأن يقطر ماء وجهه لديّ أن أردّه خائبا .

وقال آخَر :

ما ماءُ كفَّيْك إن أرسلتَ مُزْنتَه   من ماءِ وَجْهي إذا استقطرْتَه عِوَضُ

الأصْلُ :

الثَّناءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقاقِ مَلَقٌ ، والتَّقْصِيرُ عَنِ الإسْتِحْقاقِ عِيٌّ أوْ حَسَدٌ .

***

الشَّرْحُ :

كانوا يَكرَهون أن يُثنىَ الشاعرُ فى شِعره على الممدوح الثَّناء المُفرط ؛ و يقولون : خيرُ المَدْح ما قارَبَ فيه الشاعر واقتصَد ، وهذا هو المذهَب الصَّحيح ، وإن كان قوم يقولون : إن خيرَ الشِّعر المنظومُ فى المدْح ما كان أشدّ مُغالاَة وأكثر تَبجيلاً وتعظيما وَوصْفا و نَعْتا .

و ينبغى أن يكون قوله عليه السلام محمولاً على الثَّناء فى وجهِ الإنسان ؛ لأنّه هو الموصوف بالمَلَق إذا أفرطَ ، فأمّا من يُثنِى بظَهْر الغَيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالمَلَق ؛ سواء كان مقتصِدا أو مسرِفا .

وقوله عليه السلام : « والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حَسَد » لا مزيد عليه فى الحسنِ ؛ لأنه إذا قصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثنى فقط من غير تعلّق له بالمُثنى عليه ، أو مع تعلُّق به ؛ فالأوّل هو العِيّ والحَصَر ، والثانى هو الحسد والمنافسة .

(٣٥٤)

الأصل :

أشَدُّ الذُّنُوب ما اسْتَهانَ بها صاحِبُها .

***

الشرح :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم وذكرنا العِلّة فيه ، وهى أنّ فاعلَ ذلك الذّنب قد جَمع بين فعل الذّنب وفِعْل ذَنْب آخَرَ ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به ، لأنّ المَعاصِي لاهين فيها ، والصغير منها كبير ، والحقير منها عظيم ، وذلك لجلالة شأن المَعْصىّ سبحانَه .

فأمّا من يذنب ويَستعظم ما أتاه ، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل ، لأنه يكاد يكون نادما [1] .

---

(١) بعدها في ا : « على ما فعل » .

الأصْلُ :

مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَافَاتَهُ ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ ، وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ ، وَمَنِ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ .

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ، ومن ماتَ قَلْبُه دَخَلَ النَّارَ .

وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيْرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ .

وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ .

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ .

***

الشَّرْحُ :

كلُّ هذه الفصول قد تقدّم الكلامُ فيها ، وهي عَشَرة :

أوّلها : من نَظَرَ في عَيْب نفسِه اشْتَغل عن عيبِ غيرِه ؛ كان يقال : أصلِح نفسَك أوّلا ، ثمّ أصلِح غيرَك .

وثانيها : من رضيَ برِزق الله لم يَحزَن على مافاته ؛ كان يقال : الحزْن على المَنافع الدنيوية سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضا بالقضاء .

وثالثها : من سَلّ سيفَ البَغْيِ قُتِل به ؛ كان يقال : الباغى مَصْروع وإن كثُر جنودُه .

ورابعُها : مَن كابَدَ الأمورَ عَطِب ، ومن اقتحَم اللُّجَجَ غَرِق ؛ مِثل هذا قولُ القائل :

مَن حارَبَ الأيّامَ أصبحَ رُمْحُه قِصَداً وأصبحَ سيفُه مَفْلولَا

وخامسُها : من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم ؛ هذا مِثل قولِهم : من عَرّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلومَنّ مَن أساء به الظّنّ .

وسادسُها : مَن كَثُر كلامُه... إلى قوله : دَخَل النار ؛ قد تقدّم القولُ فى المَنطِق الزائد ومافيه من المحذور ؛ وكان يقال : قلّما سَلِم مِكْثار ، أو أمِن مِن عِثار .

وسابعُها : مَن نَظَر فى عُيوب غيرِه فأنكرَها ثمّ رضِيَها لنفسه فذاكَ هو الأحمقُ بعَيْنِه ؛ كان يقال : أجهلُ الناسِ من يَرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه .

وثامنها : القَناعة مالٌ لا يَنفَد ؛ قد سَبَق القولُ فى هذا ، وسيأتى أيضا .

وتاسعُها : من ذَكَر الموتَ رضِىَ من الدّنيا باليسير ؛ كان يقال : إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَدا فأكْثِر ذِكْرَ الموت ، وأعلمْ أنّك ومَن تحسُده عن قليل مِن عَديد الهَلْكَى .

وعاشِرُها : من عَلِم أنّ كلامَه مِن عَمَلِه قلّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه ؛ لا رَيْبَ أنّ الكلامَ عَملٌ من الأعمال ، وفِعلٌ من الأفعال ، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرّك يدَه وإن كان عابثا ، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرِّك لسانَه فيما هو عبَث ، أو يَجرِى مَجرَى العبَث .

وقال الشاعر :

يَخوضُ أناسٌ فى الكلام ليُوجِزوا وللصّمتُ فى بعض الأحايينِ أوْجَزُ

إذا كنتَ عن أن تُحسِنَ الصّمتَ عاجزا فأنت عن الإبلاغ فى القولِ أعجزُ

الأصْلُ :

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ :
يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ .

***

الشَّرْحُ :

يُمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين .

أحدُهما أنّ كلَّ من وُجدَت فيه إحدى هذه الثلاث فهوَ ظالم ، إما أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاه ، فهو بعصيانه ظالم له ، لأنّه قد وضعه في غير موضعه ، والظُّلم في أصل اللغة ؛ هو هذا المعنى ، ولذلك سمّوا اللَّبَن يُشرَب قبل أن يبلُغ الرَّوْب مظلوماً ، لأنّ الشّرب منه كان في غيرِ موضعِه إذا لم يرُب ولم يَخرج زُبْدُه ، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذا لم يُطِعه . وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه . وإما أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة .

والوجه الثاني أنّ كلّ ظالم فلابدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه ؛ وهذا هو الأظهر .

الأصل :

عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ .

***

الشرح :

كان يقال : إذا اشتدّ المَضِيق ، اتّسعَتْ الطريق ، وكان يقال : توقّعوا الفَرَج عند ارتتاجِ المَخرَج ، وقال الشاعر :

إذا بَلَغ الحوادثُ مُنتهاها فَرَجٌ بُعيْدَها الفرجَ المُطِلاَّ
فكَمْ كربٍ تولّى إذ توالَى وكم خَطْبٍ تجلَّى حين جلَّى

وفى الأثر : تَضايَقِي تَنْفَرِجِي ، سَيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْرا .

والفَرْجة بفتح الفاء : التفصّي من الهمّ ، قال الشاعر :

ربّما تجزَع النفوسُ من الأمْرِ له فَرْجَةٌ كحل العِقال [1]

فأمّا الفُرْجة بالضّم ، ففُرْجة الحائط وما أشبهَه .

---

(١) لأمية أبي الصلت ، وقبله :

لاتضيقَنَّ فى الأمورِ فقد يُكْـشَفُ غماؤها بغيرِ احتيالِ

(٣٥٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِبعْضِ أصْحابه : لا تجْعَلَنَّ أكْثرَ شُغْلِكَ بأهْلِكَ ووَلَدِكَ ، فإنْ يَكُنْ أهْلُكَ ووَلَدُكَ أوْلياءَ اللهِ فإنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ أوْلياءَهُ ، وإنْ يَكُونوا أعْدَاءَ اللهِ فما هَمُّكَ وشُغْلُكَ بأعْدَاءِ اللهِ !

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى ، وهو أمر بالتفْويض والتوكُّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله ، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة ، وأرأف بالإنسان من أبيه وأمّه ؛ ثم إن كان الوَلَد في عِلم الله تعالى وليًّا من أولياءالله سبحانه ، فإنّ الله تعالى لا يضيِّعه ، قال سبحانه : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه ﴾[1] .

وكلُّ وليٍّ لله فهو متوكِّل عليه لا محالَة ، وإن كان عدوًّا لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره ، لأنّ أعداء الله تجب مُقاطعتهم ، ويَحرُم تولِّيهم ، فعلى كلّ حال لا ينبغي للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه .

واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصِّدّيقين ، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التي نَعرِفها ، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام .

ويعجبني قولُ الشاعر :

أيا جامعَ المالِ وَفّرْتَهُ ... لغيرك إذْ لم تكن خالدا
فإن قلتَ : أجمعُه للبَنِين ... فقد يَسبِق الوَلَدُ الوالدا
وإن قلت أخشى صروف الزمان ... فكن مِن تصاريفه واحدا

---

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٣٥٩)

الأصلُ :

أكْبَرُ العَيْبِ أنْ تَعِيبَ ما فِيكَ مِثْلُهُ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً .

وقال الشاعر :

إذا أنت عِبْتَ الأمر ثم أتيتَه فأنت ومَن تُزرِي عليه سَواء

(٣٦٠)

الأصْـلُ :

وهَنَّأ بحضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجلاً آخر بِغُلام وُلِدَ لَهُ فقَالَ لَهُ : لِيَهْنِئْكَ الْفارِسُ ! فقالَ عليهِ السلامُ :

لا تَقُلْ ذَلِكَ ، ولَكِنْ قل : شَكَرْت الْوَاهِبَ ، وبُورِكَ لَكَ فِى المَوْهُوبِ ، وبَلَغَ أشُدَّهُ ، ورُزِقْتَ بِرَّهُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية ، فنُهِيَ عنها كما نُهِيَ عن تحيّة الجاهلية : « أبيتَ اللّعن » ، وجُعِل عِوَضَها « سلامٌ عليكم » .

وقال رجلٌ للحَسَن البَصْرى وقد بَشّره بغلام : لِيَهْنِئك الفارسُ ! فقال : بل الراجل ، ثم قال : لا مرحبا بمن إنْ عاش كَدّنى ، وإن مات هَدّنى ، وإن كنتُ مُقِلاً أنصبَنى ، وإن كنتُ غَنِيّاً أذهَلَنى ، ثم لا أرضَى بسَعْيي له سَعْيا ، ولا بكدِّى عليه فى الحياةِ كَدّا ، حتى أُشفِق عليه بعد موتى من الفاقة ، وأنا فى حالٍ لا يصل إلىّ من فرحِهِ سرورٌ ، ولا من همِّه حزن .

الأصْلُ :

وبَنَى رَجُلٌ مِن عُمّالِهِ بناءً فَخْماً فقالَ عليهِ السلامُ :
أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ رُءوسها ؛ إنَّ الْبِناء يَصِفُ لكَ الْغِنَى .

* * *

الشَّرْحُ :

قد رُوِيَتْ هذه الكلمةُ عن عمر ــ رضى الله عنه ــ ذَكر ذلك ابن قُتَيْبة فى " عُيون الأخبار " .

ورُوِىَ عنه أيضا : لى على كلّ خائنٍ أمينان : الماء والطِّين .

قال يحيى بنُ خالد لابنه جعفر حين اختطَّ دارَه ببَغداد ليبنيَها : هى قميصُك ، فإن شئت فوسِّعه ، وإن شئت فضيِّقه .

ورآه وهو يجصِّص حيطان دارِه المبنيَّة بالآجُر ، فقال له : إنك تَغطِّى الذهبَ بالفِضّة ، فقال جعفر : ليس فى كلّ مكان يكون الذهبُ خيراً من الفضّة ، ولكن هل ترَى عيبا ؟ قال : نعم ، مخالَطَتُها دُورَ السُّوقة .

وقيل ليزيد بن المهلَّب .

ألا يَبْنى الأمير داراً ؟ فقال : منزلى دارُ الإمارة أو الحبْس .

وكان يقال ، فى الدار : لتكُن أوّل ما يُبْتاع وآخرَ ما تُباع .

ومرَّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبني داراً فقال : من ذا الذى يقيم كَفِيلا .

وقالوا : كلُّ ما يخرُج بخروجك ، ويَرجع برُجوعك ، كالدّار والنّخل ونحوهما فهو كَفِيل .

الأصلُ

وقيلَ لهُ عليهِ السلامُ : لَوْسُدَّ على رَجُلٍ بابُ بَيْتٍ وتُرِكَ فِيهِ ، مِنْ أَيْنَ كانَ يأتيهِ رِزْقُهُ ؟ فقال عليهِ السلامُ :

منْ حَيْثُ يأتيهِ أجلُهُ .

* * *

الشرح :

ليس يعنى عليه السلام أنّ كلّ من يُسَدّ عليه بابُ بيت ؛ فإنه لا بدّ أن يرزقه الله تعالى ، لأنّ العيان والمُشاهَدة تقتضى خلافَ ذلك ؛ وما رأينا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش ، ولا ريب أنّ مَنْ شَقّ أسْطوانة وجُعِل فيها حيًّا ثم بنيت الأسْطُوانة عليه فإنه يموت مختنقا ، ولا يأتيه رزقُه ولا حياتُه ؛ ولأنّ للحكماء أن يقولوا فى الفَرْق بين الموضعين : إنّ أجَله إنما يأتيه لأنّ الأجَل عدم الحياة ، والحياةُ تَعدَم لعدَم ما يوجبها ، والذى يُوجب استمراها الغِذاء ، فلما انقطع الغِذاء حَضَر الأجل ، فهذا هو الوجه الذى يأتيه منه أجَلُه ، ولا سبيل إلى ذكر مثله فى حُضور الرّزق لمن يُسَدّ عليه الباب .

فإذاً معنى كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يجعل فى دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنّ فى بقاء حياتِه لُطفًا لبَعْض المكلّفين فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته ، كما يشاء سبحانه ؛ إما بغذاء يقيم به مادة حياته ، أو

أو يديمُ حياتَه بغير سبب ، وهذا هو الوجه الذى منه يأتيه أجَـلُه أيضا ، لأنّ إماتةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة ، لأنه لابدّ من انقطاع التكليف على كلّ حال للوجه الذى يذكره أصحابنا فى كُتُبهم ، فإذا كان الموتُ تابعاً للمصلحة ، وكان الإحياء تابعاً للمصلحة ، فقد أتى الإنسانَ رِزقه — يعنى حياته — من حيثُ يأتيه أجَـلُه. وانتظمَ الـكلام .



الأصل :

وَعَزّى قوْمًا عَنْ مَيّتٍ مَاتَ لَهُمْ فَقَالَ عَلَيهِ السلامُ :

إنَّ هذَا الْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَأ، ولا إلَيْكُمُ انتهى ، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هذَا يُسَافِرُ ؟ فقَالُوا : نعم ؛ قَالَ : فعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ ، فإنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإلّا قَدِمتُمْ عَلَيْهِ .

***

الشرح :

قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهديّ ببعض هذا في شِعرِه الذي رثَى به ولدَه فقال :

يئوب إلى أوطانِهِ كلُّ غائبٍ ... وأحمدُ في الغُيّاب ليسَ يئوبُ[1]

تَبدّل داراً غيرَ دارِي وجيرةً ... سوايَ وأحداثُ الزمانِ تنوبُ

أقامَ بها مستوطِناً غيرَ أنّه ... على طُولِ أيّام الْمُقامِ غَرِيبُ[2]

وإنّي وإنْ قُدِّمتَ قَبلِي لعالِمٌ ... بأنّي وإنْ أبطأتُ عنكَ قريبُ

وإنّ صَباحاً نلتقي في مَسائه ... صباحٌ إلى قلبي الغَداةَ حَبيبُ

---

(١) من كلمة له في الكامل ٤ : ٢٣ ــ ٢٥

(٢) بعده :

كأنْ لم يكُنْ كالغصنِ في مَيْعَةِ الضُّحَى ... سقَاهُ النّدَى فاهتزّ وهوَ رَطيبُ

(٣٦٤)

الأصل :

أيُّهَا النَّاسُ ، لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ ، كَما يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ . إنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً ، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً ، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِبَاراً ، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً .



* * *

الشرح :

قد تقدّم القول فى استدراج المترف الغنى ، واختبار الفقير الشقى ، وأنه يجب على الإنسان و إن كان مشمولا بالنعمة أن يكون وَجِلا[1] ، كما يجب عليه إذا كان فقيرا أن يكون شكورا صبورا .

(١) وجلا : خائفاً .

الأصْـلُ :

يا أَسْرَى الرَّغْبَةِ ، اقْصِرُوا ، فإنَّ المُعَرِّجَ على الدُّنيا لا يَرُوعُهُ مِنْها إلّا صَرِيفُ أنْيَابِ الحِدْثانِ .

أيُّها النَّاسُ ؛ تَوَلَّوْا عَنْ أنْفُسِكُمْ تأدِيبَها ، واعْدِلُوا بِها عَنْ ضَرَاوَةِ عاداتِها .

* * *

الشَّـرْحُ :

ضرِىَ يضرِى ضِرايةً مثل رمى يرمى رماية ، أى جرى وسالَ ، ذكره ابنُ الأعرابىّ ، وعليه ينبغى أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ أى اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية ، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وهذا خيرٌ مِن تفسير الرّاوَنْدِىّ ؛ وقوله : إنّه من ضَرِىَ الكلبُ بالصّيد ؛ لأنّ المصدر من ذلك الضَّرَاوة بالواو وفَتْح الضاد ، ولم يأت فيه ضراية .

وقوله : « يا أسرَى الرغبة » كلمةٌ فصيحةٌ .

وكذلك قوله : « لا يَرُوعُه منها إلّا صَرِيفُ أنياب الحِدْثان » ، وذلك لأنّ الفَهْد إذا وَثَب والذِّئبَ إذا حمَل يَصرِف نابُه ، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية جاءت ! تصرِفُ نابُها . والصَّرِيف : صوتُ الأسنان إمّا عند رِعْدةٍ أو عند شِدّة الغَضَب والحَنَق ، والحِرص على الانتقام ، أو نحو ذلك .

وقد تقدّم الكلامُ فى الدّنيا والرغبةِ فيها ، وغَدْرِها وحوادِثِها ، ووجوب العُدُول عنها ، وكسر عادية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها .

الأصل :

لا تَظُنَّنَّ بكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً وأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخَيْرِ مُحْتَمَلاً[1] .

***

الشرح :

هذه الكلمة يرويها كثير من الناس لعمر بن الخطّاب ، ويرويها بعضهم لأمير المؤمنين عليه السلام . وكان ثمامة يحدّث بسؤدد يحيى بن خالد وابنه جعفر . ويقول : إنّ الرشيد نكب عليّ بن عيسى بن ماهان[2] وألزمه مائة ألف دينار أدّى منها خمسين ألفا ، وباح بالباقي ، فأقسم الرشيد إنْ لم يؤدّ المال في بقية هذا اليوم وإلّا قتله . وكان عليّ بن عيسى عدوّاً للبرامكة مكاشفاً ، فلمّا علم أنه مقتول سأل أن يمكّن من السعي إلى الناس يستنجدهم ، ففسح له في ذلك ، فمضى ومعه وكيل الرّشيد وأعوانه إلى باب يحيى وجعفر ، فأشبلا عليه[3] وصحّحا من صلب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم عليّ بن عيسى ، واستخلصاه؛ فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما أنّ عليّ بن عيسى قال في آخر نهار ذلك اليوم متمثّلا :

فما بُقيا عليّ تركتماني ولكن خفتما صَرَدَ النبالِ[4]

---

(١) في د « محلا » ؛ وهو يستقيم أيضاً .
(٢) ب : « هامان » تصحيف .
(٣) أشبلا : عطفا .
(٤) اللسان (صرد) ، ونسبه إلى اللعين المنقري يخاطب جريراً والفرزدق . وصرد السهم : نفذ حده

فقال يحيى للناقل إليه ذلك : ياهذا إنّ المرعوب ليسبق لسانُه إلى مالم يَخطِر بقَلْبه .

وقال جعفر : ومن أين لنا أنّه تمثّل بذلك وعَنَانا ، ولعلّه أراد أمراً آخر فكان ثمامة يقول : ماف الأرض أسوَدُ من رَجلٍ يتأوّل كلاَم عدوّه فيه ويَحمِله على أحْسنِ مَحامِله .

وقال الشاعر :

إذا ما أتتْ من صاحِبٍ لك زَلّةٌ   فكنْ أنت مُحتالا لزَلّته عُذْرَا[1]

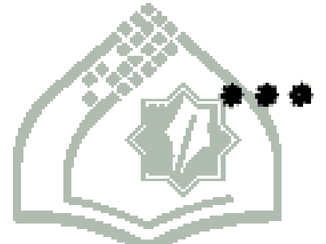


(١) لسالم بن وابصة ، من كلمة له فى أمالى القالى ٢ : ٢٢٤

الأصْلُ :

إذَا كَانَتْ لَكَ إلَى اللهِ سُبْحانَهُ حاجَةٌ فَابْدأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ سَلْ حاجَتَكَ ؛ فَإنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حاجَتَيْنِ ، فَيَقْضِيَ إحْدَاهُما وَيَمْنَعَ الأُخْرَى .

***



الشَّرْحُ :

هـذا الكلام على حَسَب الظاهر الذى يتعارفه الناس بينهم ، وهو عليه السلامُ يسلكُ هذا المسلكَ كثيرا ، ويُخاطِب الناسَ على قَدْر عقولهم ، وأمّا باطنُ الأمر فإنّ الله تعالى لا يُصلِّى على النبيّ صلّى الله عليه وآله لأجل دُعائِنا إيّاه أن يصلّىَ عليه ، لأنّ معنى قولنا : اللهمّ صلّ على محمد ، أى أكرِمْه ، وارفَعْ درجتَه ، والله سبحانه قد قضَى له بالإكرام التامّ ورِفعَةِ الدّرجة من دُون دعائِنا ، وإنّما تَعبّدنا نحن بأن نُصَلِّى عليه لأنّ لنا ثوابا فى ذلك ، لا لأنّ إكرامَ الله تعالى له أمرٌ يَستعقِبُهُ ويستتبِعُه دعاؤنا .

وأيضا فأىّ غَضاضةٍ على الكريم إذا سُئِل حاجَتَين فقَضَى إحداهما دونَ الأُخرى إنْ كان عليه فى ذلك غَضاضةٌ فعليه فى رَدّ الحاجة الواحدة غَضاضةٌ أيضا .

الأصلُ :

مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدَّم من القولِ في المِراء مافيه كفاية ، وحدُّ المِراء الجِدالُ المتّصِل لا يُقصَد به الحقّ .

وقيل لمَيمون بن مِهران : مالَكَ لا تُفارِقُ أخاً لكَ عن قِلًى ؟ قال : لأنّى لا أشاريه ولا أُماريه .

وكان يقال : ماضَلّ قومٌ بعدَ إذْ هداهم اللهُ [تعالى[1]] إلّا بالمراء والإصرارِ فى الجِدال على نُصْرة الباطل .

وقال سُفيان الثَّوْرى : إذا رأيتم الرّجل لَجوجا مُمارِيًا معجبا بنفسه فقد تمّت خسارتُه .

---

(١) من د .

(٣٦٩)

الأصْلُ :

مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإمْكَانِ ، وَالْأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ .

* * *

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذين المَعْنَيَيْن .

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ : إهمالُ الفُرْصة حتّى تفوتَ عجز ، والعَجَلَة قبل التمكُّن خرْق .

وقد جعَل أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقا ؛ وهو صَحيح ، لأنّ الخُرْق الحمقُ ، وقلّة العقل ، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقص .

الأصل :

لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ .

***

الشرح :

من هذا الباب قولُ أبى الطَّيِّبِ فى سيف الدولة [١] :

لِيسَ الدائمُ تَستوفِى مَناقِبَـــهُ ... فَمَن كُلَيبٌ وأهلُ الأعصُرِ الأُوَلِ [٢]

خُــذْ ماتَرَاه ودَعْ شيئاً سمعتَ به ... فى طلعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ [٣]

---

(١) ديوانه ٣ : ٨١ .

(٢) كليب هو ابن ربيعة رئيس بنى تغلب وسيدهم فى الجاهلية .

(٣) بعده :

وقدْ وَجدْتَ مكانَ القولِ ذا سعةٍ ... فإن وجَدْتَ لساناً قائلاً فَقُلِ

الأصل :

الفِكرُ مرآةٌ صافِيَةٌ ، والاعتِبارُ مُنذِرٌ ناصِحٌ ، وكَفَى أدَباً لِنفسِكَ تجنُّبُكَ ما كَرِهتَهُ لِغَيرِكَ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القولُ في نحو هذا . وفي المَثَل : كَفَى بالاعتبار منذراً ، وكفى بالشَّيب زاجرا ، وكفى بالموتِ واعِظا ، وقد سَبَق القولُ في وُجوب تجنُّب الإنسانِ ما يَكرَهه من غيره .

وقال بعضُ الحكماء : إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنه ، وإن أبغضتَها فلا تَكُنه . أخَذَه شاعرُهم فقال :

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ ‏ ‏ فكُنه يَكنْ منكَ مايُعْجِبُكْ

فليسَ على المجدِ والمَكرُماتِ ‏ ‏ إذا جئتَها حاجبٌ يَحْجُبُكْ

(٣٧٢)

الأصْـلُ :

ٱلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ، وَٱلْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ .

***

الشَّـرْحُ :

لا خيرَ فى عِلمٍ بلا عَمَل ، والعِلمُ بغيرِ العَمَل حُجَّةٌ على صاحبه ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لا عالِمَ إلّا وهو عامِل ، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان ؛ ولا رَيْبَ أن العارف لابدّ أن يكون عاملا .

ثمّ استأنف فقال : العِلمُ يهتف بالعَمَل أى يُناديه ، وهذه اللّفظة استعارة .

قال : فإن أجابَه وإلّا ارتحل ، أى إن كان الإنسانُ عالما بالأمور الدّينيّة ثمّ لم يعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه ، ولم يَمُتْ إلا وهو معدود فى زُمْرة الجاهلين ، ويُمكِن أن يفسّر على أنّه أراد بقوله : ارتَحَل ارتحلَتْ ثمرتُه ونتيجتُه ، وهى الثّواب ، فإنّ الله تعالى لا يُثيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يعمَل بها ، لأنّ إخلالَه بالعَمَل يُحبِط ما يستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قدّرنا أنّه استحَقّ على العِلم ثوابا ، وأتَى به على الشّرائطالّتى معها يستحِقّ الثواب .

الأصلُ :

أيُّها النَّاسُ متاعُ الدُّنيا حُطامٌ مُوبِئٌ ، فَتَجَنَّبُوا مَرْعاهُ قُلْعَتُها أحظى مِنْ طُمأنينَتِها ، وبُلْغَتُها أزكى مِن ثَرْوَتِها ، حُكِمَ على مُكْثِرِيها بالفاقَةِ ، وأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنها بالرَّاحَةِ ، مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُها أعقبَتْ ناظِرَيْهِ كَمَهاً ، ومَنِ استَشْعَرَ الشَّغَفَ بِها مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أشجاناً ، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ ، وغَمٌّ يَحْزُنُهُ ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بالفَضاءِ ، مُنْقَطِعاً أبْهَراهُ ، هَيِّناً عَلَى اللهِ فَناؤُهُ ، وعَلَى الإخْوَانِ إلْقاؤُهُ .

إنَّما يَنظُرُ المُؤمِنُ إلَى الدُّنيا بِعَيْنِ الاعتِبارِ ، ويَقْتاتُ مِنْها بِبَطْنِ الاضطِرارِ ، ويَسْمَعُ فِيها بِأُذُنِ المَقْتِ والإبْغاضِ ، إنْ قِيلَ أثْرَى قِيلَ أكْدَى ، وإنْ فُرِحَ لَه بالبَقاءِ حُزِنَ لَهُ بالفَناءِ ، هَذا ولَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

* * *

الشرح :

مَتاعُ الدنيا : أموالها وقُنْيَاتُها .

والحُطام : ما تكسَّر من الحشيش واليَبَس ، وشَبَّه متاع الدنيا بذلك لحقارته .

ومُوبِئٌ : مُحدث للوباء ، وهو المرض العامّ .

ومَرْعاة : بقعةٌ تُرعى ، كقولك مَأسَدة فيها الأسد ، ومَحياة ، فيها الحيّات .

وقلعتها بسكون اللام . خيرٌ من طمأنينتها : أى كون الإنسان فيها منزعجا متهيئاً

للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكنا إليها، مطمئنًا بالمُقام فيها .

والبُلْغة : ما يتبلَّغ به . والثروة : اليسار والغِنَى ، وإنما حُكِم على مُكثِريها بالفاقة والفقْر لأنّهم لا ينتهون إلى حَدٍّ من الثروة والمال إلاّ وجدّوا واجتهدوا ، وحرَصوا فى طلب الزّيادة عليه ؛ فهمْ فى كلّ أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال ، كما أنّ من لا مال له أصلا يَجِدّ ويجتهد فى تحصيل المال ، بل ربما كان جِدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه ، ورُوى: « وأعين من غَنِيَ عنها» ومن رواه« أغْنَى» أى أغنَى اللهُ ، من غَنِيَ عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ .

والزِّبْرِج : الزّينة ، وراقه : أعجَبَه .

والكَمَه : العمى الشديد ، وقيل : هو أن يولد أعمى .

والأشجان : الأحزان .

والرّقَصُ بفتح القاف : الاضطراب [1] والغليَان والحركة .

والكظَمَ بفتح الظاء : مجرى النَّفَس .

والأبْهران : عِرْقان متّصلان بالقلب ؛ ويقال للميّت : قد انقطَع أبهَراه .

قوله : «وإنما ينظرُ المؤمن» : اخْبارٌ فى الصورة، وأمْرٌ فى المعنى ، أى لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتِبار ، وليأ كُل منها ببطن الاضطرار ، أى قَدْر الضرورة ، لا احتكار أو استكثار ؛ وليَسْمع حديثَها بأُذُن المَقْت والبُغْض ، أى ليتّخذها عدُوّا قد صاحَبَه فى طريق ، فليأخذ حِذْرَه منه جُهْده وطاقته ، وليَسْمَع كلامه وحديثه لا أسماع مُصْغٍ ومحِبٍّ وامِق ، بل استماع مُبغِض محترز مِن غائلته .

***

---

(١) ب : « الاضطرار » تحريف .

ثم عاد إلى وصفِ الدنيا وطالبها فقال : إنْ قيل أثْرَى قيل : أَكْدَى ، وفاعِلُ « أثْرَى » هو الضّمير العائد إلى مَن استشعر الشَّغَفَ بها . يقول : بينا يقال : أثْرَى ، قيل : افتقر ، لأن هذه صِفة الدنيافى تقلبها بأهلها ، وإن فرح له بالحياة ودوامِها ، قيل : مات وعَدِم ، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبلِسون ، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبلاسا أى قَنِط ويئس ، واللفظ من لفظات الكتاب العزيز[1] .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى وصف حال الدنيا وصروفها]

وقد ذكرْنا من حالِ الدنيا وصُروفِها وغَدرِها بأهلها فيما تقدّم أبوابا كثيرة نافعة .

ونحن نذكرها هنا زيادةً على ذلك .

فمن كلامِ بعض الحكماء : ويلٌ لصاحِب الدنيا ، كيف يموت ويتركها ، وتغرّه ويأمَنها وتخذُله ويثق بها ! ويلٌ للمغترّين ، كيف أتاهم ما يكرهون ، وفاتَهم ما يُحِبّون ، وجاءهم ما يوعَدون ! ويلٌ لمن الدنيا همّه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضِح غداً بذَنبه .

ورَوَى أنس قال : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسبَق ، فجاء أعرابيٌ بناقةٍ له فسبَقها ، فشَقّ ذلك على المسلمين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حقٌّ على الله ألاّ يرفع فى الدنيا شيئاً إلاّ وضعه » .

وقال بعضُ الحكماء : من ذا الذى يبنى على مَوْج البحر داراً ! تلكُم الدنيا ، فلا تتخِذوها قرارا .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الروم ١٢ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وقيل لحكيم : علِّمنا عملا واحدا إذا عملناه أحبَّنا الله عليه ، فقال : ابغضوا الدنيا يُحببكم الله .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو تعلمون ما أعلمَ لضَحِكتم قليلا ، ولبَكيتم كثيرا ، ولهانت عليكم الدنيا ، ولآثرتم الآخرة » .

ثم قال أبو الدَّرداء مِنْ قِبَل نفسه : أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات تبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلاّ ما لابدَّ لكم منه ، ولكنْ غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة ، وحضرَها الأمَل ، فصارت الدنيا أملَكَ بأعمالِكم ، وصِرتم كالذين لا يَعلمون ، فبعضُكم شرٌّ من البهائم التي لا تَدَع هواها ، مالكم لا تحابُّون ولا تناصَحون في أموركم ، وأنتمْ إخوانٌ على دينٍ واحد ، ما فرَّق بين أهوائكم إلاّ خُبْثُ سرائِركم ، ولو اجتمعتمْ على البرِّ لتحاببتم ، مالكم لا تناصَحون في أمورِكم ، ما هذا إلاّ مِن قِلَّة الإيمان في قلوبكم ، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة ، فإنْ قلتمْ حبّ العاجلة غالبٌ ، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل منها ، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا ، وتحزنون على اليَسير منها يفوتكم ، حتى يتبيَّن ذلك في وجوهكم ، ويظهر على ألسِنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتُقيمون فيها المآتم ، وعامّتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثمّ لا يتبين ذلك في وجوهِهم ، ولا تتغيّر حالٌ بهم ، يَلقى بعضهم بعضاً بالمسرّة ، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يَكرَه مخافةَ أن يستقبله صاحبهُ بمثله ، فاصطَحبتم على الغِلّ ، ونَبتتْ مراعِيكم على الدِّمَن ، وتصافَيتم على رَفض الأجلّ ، أراحني الله منكم ، وألحقني بمن أحِبُّ رؤيته .

وقال حكيم لأصحابه : ارضُوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدِّين ، كما رَضيَ أهلُ الدنيا بدَنيءِ الدِّين مع سلامةِ الدُّنيا .

وقيل فى معناه :

أرَى رجالاً بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ولا أراهمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّونِ

فاستغن بالدِّين عن دُنيا الملوكِ كما اسْتَغْنَى الملوكُ بِدُنياهمْ عن الدِّينِ

وفى الحديث المرفوع : « لتأتينّكُم بَعْدِى دُنيا تأكل إيمانَكم كما تأكل النارُ الحطَب » .

وقال الحَسَن رحمه الله : أدركتُ أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدَّوْها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم رَكضوا خِفافا .

وقال أيضا : من نافَسك فى دِينك فنافِسْه ، ومن نافَسك فى دُنياك فألقِها فى نَحْره .

وقال الفُضيل : طالت فكْرتى فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ (١) .

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح فى شىء من الدُّنيا إلاّ وقد كان له أهلٌ قَبْلك ، ويكون له أهلٌ من بعدك ، وليس لك من الدّنيا إلّا عَشاء ليلة ، وغَداء يومٍ ، فلا تُهلِك نفسَك فى أُكْلة ، وصُمْ عن الدُّنيا وأفطِرْ على الآخرة ، فإنّ رأسَ مالِ الدنيا الهوى ، ورِبحها النار .

وقيل لبعض الرُّهْبان : كيف ترَى الدهر ؟ قال : يُخلِق الأبدان ، ويجدِّد الآمال ، ويقرّب المنيّة ، ويباعد الأُمنيّة . قيل : فما حالُ أهلِهِ ؟ قال : مَنْ ظفِر به تَعِب ، ومن فاته اكتأب .

ومن هذا المعنى قولُ الشاعر :

ومَن يَحمَد الدنيا لعيشٍ يَسُرُّهُ فسوفَ لَعَمرِى عن قليلٍ يلومُها

(١) سورة الكهف ٧ ، ٨

إذا أدبرتْ كانتْ على المرء حَسرةً ... وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُها

وقال بعضُ الحكماء: كانت الدّنيا ولم أكُنْ فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، ولستُ أسكُن إليها، فإنّ عَيْشها نَكَد، وصَفْوها كَدَر، وأهلَها منها على وجَل، إمّا بنعمةٍ زائلة، أو ببليّة نازِلة، أو مِيتة قاضِيَة. وقال بعضهم: من عَيْب الدّنيا أنّها لا تُعطِي أحداً مايستحقّ إما أن تَزِيد له، وإما أن تنقصُ.

وقال سُفيان الثّوْرِيّ: أما تَروْن النِّعم كأنّها مغضوبٌ عليها، قد وُضِعَتْ فى غير أهلها.

وقال يحيى بن مُعاذ: الدنيا حانوتُ الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئا، فإنّه يجيء فى طَلَبك حتّى يأخُذَك.

وقال الفُضَيل: لو كانت الدّنيا من ذَهَب يَفنى والآخرةُ من خَزَفٍ يبْقى لكانَ يَنبغِي لنا أن نختار خَزَفا يَبقَى على ذَهب يفْنى، فكيف وقد اخترْنا خَزَفا يَفْنى على ذَهَبٍ يَبقى!

وقال بعضُهم: ما أصبح أحدٌ فى الدّنيا إلاّ وهوَ ضَيْف، ولا شُبْهَةَ فى أنّ الضيف مُرتحِل، وما أصبَح ذو مال فيها إلا وماله عاريّة عنده، ولا ريْب أنّ العارِيّة مردودة.

ومثل هذا قول الشاعر:

وما المالُ والأهْلُون إلّا وديعةٌ ... ولا بدّ يوما أن تُردَّ الودائعُ[1]

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فأنشدَ:

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتمزيق دِينِنا ... فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرَقِّعُ

---

(١) للبيد، ديوانه ١٧٠.

وزارَ رابعةَ العَدَويّةَ أصحابُها ، فذَكَروا الدّنيا فأقبلوا على ذَمِّها ، فقالت : اسكُتوا عن ذِكْرِها وكُفُّوا ، فلولا مَوقِعُها في قلوبكم ما أكثرتم من ذِكرِها ، إنّ من أحَبّ شيئاً أكثرَ من ذكره .

وقال مُطرِّفُ بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خَفْضِ عَيْشِ الملوك ، ولين رِياشِهم ، ولكن انظُروا إلى سُرعة ظَعْنِهم ، وسوء منقلَبِهم قال الشاعر :

أرَى طالبَ الدُّنيا وإن طالَ عمرُهُ ونال من الدّنيا سروراً وأنعُما
كَبانٍ بنى بُنيانَه فأقامَه فلمّا استوَى ماقد بَناه تَهدَّما

وقال أبو العتاهية :

تعالَى اللهُ ياسَلْمَ بنَ عَمرٍو أذَلَّ الحِرصُ أعناقَ الرِّجالِ[1]
هَبِ الدّنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى الزوالِ!
وما دُنياكَ إلاّ مثلُ فَيْءٍ أظلّكَ ثمّ آذن بانتقالِ

وقال بعضُهم : الدّنيا جيفةٌ ، فمن أراد منها شيئاً فليَصبِر على مُعاشرة الكلاب .

وقال أبو أُمامةَ الباهليّ : لمّا بَعثَ اللهُ محمّدا صلى الله عليه وسلّم أتتْ إبليسَ جنودُه وقالوا : قد بُعِث نبيّ ، وجدّدت مِلّة وأمّة ، فقال : كيف حالُهم ؟ أيحِبُّون الدنيا ؟ قالوا : نعَمْ . قال : إن كانوا يحبّونها فلا أبالي ألّا يَعبُدوا الأصنام ، فإنّما أغدُو عليهم وأرُوح بثلاث : أخْذِ المال من غيرِ حقّه ، وإنفاقِه في غير حقّه ، وإمساكِه عن حقّه ، والشرُّ كلّه لهذه الثلاث تَبَع .

وكان مالكُ بنُ دينار يقول : اتقوا السحّارة فإنّها تسحرَ قلوبَ العلماء ، يعني الدُّنيا .

---

(١) ديوانه ٢٠٦

وقال أبو سليمانَ الرازيّ: إذا كانت الآخرة فى القلْبِ جاءت الدّنيا فزاحمتْها، وإذا كانت الدّنيا فى القلْبِ لم تُزاحِمْها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال مالكُ بن دينار: بقَدْر ماتحزَن للدّنيا يخرُج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدْر ماتحزن للآخرة يخرُج همّ الدنيا من قلبك. وهذا مُقتبَس من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام: الدنيا والآخرةُ ضرّتان: فبقدْرِ ماترْضِى إحداهما تُسخِط[1] الأخرى.

وقال الشاعر:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفسِها ... تَنَحَّ عن خِطْبتِها تَسْلَمِ
إنّ التى تخطُب غدّارةٌ ... قريبةُ العرْسِ من المأتَمِ

وقالوا: لو وصَفَت الدُّنيا نفسَها لما قالت أحسَنَ من قولِ أبى نُواس فيها:

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ[2]

ومِن كلام الشافعىّ يعظُ أخاً له: ياأخِى، إنّ الدّنيا دَحْض مَزَلّة[3]، ودارُ مَذَلّة؛ عُمرانُها إلى الخراب سائر، وساكنُها إلى القبور زائر؛ شَملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفقْر مصْروف، الإكثارُ فيها إعْسار، والإعْسار فيها يَسار؛ فافْزَعْ إلى الله، وأرضَ برِزق الله، ولا تَستسلِف من دار بقائِك فى دارِ فَنائك، فإنّ عيشك فىءٌ زائل، وجِدارٌ مائل. أكثِرْ من عَمَلك، وأقصِرْ من أمَلِك.

وقال إبراهيمُ بنُ أدْهم لرجل: أدِرْهمٌ فى المنام أحَبُّ إليك أم دينارٌ فى اليَقَظة؟ فقال: دينارٌ فى اليَقَظة. فقال: كَذَبْتَ، إنّ الّذى تُحِبّه فى الدّنيا فكأنّك تُحِبّه فى المنام، والّذى تحبُّه فى الآخرة فكأنّك تحبّه فى اليَقَظة.

وقال بعضُ الحُكَماء: من فَرِح قلبُه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحِكْمة، ومن

---

(١) ب: « تسقط »
(٢) ديوانه ١٩٢
(٣) الدحض: المكان الزلق.

جَعَل شهوتَه تحتَ قدمَيه فَرَقَ الشيطانُ من ظِلِّه ، ومَن غَلَبَ عِلْمُهُ هَواهُ فهو الغالب .

وقال بعضُهم : الدنيا تُبَغِّضُ إلينا نفسَها ونحن نحبُّها ، فكيف لو تحبَّبتْ إلينا !

وقال بعضهم : الدنيا دارُ خراب ، وأخرَبُ منها قلبُ من يعمُرُها ، والجنّة دارُ عُمْرَان ، وأعمَرُ منها قَلْب من يَطْلُبُها .

وقال يحيى بنُ مُعاذ : العُقَلاء ثلاثة : مَن تَرَكَ الدنيا قبل أن تترُكَه ، وبَنَى قبرَه قبل أن يَدخُلَه ، وأرْضَى خالقَه قبل أن يَلْقاه .

وقال بعضهم : مَنْ أرادَ أن يستغنيَ عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفِئ النارِ بالتِّبْنِ .

ومن كلامِ بعضِ فُصَحاء الزّهّاد : أيّها الناس اعمَلوا في مَهَل ، وكونوا من الله على وَجَل ، ولا تغترّوا بالأمَل ، ونِسيانِ الأجلِ ، ولا تركَنوا إلى الدنيا ؛ فإنّها غدّارة غرّارة خدّاعة قد تزخرفتْ لكم بغرُورها ، وفتَنَتْكم بأمانيّها ، وتزيّنتْ لخطّابها ، فأضحت كالعَروس المتجلّية ، العيونُ إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها عاكفة ، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قتَلتْ ، ومطمئنٍّ إليها خذَلَتْ ! فانظروا إليها بعينِ الحقيقة ، فإنّها دارٌ كثرت بوائقُها ، وذمَّها خالقُها ، جديدُها يَبلَى ، ومُلكُها يَفنَى ، وعزيزُها يَذِلّ وكثيرُها يَقِلّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوت ؛ فاستيقِظوا من غفلتِكم ، وانتبهوا من رَقْدتِكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، ومدنَفٌ ثقيل ، فهل على الدّواء من دليل ، وهل إلى الطبيب مِن سبيل ؟ فتُدعَى لك الأطبّاء ، ولا يُرجَى لك الشفاء ، ثمّ يقال : فلانٌ أوصَى ، ومالَه أحصَى ، ثمّ يقال : قد ثقُل لسانُه فما يكلِّمُ إخوانَه ، ولا يَعرِف جيرانَه ، وعَرِق عند ذلك جبينُك ، وتتابع أنينُك ، وثبت يقينُك ، وطَمَحتْ جفونُك ، وصدقَتْ ظُنونُك ، وتلجلجَ لسانُك ، وبكى إخوانُك ، وقيل لك : هذا ابنُك فلان ، وهذا أخوك

فلان ؛ مُنِعت من الكلام فلا تَنطِق ، وخُتِم على لسانك فلا يَنْطَبِق ، ثمّ حَلّ بك القضاء ، وأُنتُزِعت روحُك من الأعضاء ، ثم عُرِج بها إلى السّماء ، فاْجتمع عند ذلك إخوانُك ، وأُحضِرَت أكفانُك ، فغسّلوك وكفّنوك ، ثمّ حملوك فدَفَنوك ، فانقطع عُوّادُك ، واْستراح حُسّادك ، وانصرَف أهلُك إلى مالِك ، وبقيتَ مرتهنا بأعمالك .

وقال بعضُ الزّهاد لبعض الملوك : إنّ أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها ، وأُعطِى حاجتَه منها ، لأنه يتوقّع آفةً تَعدُو على ماله فتَجتاحه ، وعلى جمعِه فتفرّقه أو تأتى على سلطانه فتَهدِمه من القواعد ، أو تدبّ إلى جسمه فتُسقِمه ، أو تفجعه بشىء هو ضَنين به من أحبابه ، فالدنيا الأحقّ بالذّم ، وهى الآخذة ماتُعطِى ، الراجعة فيما تَهَب ؛ فبينا هى تُضحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه ، وبينا هى تبكِى له إذ أبكتْ عليه وبينا هى تَبْسط كفّه بالإعطاء إذ بَسطت كفَّها إليه بالاْسترجاع والاْسترداد ، تَعقِد التاج على رأس صاحبِها اليوم وتُعفِّره فى التّراب غداً ، سواء عليها ذَهاب مَن ذهب وبقاء من بقِى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وتَرضَى بكلٍّ من كلٍّ بَدَلا .

وكتب الحسنُ البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز : أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دارُ ظَعنٍ ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل إليها عقوبة فاحذرْها فإن الزّاد منها ربحُها ، والغنى منها فقرُها ، لها فى كلّ حينٍ قتيل ، تُذِلّ مَنْ أعزّها ، وتُفقِر من جمعها ، هى كالسُّمّ يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حَتفُه ، فكن فيها كالمُداوِى جراحه ، يحمِى قليلا مخافة ما يكرهه طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء ، مخافة طُول البلاء ، فاحذر هذه الدنيا الغدّارة المكّارة ، الختّالة الخدّاعة ، التى قد تزيّنت بخُدَعها ، وفتنتْ بغرورها ، وتحلّت بآمالها ، وتشرّفتْ لخطّابها ، فأصبحت بينهم كالعروس تُجلَى على بعلها ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوسُ لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلّهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبِر ، ولا الآخِر بالأوّل مزدجِر ، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدّكِر ، فمن عاشقٍ لها قد

ظفر منها بحاجتــه ، فاغترّ وطغى ونسى المعاد ، وشُغل بها لُبّه حتى زلّت عنها قدمُه ، فعظُمتْ ندامتُه ، وكثرتْ حسرتُه ، واجتمعت عليه سكراتُ الموت بألمـه ، وحسَرات الفَوت بغصّته ، ومِنْ راغب فيها لم يدرك منها ما طلب ، ولم يُرِح نفسَه من التّعب ، خرج منها بغير زاد ، وقدِم على غير مِهاد ؛ فاحذرْها ثمّ احذرْها وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تـكون لهـا ، فإن صاحبها كلمـا اطمأنّ منها إلى سرور أشخصَته إلى مكروه ، والسارّ منها لأهلها غارّ ، والنافع منها فى غدٍ ضارّ ، قد وُصل الرّخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها للفَناء ؛ فسرورها مَشُوب بالأحزان، ونعيمُها مكدَّر بالأشجان ، لا يرجع ما ولّى منها وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر ، أمانيّها كاذبة ، وآمالها باطـلة ، وصفوُها كَدَر ، وعيشها نَـكَد ، والإنسان فيهـا على خَطَر إنْ عَقَل ونَظَر ، وهو من النّعماء على غَرَر ، ومن البلاء على حَذَر ، فلو كان الخالقُ لها لم يخبر عنها خبرا ، ولم يَضرِب لها مَثَلا ، لـكانت هى نفسها قد أيقظتْ النائم ، ونبّهت الغافل ، فـكيف وقد جاء من الله عنها زاجر ، وبتصاريفها واعظ ، فما لها عند الله قدْر ، ولا نظر إليها منذ خَلَقها ، ولقد عُرضتْ على نبيّك محمّد صلى الله عليه وسلّم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصــه ذلك عند الله جناحَ بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يخالف على الله أمره ، أو يحبّ ما أبغَضَه خالقُه ، أو يرفع ما وضعه مليـكه ، زواها الربّ سبحانه عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظنّ المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أُكرِم بهـــا ، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمّد صلى الله عليــه وسلّم من شدّه الحَجَر على بطنِه ، وقد جاءت الرواية عنه عن ربّه سبحانه أنه قال لموسى : إذا رأيت الغنَى مقبلا فقل ذنبٌ عُجلتْ عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين ؛ وإن شئت اقتديت بصاحب الرُّوح والـكلمة عيسى ؛ كان يقول : إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصُوف ، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ووسادى الحَجَر ، ودابتى رِجْلاى ،

وفاكهتى وطعامى ما أنبتت الأرضُ، أبيتُ وليس لى شىء، وليس على الأرض أحدٌ أغنى منّى .

وفى بعض الكتب القديمة : إن الله تعالى لمّا بعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنّكما لباسُه الذى لبس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلاّ بإذنى ، ولا يُعجبكما ما مُتّع به منها ، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، ولو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا وُهبتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الرّاعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة ، وإنّى لأجنّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الراعى الشفيق إبلَه عن مَبارك العرّة ، وما ذلك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفوراً ، إنما يتزين لى أوليائى بالذلّ والخضوع والخوف ، وإن التقوى لتثبت فى قلوبهم ، فتظهر على وجوههم ، فهى ثيابُهم التى يلبسونها ، ودِثارُهم الذى يظهرون ، وضميرُهم الذى يستشعرون ، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأملون ، ومجدُهم الذى به يفتخرون، وسيماهم التى بها يُعرَفون ، فإذا لقيتهم أحدكما فليخفض لهم جناحَه ، وليذلّل لهم قلبه ولسانه ، وليعلم أنه مَنْ أخاف لى وليّا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثمّ أنا الثائر به يوم القيامة .

ومن كلام بعض الحكماء : الأيّام سِهام ، والناس أغراض ، والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه ، ويتخرّمك بلياليه وأيّامِه ؛ حتّى يستغرق جميع أجزائك ، ويُصمِى جميع أبعاضِك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالى فى بدنك ! ولو كُشف لك عمّا أحدثت الأيّام فيك من النقص لا ستوحشت من كلّ يوم يأتى عليك ، واستثقلت ممرّ الساعاتِ بك ، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار .

وقال بعض الحكماء ـ وقد استوصف الدنيا وقدر بقاءها ـ : الدنيا وقتك الذى يرجع إليه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأتِ فلا علم لك به ؛ والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلتُه ، وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان ، بالتغيير والنقصان ، والدهر موكّل بتشتيت الجماعات ، وانخرام الشمل ، وتنقُّل الدُّوَل ، والأمل طويل ، والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور .

وقال بعض الفضلاء : الدنيا سريعة الفَناء ، قريبة الانقضاء ، تَعِد بالبقاء ، وتُخلف فى الوفاء ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرّة ، وهى سائرة سيْرا عنيفا ، ومرتحلة ارتحالا سريعا ، ولكنّ الناظر إليها قد لا يُحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها ، وإنما يحسّ بذلك بعد انقضائها ؛ ومِثالها الظِّلُّ ، فإنه متحركٌ ساكنٌ ؛ متحرّكٌ فى الحقيقة ، وساكنٌ فى الظاهر ، لا تدرَك حركتُه بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة .

(٣٧٤)

الأصْلُ :

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وضَعَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ ، والْعِقابَ على مَعْصِيَتِهِ ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ ، وحِياشَةً لَهُمْ إلى جَنَّتِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

ذِيادة ، أى دَفعا ذُدْتُه عن كذا ، أى دَفعته ورددته . وحياشةً مصدر حُشْتُ الصّيد بضم الحاء ، أَحوشُه ، إذا جئته من حواليه لتصرِفه إلى الحِبالة ، وكذلك أحشْتُ الصيد وأحْوَشْتُهُ ، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض .

وهذا هو مذهب أصحابنا ، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة ، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقّة عليهم بأن يزيد فى قُدَرهم ، وجب أن يكون فى مقابلة تلك التكاليف ثواب ، لأنّ إلزام المشاق كإنزال المَشاقّ ، فكما يتضمن ذلك عوضا ، وجب أن يتضمّن هذا ثوابا ، ولا بدأن يكون فى مقابلة فعل القبيح عِقاب ، وإلا كان سبحانه ممكّنا الإنسان من القبيح ، مغريًا له[1] بفعله ، إذ الطبع البشرى يهوى العاجل ، ولا يَحفِل بالذمّ ، ولا يكون القبيح قبيحا حينئذ فى العقل ، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار .

---

(١) ب ا : « به »

الأصْلُ :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمانٌ لا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ رَسْمُهُ ، وَمِنَ الإسْلامِ إلا اسْمُهُ ، وَمَساجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عامِرَةٌ مِنَ الْبِناءِ، خَرابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُها وعُمَّارُها شَرُّ أَهْلِ الأَرْضِ ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ ، وإلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْها فِيها ، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْها إلَيْها ،يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ فَبِي حَلَفْتُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيها حَيْرانَ ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفِسق والرّياء من هذه الأمّة ، ألا تراه يقول : سُكّانها وعُمّارها ، يعنى سكانَ المساجد،وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض ؛ لأنهم أهل ضلالة كمن يَسكن المساجد الآن ممنّ يعتقد التجسم والتشبيه والصّورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح ، ومن يقول بالقدَر يُضيف فعل الكُفر والجهل والقبيح إلى الله تعالى ، فكل هؤلاء أهل فتنة ، يردّون من خرج منها إليها ، ويسوقون من لم يدخل فيهــا إليها أيضاً .

ثم قال حاكيا عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً ، يعنى استئصالا وسيفا حاصدا يترك الحليمَ أى العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خَلاصه .

ثم قال عليه السلام : وقد فعل .

وينبغى أن يكون قد قال هذا الكلام فى أيام خلافته ، لأنّها كانت أيام السيف المسلط على أهل الضلال من المسلمين ، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أميّة وأتباعهم من سيوف بنى هاشم بعد انتقاله عليه السلام .

الأصْلُ :

ورُوِي أنَّهُ عليهِ السلامُ قَلَّمَا اعتَدَلَ بِهِ المِنْبَرُ إلَّا قَالَ أمامَ خُطْبَتِهِ : أيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللهَ فَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثًا فَيَلْهُو ، وَلَا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُو ، وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ ، وَمَا المَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأعْلَى هِمَّتِهِ كَالآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الآخِرَةِ بِأدْنَى سُهْمَتِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قال تعالى : ﴿ أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأنَّكُمْ إلينا لا تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

ومن الكلمات النبويّة : إنّ المرء لم يُترَكْ سُدًى ، ولم يُخلق عبثًا .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ مَن ظَفِر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنيّة ليس كآخرَ ظَفِر من الآخرة بأدْوَن درجات أهلِ الثواب ، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة .

وفي قوله عليه السلام : « التي قبحها سوء المنظَر عنـدَه » تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهلِ العدل رحمهم الله ، وهو أنّ الإنسان هو الذي أضلّ نفسَه لسوء نظرِه ، ولو كان الله تعالى هو الذي أضلّه لما قال : قبحها سوء النظر عندهَ .

---

(١) سورة المؤمنين ١١٥

الأصْلُ :

لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوى ، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ ، وَلَاشَفِيعَ أَنجحُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ القَنَاعَةِ ، وَلَامالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ .

وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ . وَالدَّعَةِ مِفْتَاحُ النَّصَبِ ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ .

***

الشَّرْحُ :

كلّ هذه المعانى قد سبق القولُ فيها مرارا شتّى ؛ نأتى كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم ، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين ، كما يكرّر اللهُ سبحانه فى القرآن المواعظَ والزواجر ، لذلك كان أبو ذرّ ـ رضى الله عنه ـ جالسا بين الناس فأتته امرأتُه فقالت : أنت جالس بين هؤلاء ، ولا والله ماعندنا فى البيت هِفّة ولا سُفّة[1] ؛ فقال : ياهذه ، إنّ بين أيدينا عَقَبَةً كَؤُودا ، لا ينجو منها إلاّ كلّ مخفّ . فرجعت وهى راضية .

---

(١) نهاية ابن الأثير ٢ : ١٦٧ ، ٤ : ٢٥٠ . الهفة : السحاب لا ماء فيه ؛ والسفة : ما ينسج من الخوص كالزبيل ؛ أى لا مشروب فى بيتك ولا مأكول .

وقيل لبعضَ الحكماء : ما مالُك ؟ قال : التجمّل فى الظاهر ، والقَصْد فى الباطن ، والغِنَى عمّا فى أيدى الناس :

وقال أبو سليمان الدّارانىّ : تنفُّس فقيرٍ دُون شهوةٍ لا يَقدر عليها أفضلُ من عِبادةِ غَنىٍّ ألف عام .

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث : ادعُ لى فقد أضرّ الفقرُ بى وبعيالى ؛ فقال : إذا قال لك عيالك : ليس عندنا دقيق ولا خبز فادعُ لبشر بن الحارث فى ذلك الوقت ، فإنّ دعاءك أفضلُ من دعائه .

ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إنى أسألك ذُلّ نفسى ، والزّهدَ فيما جاوَزَ الكَفاف .

الأصْـلُ :

وَقالَ عليهِ السلام : لجابر بن عبد الله الأنصاريّ :

ياجابِرُ ، قِوَامُ الدِّينِ والدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ : عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ ، وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعلَّمَ ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ ، فَإِذَا ضَيَّعَ العَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعلَّمَ ، وَإِذَا بَخِلَ الغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ .

ياجابِرُ ، مَنْ كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ فيها عَرَّضَ نِعْمَةَ اللهِ لِدَوَامِهَا ، وَمَنْ ضَيَّعَ مَايَجِبُ لِلهِ فِيها عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِهَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذه المعانى . والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى ، وكذلك جعل فى الاثنتين الآخرتين ، فقال : إنّ قوام الدِّين والدنيا بأربعة : عالمٍ يستعمل علمَه ، يعنى يعمَل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يَعمَل ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم ، وأضرُّ ماعلى الجهلاء الاستنكاف من التعلّم ؛ فإنّهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت ، والثالث جَواد لا يبخل بالمعروف ، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه ، أى لا يَسرق ، ولا يَقطع الطّريق ، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله ، كالقِمار ، والمواخير ، والمزاجر ، والمــآصر ، ونحوها .

ثم قال : فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التعلم ، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأى العالم يعصى و يجاهِر الله بالفسق زهِد فى التعلّم ؛ وقال : لماذا تعلُّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسق والمعصية .

ثم قال : والرابعة مرتبطة بالثالثة ، إذا بخل الغَنىّ بمعروفه ، باع الفقيرُ آخرته بدنياه ، وذلك لأنّه إذا عدِم الفقير المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول فى الحرام ، والاكتساب من حيث لا يحسُن ، و يَنبغى أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنىّ ليطابق أوّل الكلام آخره ، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ ، وجواد لا يبخل بمعروفه ، وفى ضمير اللفظ كون ذلك الجواد غنيًا لأنه قد جعل له معروفا والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غِنًى ؛ و باقى الفصل قد سبق شرحُ أمثاله .

الأصْلُ :

وَرَوى ابْنُ جرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ، عن عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ أبي ليلى الْفَقِيهِ ، وَكان مِمَّنْ خَرَجَ لِقِتَالِ الْحَجَّاجِ مع ابْنِ الْأَشْعَثِ ، أَنَّهُ قال فِيمَا كَانَ يَحُضُّ به النَّاسَ على الْجِهَادِ : إِنِّي سَمِعْتُ عَلِيًّا رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ في الصَّالِحِين ، وأثابَهُ ثَوَابَ الشُّهداء وَالصِّدِّيقِينَ ، يَقُول يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ :

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ ، وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَ بَرِئَ ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى ، فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى ، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلام في النّهيِ عن المنكر ، وكيفيّة ترتيبه ، وكلام أمير المؤمنين في هذا الفصل مطابِق[1] لما يقوله المتكلّمون — رحمهم الله .

وقد ذكرنا فيما تقدّم ، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى مايجب . وكان النهيُ عن المنكَر معروفا في العرب في جاهليّتها ؛ كان في قريش حِلْف الفُضول ، تحالفتْ قبائلُ منها على أن يَردَعوا الظالم ، ويَنصُروا المظلوم ، ويردّوا عليه حقّه مابلّ بحرٌ صوفة ، وقد ذكرنا فيما تقدّم .

(١) د : « يطابق » .

(٣٨٠)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ في كلامٍ لهُ غيرِ هذا يجري هذا المجرى :

فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ، فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، فَذَاكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ ؛ وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ .

***

الشرح :

قد سبق قولُنا في الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر ، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا . ولجّة الماء : أعظمُه ، وبحرٌ لُجِّيّ : ذو ماء عظيم . والنَّفْثة : الفَعلة الواحدة ، من نَفَثْت الماء من فمي ، أي قذفته بقوّة .

قال عليه السلام : لا يعتقدنّ أحدٌ أنّه إن أمر ظالما بمعروف ، أو نهى ظالما عن منكر ، أنّ ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهيّ إياه ، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته ، فإنّ الله تعالى قدّر الأجل ، وقضى الرّزق ، ولا سبيلَ لأحد أن يَقطع على أحد عمرَه أو رزقَه .

وهذا الكلام ينبغى أن يُحمَل على أنّه حثّ وحضّ وتحريض على النّهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، ولا يُحمَل على ظاهرِه ، لأنّ الإنسان لا يجوز أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التّهلُكة ، معتمِداً على أنّ الأجل مقدَّر ، وأن الرِّزق مقسوم ، وأنّ الإنسان مَتى غلب على ظنّه أنّ الظالِم يقتله ويقيم على ذلك المنكر ، ويضيف إليه منكراً آخَر لم يَجُز له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِيَ أنّ زيدَ بنَ أرقَم رأى عبيد الله بن زياد — ويقال : بل يزيد بن معاوية — يَضرِب بقضيبٍ فى يده ثَنايا الحسين عليه السلام حين حمِل إليه رأسُه ، فقال له : إيهاً ! ارْفَع يدَك ؛ فطالَما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقبّلها !

***

[فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر]

ونحن نذكر خلاصةَ ما يقوله أصحابُنا فى النهى عن المنكَر ، ونَترُك الاستِقصاء فيه للكُتُب الكلاميّة التى هى أوْلى ببَسط القول فيها من هذا الكتاب .

قال أصحابنا : الكلام فى ذلك يقع من وجوه : منها وجوبُه ، ومنها طريق وجوبِه ، ومنها كيفيّة وجوبِه ، ومنها شروط حُسْنه ، ومنها شروط وجوبِه ، ومنها كيفيّة إيقاعه ، ومنها الكلامُ فى النّاهى عن المنكر ، ومنها الكلام فى النّهى عن المنكر .

أمّا وجوبه ؛ فلا ريبَ فيه ؛ لأنّ المنكَر قبيح كلّه ، والقبيح يجب تركه ، فيجب النّهى عنه .

وأمّا طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله : إنّه لا طريقَ إلى وجوبِه إلّا السمع ، وقد أجمع المسلمون على ذلك ، وَوَرَد بِه نصّ القرآن فى غير موضع .

قال الشيخ أبو عليّ — رحمه الله : العقل يدلّ على وجوبه ، وإلى هذا القول مالَ شيخُنا أبو الحسين رحمه الله .

وأمّا كيفيّة وجوبه فإنّه واجب على الكفاية دون الأعيان ، لأنّ الغرض ألّا يقع المنكر ، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يَبق وجهٌ لوجوب الإنكار على مَن سواها .

وأما شروط حُسنه فوجوه :

منها أن يكون ماينكره قبيحا ، لأنّ إنكار الحسَن وتحريمه قبيح ، والقبيح على ضروب : فمنه مايَقبُح من كلّ مكلّف ، وعلى كلّ حال ، كالظلم . ومنه مايقبح من كلّ مكلّف على وجهٍ دون وجه ، كالرّمى بالسهام ، وتصريف الحمام ، والعلاج بالسلاح ، لأنّ تعاطىَ ذلك لمعرفة الحرب والتقوّى على العدوّ ، والتعرّف أحوالِ البلاد بالحمام حسَنٌ لا يجوز إنكاره ، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السّخف واللهو ومعاشرة ذوى الرِّيَب والمعاصى فهو قبيحٌ يجب إنكاره .

ومنه مايَقبحُ من مكلّف ويَحسنُ من آخر على بعض الوجوه ، كشُرب النّبيذ ، والتشاغل بالشِّطرنج ، فأما مَنْ يرى حَظْرَهما ، أو يختار تقليد من يُفتي بحظْرهما فحرامٌ عليه تعاطيهما على كلّ حال ، ومتى فعلهما حَسُن الإنكار عليه ، وأما من يرى إباحتهما أو مَنْ يختار تقليد مَن يُفْتي بإباحتهما ، فإنّه يجوز له تعاطيهما على وجهٍ دون وجه ؛ وذلك أنّه يَحسُن شرب النبيذ من غيرسُكر ولا مُعاقَرة والاشتغال بالشِّطرنج للفرجة وتخريج الرأى والعقل ، ويَقبُح ذلك إذا قُصِد به السخف ، وقُصِد بالشرب المعاقَرة والسُّكر ، فالثانى يحسن إنكاره ويجب ، والأوّل لا يَحسُن إنكاره لأنّه حَسنٌ مِن فاعِله .

ومنها أن يعلم المنكِر أنّ ما يُنكِره قبيح ، لأنه إذا جوّز حسنَه كان بإنكاره له وتحريمه إيّاه محرِّما لما لا يأمن أن يكون حَسنا ، فلا يأمن أن يكون ما فعلَه من النّهى

نَهْيا عن حَسَن ، وكلُّ فعل لا يأمن فاعلُه أن يكون مختصا بوجه قبيح فهو قبيح ، ألا ترى أنه يقبحُ من الإنسان أن يخبر على القطعِ بأن زيدا فى الدار إذا لم يأمن ألّا يكون فيها ؛ لأنه لا يأمن أن يكون خبره كَذِبا !

ومنها أن يكون ما ينهى عنه واقعا ، لأنّ غير الواقع لا يحسنُ النهى عنه ، وإنما يحسنُ الذمّ عليه ، والنهيُ عن أمثاله .

ومنها ألاّ يغلب على ظنّ المنكِر أنه إن أنكر المنكَر، فعله المنكَر عليه ، وضمّ إليه منكَرا آخر، ولو لم ينكَر عليه لم يفعل المنكر الآخر ، فمتى غَلَب على ظنّه ذلك قَبُح إنكاره ، لأنه يصير مَفسدة ، نحو أن يغلب على ظننا أنّا إن أنكرنا على شارب الخمر شُرْبَها شربها وقرن إلى شربها القتل ، وإن لم ننكر عليه شربها لم يقتل أحدا .

ومنها ألاّ يغلب على ظنّ الناهى عن المنكَر أنّ نهيه لا يؤثر ، فإن غلب على ظنه ذلك قَبُح نهيه عند من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لا يحسن ، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلّف. وأما من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلّف ، فإنه لا يصحّ منه القول بقبح هذا الإنكار .

فأما شرائط وجوب النهى عن المنكر فأمور :

منها أن يغلب على الظنّ وقوع المعصية نحو أن يَضيق وقتُ صلاة الظهر ، ويرى الإنسان لا يتهيأ للصلاة ، أو يراه تهيّأ لشرب الخمر بإعدادِ آلتهِ ، ومتَى لم يكن كذلك حَسُنَ منّا أن ندعوَه إلى الصلاة ، وأن لم يجب علينا دعاؤه .

ومنها ألاّ يغلب على ظَنّ الناهى عن المنكَر أنه إن أنكر المنكِر لحقتْه فى نفسه وأعضائه مضرّة عظيمة ، فإن غلب ذلك على ظنّهِ وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل

ما يُنْكِره عليه أيضا ، فإنه لا يجب عليه الإنكار ، بل ولا يحسن منه لأنه مفسدة ، وإن غلب على ظنّه أنه لا يفعل ما أنكره عليه ولكنّه يضرّ به ؛ نُظر فإن كان إضراره به أعظم قُبْحا مما يتركه إذا أنكر عليه ، فإنه لا يحسن الإنكار عليه ، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة ؛ نحو أن يُنْكر الإنسانُ على غيره شُربَ الخمر ، فيترك شربها ويقتله . وإن كان ما يتركه إذا أنكر عليه أعظم قبحا مما ينزل به من المضرّة ، نحو أن يَهُمّ بالكفر ، فإذا أنكر عليه تركه وجرح المنكِر عليه أو قتله فإنه لا يجب عليه الإنكار ، ويحسن منه الإنكار ؛ أما قولنا : لا يجب عليه الإنكار ؛ فلأنّ الله تعالى قد أباحنا التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، فبأنْ يبيحنا ترك غيرنا أن يتلفظ بذلك عند الخوف على النفس أوْلى ؛ وأمّا قولُنا : إنه يحسن الإنكار ، فلأنّ في الإنكار مع الظنّ لما ينزل بالنفس من المضرّة إعزازا للدِّين ، كما أنّ في الامتناع من إظهار كلمة الكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازا للدِّين ، لا فصل بينهما .

فأما كيفية إنكار المنكر فهو أن يبتدئ بالسهل ، فإن نفع وإلاّ ترقى إلى الصّعب ؛ لأن الغرض ألاّ يقع المنكر ، فإذا أمكن ألاّ يقع بالسهل فلا معنى لتكلّف الصّعب ، ولأنه تعالى أمرَ بالإصلاح قبل القتال في قوله : ﴿ فأصلحوا بينهما فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ﴾[1] .

فأما الناهي عن المنكر مَنْ هو؟ فهو كلّ مسلم تمكّن منه واختصّ بشرائطه ، لأنّ الله تعالى، قال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[2] ، ولإجماع المسلمين على أنّ كلّ مَن شاهد غيره تاركا للصّلاة غير محافظ عليها فله أن يأمرَه بها ، بل يجب عليه ، إلّا أنّ الإمام وخلفاءه أوْلَى بالإنكار بالقتال ، لأنّه أعرَف بسياسة الحرب وأشدّ استعدادا لآلاتها .

---

(١) سورة الحجرات ٩ (٢) سورة آل عمران ١٠٤

فأمّا المنهىّ مَن هو ؟ فهو كلّ مكلّف أختصّ بما ذكرناه من الشروط ، وغير المكلّف إذا همّ بالإضرار لغيره يمنع منه ، ويمنع الصّبيان وينهون عن شرب الخمر حتّى لا يتعوّدوه ، كما يؤاخذون بالصّلاة حتّى يمرنوا عليها ، وهذا ما ذكره أصحابنا .

فأمّا قوله عليه السلام : «ومنهم المنكِر بلسانه وقلبه ، والتاركُ بيدِه ، فذلك متمسّك بخصلتين من خصال الخير ، ومضيّع خصلة » ، فإنّه يعني به من يعجز عن الإنكار باليد لمانع ، لأنّه لم يُخرج هذا الكلامَ مخرج الذمّ ، ولو كان لم يعنِ العاجز لوجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذمّ ، لأنّه ليس بمعذور فى أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك ، وارتفاع الموانع .

وأمّا قوله : «ضيّع أشرف الخصلتين » فاللام زائدة ، وأصله «ضيّع أشرفَ خصلتين من الثلاث » ، لأنّه لا وجهَ لتعريف المعهود هاهنا فى الخصلتين ، بل تعريف الثلاث باللام أولَى ؛ ويجوز حذفُها من الثلاث ، ولكنّ إثباتَها أحسَن ، كما تقول : قتلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة .

وأمّا قوله : « فذلك ميّت الأحياء » ، فهو نهاية ما يكون من الذمّ .

وأعلمْ أنّ النهىَ عن المنكَر ، والأمرَ بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدِّين ، وإليه تذهَب الخوارجُ الّذين خرجوا على السّلطان ، متمسّكين بالدِّين وشِعار الإسلام ، مجتهدِين فى العبادة ، لأنّهم إنّما خرجوا لِما غلب على ظنونهم ، أو علِموا جَوْر الوُلاة وظلمَهم ، وأنّ أحكام الشريعة قد غُيِّرت ، وحُكِم بما لم يحكُم به الله ، وعلى هذا الأصل تبني الإسماعيليّةُ من الشِّيعة قَتْلَ ولاةِ الجوْر غِيلَةً ، وعليه بناء أصحاب الزُّهد فى الدّنيا الإنكار على الأمراء والخلفاء ، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لمّا عجزوا عن الإنكار باليَدِ ؛ وبالجملة فهو أصلٌ شريف أشرَفُ من جميع أبوابِ البِرّ والعبادة ، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام .

الأصْلُ

وروى أبو جُحَيْفَةَ قال : سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ :

إِنَّ أَوَّلَ مَاتُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ ، الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً ، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ .

***

الشَّرْحُ :

إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقلب آخِرُ المراتب ؛ وهو الّذى لابدّ منه على كلّ حال ، فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ ، وعنهما عُذْر ، فمن ترك النهىَ عن المنكر بقلبه ، والأمرَ بالمعروف بقلبه ، فقد سَخِط اللهُ عليه لعصيانه ، فصار كالممسوخ الّذى يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله ، وأسفَله أعلاه تشويهاً لخلقته ، ومن يقول بالأنفس الجسمانيّة ، وإنّها بعد المفارقة يَصعَد بعضُها إلى العالم العُلْوىّ ، وهى نفوس الأبرار ، وبعضها يَنزِل إلى المركز ، وهى نفوس الأشرار ، يتأوّل هذا الكلام على مذهبه ، فيقول : إنّ مَنْ لا يعرف بقلبه معروفا ، أى لا يَعرِف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله ، ولا يُنكِر بقلبه منكَرا ، أى لا يأنَف منه ولا يستقبحه ، ويَمتعِض من فعله يقلب نفسه الّتى قد كان سبيلُها أن تَصعَد إلى عالَمِها فتُجعَل هاويةً فى حَضيض الأرض ، وذلك عندَهم هو العذاب والعقاب .

الأصل:

إنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ.

***

الشرح:

تقول: مرُؤَ الطّعام بالضّم، يَمرُؤُ مَراءة فهو مَرِيءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل، وقد جاء مَرِئَ الطّعام بالكسر، كما قالوا فقِه الرجُل وفقُه. ووَبِئَ البلد بالكسر يوْبأ وباءة فهو وَبِيءٌ على «فعيل» أيضاً، ويجوز فهو وَبِئٌ على «فَعِل» مثل حَذِر وأشِر.

يقول عليه السلام: الحقّ وإن كان ثقيلا إلّا أن عاقبته محمودة، ومَغَبّته صالحة، والباطلُ وإن كان خفيفا إلّا أنّ عاقبتِه مذمومة، ومَغَبّته غير صالحة، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل على فعله، فلا خَير فى لذّة قليلة عاجلة، يتعقّبها مضارُّ عظيمةٌ آجلة، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك، كما يحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّة العافية.

(٣٨٣)

الأصل :

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ اللهِ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] وَلَا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ اللهِ تَعَالَى ، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2] .

***

الشرح :

هذا كلامٌ ينبغى أن يُحمَل على أنّه أراد عليه السلام النّهىَ عن القطع على مغيب أحدٍ من النّاس ، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول : فلان قد نجا ، ووجبتْ له الجنّة ، ولا فلان قد هَلَكَ ووجبتْ له النار ، وهذا القول حقّ ، لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكَم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة ، وكذلك الأعمال السّيئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها ؛ فأمّا الاحتجاج بالآية الأولى فلقائل أن يقول : إنّها لا تدلّ على ماأفتى عليه السلام به ، وذلك لأنّ معناها أنّه لا يجوز للعاصى أن يأمن مكرَ الله على نفسه ، وهو مقيمٌ على عِصيانه ، ألا ترى أنّ أوّلها : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3] ، وليست دالّة على مانحن

---

(١) سورة الأعراف ٩٩ (٢) سورة يوسف ٨٧

(٣) سورة الأعراف ٩٧ ـ ٩٩

فيه ، لأنّ الذى نحن فيه : هل يجوز لأحدٍ أن يأمَن على الصّالحين من هـذه الأمّة عذابَ الله .

فأمّا الآية الثانية فالاحتجاج بها جيّد لا شُبهَةَ فيه ، لأنّه يجوز أن يتوب العاصى والتّوبة من رَوْح الله .

فإن قلتَ : وكذاك يجوز أن يَكفُر المسلِم المطيع .

قلت : صدقتَ ، ولـكنّ كفرَه ليس من مكرِ الله ، فدَلّ على أنّ المراد بالآية أنّه لا ينبغى للعاصى أن يأمَن من عقوبة الله مادام عاصياً ، وهذا غيرُ مسألتِنا .



(٣٨٤)

الأصلُ :

الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم القول فى البخل والشحّ . ونحن نذكر هاهنا زيادات أخرى .

***

[أقوال مأثورة فى الجود والبخل]

قال بعض الحكماء : السُّخاء هيئة للإنسان ، داعيةٌ إلى بَذْل المقتنيات ، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحصُل ، وذلك خُلقٌ ، و يقابله الشحّ ؛ وأمّا الجود ، فهو بذلُ المُقتنَى ؛ و يقابله البُخْل ؛ هذا هو الأصل ، و إن كان كلّ واحد منهما قد يُستعمَل فى موضع الآخر ، والّذى يدلّ على صحّة هذا الفَرْق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشّح على بناء الافعال الغريزّية ، فقالوا : شحيح وسخىّ ، فبنَوْه على « فَعيل » كما قالوا : حليم وسميع وعَفيف ، وقالوا : جائد و باخل ، فبنَوْهما على « فاعل » كضارِب وقاتِل ؛ فأما قولُهم : بخيل ، فمصروف عن لفظ « فاعل » للمبالغة ، كقولهم فى راحم رَحيم ، و يدلّ أيضا على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنهم لم يَصِفوا البارئ سبحانه ، به فيقولوا سَخِىّ ، فأمّا الشح فقد عظّم أمره وخوّف منه ، ولهذا قال عليه السلام : « ثلاثٌ مُهلِكات : شحّ مُطاع ، وهَوًى متّبعٌ ، و إعجابُ المرء بنفسه » ، فخصّ المطاع تنبيها على أنّ وجودَ الشّحّ

فى النفس فقط ليس مما يستحقّ به ذمّ لأنه ليس من فعله ، و إنّما يذمّ بالانقياد له ؛ قال سبحانه : ﴿ ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِه ﴾[1] ، وقال : ﴿ وأُحْضِرتِ الأنفسُ الشُّحَّ ﴾[2] .

وقال عليه السلام: لا يجتمع شحّ و إيمانٌ فى قلب أبدا .

فأمّا الجود فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم ، ولهذا قيل : كفى بالجود مدحا أنّ اسمَه مطلقا لا يقع إلّا فى حَمْد ، وكَفى بالبخل ذمًّا أن اسمه مطلقاً لا يقع فى ذم .

وقيل الحكيم : أىّ أفعال البَشر أشبَه بأفعال البارى سبحانه ؟ فقال : الُجود .

وقال النّبى صلى الله عليه وآله : « الُجود شجرةٌ من أشجار الجنّة ، مَن أخَذ بغصُن مِن أغصانِها أدّاه إلى الجنة ، والبخلُ شجرةٌ من أشجار النّار من أخذ بغُصْن من أغصانِها أدّاه إلى النّار » .

ومن شَرَف الجود أن الله سبحانه قَرَن ذكره بالإيمان ، وَوَصَف أهلَه بالفلاح ، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَين ؛ قال سبحانه : ﴿ الّذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيبِ وَيُقيمُونَ الصّلاة وممّا رَزَقناهُم ينفقون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلِحون ﴾[3] . وقال : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[4] .

وحقّ للجود بأن يُقرَن بالإيمان ، فلا شىء أخصّ به وأشدّ مجانسة له منه ، فإن من صفة المؤمن انشراح الصّدر ، كما قال تعالى : ﴿ فمن يُرِد اللهُ أن يهديَهُ يشرحْ صدرَهُ للإسلامِ وَمَنْ يُرِد أن يُضِلّه يَجعلْ صدرَه ضيّقا حَرَجاً كأنّما يَصّعّدُ فى السّماء ﴾[5] ؛ وهذا من صفات الجواد والبخيل ، لأنّ الجواد واسعُ الصدر ، منشرح مستبشر ، للإنفاق والبَذْل ، والبخيل قَنُوط ضيّق الصدر ، حَرِج القَلْب مُمسِك .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : «وأىّ داء أدْوَأ من البُخْل » .

والبُخْل على ثلاثة أضرُب : بخلُ الإنسان بماله على نفسه ، و بخله بماله على غيره ، وبخله

---

(١) سورة التغابن ١٦
(٢) سورة النساء ١٢٨
(٣) سورة البقرة ٣ ـ ٥
(٤) سورة الحشر ٩

بمال جيره على نفسه أو على غيره وأفحشها بُخْلُه بمالِ غيره على نفسه ، وأهونُها و إن كان لا هيِّنَ فيها ، بُخْلُه بماله على غيره .

وقال عليه السلام : « اللّهم اجعلْ لمنفق خَلَفًا ؛ ولممسِك تَلفا » .

وقال : « إنّ الله عزّ وجلّ يُنزِل المعونة على قدْر المؤونة » .

وقال أيضا : « مَن وسّع وُسِّع عليه » .

وقالت الفلاسفةُ : الجود على أقسام : فمنها الجودُ الأعظم ، وهو الجود الإلهىّ ، وهو الفَيْض العامّ المطلَق ، و إنما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتِها ، و إلّا فالفيض فى فى نفسه عامٌّ غيرُ خاصّ ، و بعدَه جُودُ الملوك ، وهو الجود بجُزْء من المال على من تدعُوهم الدّواعى والأغراض إلى الجود عليه ، ويَتلوه جودُ السّوقة ، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشّرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب .

قالوا : واسم الجودِ مجاز إلّا الجود[1] الإلٰهى العامّ ؛ فإنه عارٍ عن الغرَض والدّاعى . وأما من يُعطِى لغرضٍ وداعٍ نحو أن يحبّ الثناء والحَمْدة ، فإنه مستعيض وتاجر يُعطِى شيئًا ليأخذَ شيئًا ، قالوا قولَ أبى نُواس .

فتًى يشترِى حُسنَ الثناء بمالِه وَيعلمُ أنّ الدائراتِ تدورُ

ليس بغاية فى الوَصْف بالجود التامّ ، بل هو وصف بتجارة محمودة ، وأحسَن منه قولُ ابن الرّومى :

وتاجر البرّ لا يزالُ له رِبْحان فى كل مَتْجر تجرَهْ
أجرٌ وحمدٌ و إنما طاب الأجـ ـر ولـكنْ كلاهُما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار :

ليس يُعطيك للرجاء ولا الخو فِ ولـكن يَلذُّ طَعم العَطاء[2]

ونحن قد ذكرْنا مافى هذا الموضع من البَحْث العقلى فى كُتُبنا العقليّه .

---

(١) ب : « على الجود » .

الأصل :

يابنَ آدمَ ، الرِّزْقُ رِزْقانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، ورِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فإنْ لَمْ تَأْتِهِ أتاكَ ، فَلاَ تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ ؛ كَفاكَ كُلُّ يَوْمٍ ما فِيهِ ، فإنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فإنَّ اللهَ تعالى سَيُؤْتيكَ فى كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ ما قُسِمَ لَكَ ، وإنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ ، فما تَصْنَعُ بالهَمِّ فِيما لَيْسَ لَكَ ، ولَمْ يَسْبِقْكَ إلى رِزْقِكَ طالِبٌ ، ولَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غالِبٌ ، ولن يُبْطِئَ عَنْكَ ما قَدْ قُدِّرَ لَكَ .

***

قالَ : وقدْ مضى هذا الكلامُ فيما تقدَّمَ مِنْ هذا البابِ ، إلاَّ أنهُ ها هنا أوضحُ وأشرحُ ، فلذلكَ كرَّرْناهُ على القاعدةِ المقررةِ فى أوَّلِ هذا الكتاب .

***

الشرح :

قد تقدّم القول فى معانى هذا الفصل ؛ ورُوِى أنّ جماعةً دخلوا على الجُنيد ، فاستأذنوه فى طلب الرزق ، فقال : إن علمتم أىّ موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك ؛ قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ، قالوا : فندخل البيت ونتوكّل وننتظر ما يكون ؛ فقال : التوكّل على التجربة شكٌّ ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

ورُوِى أنّ رجلا لازم باب عمر فضجِر منه ، فقال له : يا هذا ، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر ! اذهب فتعلّم القرآن ؛ فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل

وغاب مدّة حتى افتقده عمرُ ، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة ، فأتاه عمرُ فقال له : إنى اشتقْت إليك ، فما الذى شَغلك عنّا ! قال : إنى قرأتُ القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر ، فقال : رحمك الله ! فما وجـدتَ فيه ؟ قال : وجـدتُ فيه : ﴿وَفِى السَّماء رِزْقُكم وما توعدون[1] ﴾ ؛ فقلت: رِزْق فى السماء ، وأنا أطلبه فى الأرض ، إنى لبئس الرّجل ، فبكى عمرُ وقال : صدقت ، وكان بعد ذلك ينتابه ويَجلسُ إليه .



(١) سورة الذاريات ٢٢

الأصْلُ :

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ ، ومَغْبُوطٍ في أوَّلِ لَيْلَةٍ قامَتْ بَوَاكِيهِ في آخِرِهِ[1] .

***

الشَّرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّله   إنَّ الحوادث قد يَطرُقن أسحارا

ومِثلُه :

لا يَغُرَّنْك عِشـاءٌ ساكنٌ   قد يُوافي بالمَنِيَّات السَّحَرْ

(١) في د « ومغبوط في أول ليل قامت بواكيه في آخره » .

(٣٨٧)

الأصْـلُ :

الـكلامُ فى وَثاقِكَ ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ ، فإذا تَكَلَّمت به صِرْتَ فى وَثاقِهِ ؛ فاخْزُنْ لِسانَكَ كما تَخْزُنُ ذَهَبَكَ ووَرِقَكَ ؛ فَرُبَّ كلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدم القولُ فى مدح الصَّمت وذمِّ الـكلام الـكثير .

وكان يقال : لا خير فى الحياة إلا لصَمُوت واعٍ ، أو ناطق مُحسِن .

وقيل لحذيفة : قد أطلتَ سجنَ لسانِك ! فقال : لأنه غيرُ مأمون [إذا أُطلِق][1] .

ومن أمثال العرب : رُبَّ كلِمةٍ تقول : دَعْنى .

وقالوا : أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله ، فنزل يوما وهو يتصيّد على تَلْعة ، ونزل أصحابُه حوله فأفاضوا فى حديث كثير ، فقال ذلك الإنسان : أترى لو أنّ رجلا ذُبِحَ على رأس هذه التَّلعة هل كان يسيلُ دمُه إلى أوّل الغائط ؟ فقال المَلِك : هَلُمّوا فاذبحوه لننظر ، فذبحوه ، فقال المَلِكُ : ربَّ كلِمةٍ تقولُ : دَعْنى .

وقال أكثمُ بن صَيْفىّ : من إكرام الرّجل نفسَه ألّا يتكلّم بكلّ ما يعلم .

وتذاكر قومٌ من العرب وفيهم رجلٌ باهلىٌّ ساكت ، فقيل له : بحقٍّ ما سُمّيتم خُرْسَ العرَب[2] ، فقال : أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره ، وسمعَه لنفسِه !

---

(١) من ا ، د .

(٢) كذا فى ا ، وبعدها فى ب : فقالوا له : لم لا تتكلم ؟ فقال : أما علمتم ... » .

الأصلُ :

لَا تَقُلْ مَالَا تَعْلَمُ ؛ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَاتَعْلَمُ ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ .

***

الشرحُ :

هذا نهيٌ عن الكذب ، وأن تقول مالا تأمَن من كونه كذِبا ، فإنّ الأمرين كليهما قبيحان عقْلا عند أصحابنا .

فإن قلتَ كيف يقول أصحابكم : إنّ الخبر الذى لا يأمن كونه كذِبا قبيح ، والناس يَستَحسِنون الأخبارَ عن المظنون[1] .

قلت : إذا قال الإنسان: زيدٌ فى الدار وهو يظنّه فى الدار ولا يَقطع عليه ، فإنّ الحسَن منه أن يُخبر عن ظنّه كأن يقول : أُخبِرُ عن أنّى أظنّ أنّ زيداً فى الدار ، و إذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذنْ خبرٌ عن معلوم لا عن مَظنونٍ ، لأنّه قاطع على أنّه ظانّ أنّ زيداً فى الدار .

فأما إذا فرِض الخبر لا على هذا الوجه بل على القَطْع بأن زيداً فى الدار وهو لا يقطع على أنّ زيدا فى الدّار ، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه ، لأنّه أخبر عن أنّه قاطع ، وليس بقاطعٍ ، فكان قبيحاً .

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « المظنونات » .

الأصلُ :

احْذَرْ أَنْ يَرَاكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ؛ وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ .

***

الشرحُ :

مَن علم يقينا أنّ الله تعالى يراه عند معصيته ، كان أجْدَرَ الناس أن يجتنبها ؛ كما إذا علمنا يقينا أنّ الملك يرى الواحد منّا وهو يراود جاريتَه عن نفسها ، أو يحادث ولده ليفجُر به ، ولكنّ اليقين فى البَشَرِ ضعيفٌ جدّا ، أو أنّهم أحمقُ الحيوان وأجهلُه ، وبحقّ أقول : إنّهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشكّ ، ثم واقعوا المعصية ، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أنّ العقاب لاحقٌ بمن عصى ، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرّشاد منهم .

وأقول : إنّ الذى جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ فى المغفرة ، والعفو العامّ . وقولهم : الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوى النّباهة والفَضْل من الناسِ ، فكيف لا يكون من البارى سبحانه عفوٌ عن الذّنوب !

وما أحسَن قولَ شيخِنا أبى علىّ رحمه الله : لولا القولُ بالإرْجاء ، لما عُصىَ اللهُ فى الأرض .

الأصْلُ

الرُّكُونُ إلَى الدُّنيَا مَعَ مَاتُعَايِنُ مِنهَا جَهلٌ ، وَالتَّقصِيرُ فِي حُسنِ العَمَلِ إذَا وَثِقتَ بِالثَّوَابِ عَلَيهِ غَبنٌ ، وَالطُّمأنِينَةُ إلَى كُلِّ أحَدٍ قَبلَ الاختِبَارِ لَهُ عَجزٌ .

***

الشرح :

قد تقدّم الكلام فى الدّنيا وحُمق من يركَن إليها مع معاينة غدرِها ، وقلّة وفائها ونقضِها عهودَها ، وقتلِها عُشّاقها .

ولا ريبَ أنّ الغَبن وأعظمُ الغَبن هو التّقصير فى الطاعة مع يقين الثواب عليها ، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبر فإنها عجز ـ كما قال عليه السلام ـ يعنى عجزاً فى العقل والرأى ، فإن الوثوق مع التجربة فيه مافيه ، فكيف قبل التجربة !

وقال الشاعر :

وكنتُ أرى أنّ التجاربَ عُدّةٌ فخانت ثقاتُ النّاس حين التّجاربِ

الأَصْلُ :

مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنَالُ مَاعِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام نسبه الغزالىّ فى كتاب " إحياء علوم الدين " إلى أبى الدَّرداء ، والصحيح أنّه من كلام علىّ عليه السلام ، ذكره شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ فى غيرموضع من كُتُبه ، وهو أعرَف بكلام الرجال .

***

[نبذ مما قيل فى حال الدنيا وهوانها واغترار الناس بها]

وقد تقدّم من كلامنا فى حال الدنيا وهَوانها على الله واغترارِ الناس بها وغدْرِها بهم (١)، وذَمِّ العقلاء لها ، وتحذيرهم منها مافيه كفاية .

ونحن نذكر هاهنا زيادةً على ذلك .

يقال : إنّ فى بعض كتب الله القديمة : الدّنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجُهّال ، لم يَعرِفوها حتّى خرجوا منها ، فسألوا الرّجعة فلم يرجِعوا .

وقال بعض العارفين : مَن سأل الله [تعالى](٣) الدّنيا فإنّما سأله طولَ الوقوف بين يديه .

---

(١) ا : « وغدرهم بها » . (٣) من د .

وقال الحسن : لا تَخرُج نفسُ ابنِ آدمَ من الدّنيا إلّا بحَسَرات ثلاث : أنه لم يَشبَع مما جَمَع ، ولم يُدرِك ما أمّل ، ولم يُحسِنِ الزّاد لِما يُقدِم[1] عليه .

ومن كلامه : أهينوا الدّنيا ، فوالله ماهيَ لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها .

وقال محمد بن المنكدر[2] : أرأيتَ لو أنّ رجلا صام الدهرَ لا يُفطِر ، وقام الليلَ لا يَفتر ، وتصدّق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتنبَ محارمَ الله تعالى ، غير أنّه يؤتَى به يومَ القيامة فيقال : إنّ هذا مع ماقد عمل كان يَعظم فى عينه ماصغّر الله ، ويصغُر فى عينه ماعظّم الله ، كيف ترى يكون حالُه ! فمَن منّا ليس هكذا ؛ الدّنيا عظيمة عنده مع ما اقترَفْنا من الذنوب والخطايا .

وقد ضرَبَت الحكماء مَثَلا للدّنيا نحن نذكره هاهنا ، قالوا : مَثَل الدّنيا وأهلِها كقوم رَكِبوا سفينةً فانتهتْ بهم إلى جزيرة ، فأمَرَهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المُقام ، وخوّفهم مرورَ السّفينة؛ واستعجالها ، فتفرّقوا فى نواحى الجزيرة ، فقضَى بعضُهم حاجَته وبادر إلى السفينة ؛ فصادف المكانَ خاليا ، فأخذ أوسعَ المواضعِ وألينَها وأوفقَها لمراده . وبعضهم توقّف فى الجزيرة يَنظُر إلى أزهارها وأنوارِها العجيبة ، وغياضِها الملتفّة ، ونَغمات طيورِها الطيّبة ، وألحانِها الموزونة الغريبة ، ولحظ فى تربِيتها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذواتِ الأشكال الحسَنة المنظَر ، العجيبة النّقش ، السالبة أعينَ الناظرين بحُسن زبرِجها ، وعجائبِ صُوَرِها ، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السفينة ، فرجع إليها فلم يصادِف إلا مكانا ضيّقا حرَجا ، فاستقرّ فيه . وبعضهم أكبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار ، وقد أعجبَه حُسنُها ، ولم تَسمَح نفسُه بإهمالها وتركِها ، فاستصحَب منها جملةً ، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلّا مكانًا ضيّقا ، وزاده ماحمله ضِيقًا ، وصار ثِقلا عليه ووَبالًا ، فندم على أخذِه ، ولم تُطِعه نفسُه على رميِه ، ولم يجد موضعا له ، فحمَله على عنقه

(١) ا : « قدم عليه » .

(٢) كذا فى ا ، وهو الصواب ، وفى ب ، د : « المنذر » .

ورأسِه ، وجلس فى المكان الضيّق فى السفينة ؛ وهو متأسّف على أخذِه ونادِم ، وليس ينفعه ذلك . وبعضُهم تولجَّ بتلك الأنوار والغِياض ، ونسىَ السّفينة وأبعَد فى متفرَّجِه ومتنزَّهه ، حتّى إنّ نداء الملاّح لم يَبلُغه لأشتغاله بأكل تلك الثّمار ، واشتمامِه تلك الأنوار ، والتفرّج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائفٌ على نفسه من السِّباع ، والسَّقطات والنَّكبات ، ونَهْشِ الحيّات ، وليس ينفكّ عن شَوْكٍ يتشبّث بثيابه ، وغصن يَجرح جسمَه ، ومَرْوةٍ تُدمِي رِجلَه ، وصوتٍ هائل يَفزَع منه ، وعَوْسَج يملأ طريقَه ، ويمنعه عن الأنصراف لو أراده ، وكان فى جماعة ممّن كان معه فى السّفينة بالهم حالُه ، فلمّا بلغهم نداء السّفينة راحَ بعضُهم مثقلا بما معه فلم يجدْ فى السفينة موضعا واسعا ولاضيّقا ، فبقِىَ على الشّطّ حتّى مات جوعا . وبعضهم بلَغه النّداء فلم يُعرِّج عليه ، واستغرقته اللّذّة ، وسارت السفينة ؛ فمنهم من أفترسَتْه السِّباع ، ومنهم من تاهَ وهامَ على وجهه حتّى هلكَ ، ومنهم من أرتَطَم فى الأوحال ، ومنهم من نهشَتْه الحيّات ، فتفرّقوا هَلْكَى كالجِيَف المنتِنة . فأمّا من وصل إلى السفينة مُثقلا بمـا أخذَه من الأزهار والفاكهة اللّذيذة ، والأحجار المعجِبة ، فإنهـا استرقّته وشغَلَه الحزن بحفظِها والخوفِ من ذَهابها عن جميع أموره ؛ وضاقَ عليه بطريقها مكانُه ، فلم تلبَث أن ذبلتْ تلك الأزهار ، وفسَدت تلك الفاكهة الغضّة ، وكَمَدتْ ألوانُ الأحجار وحالت ، فظهر له نَتْنُ رائحتها ، فصارت مع كونها مضيّقة عليه مؤذِيَةً له بنَتْنِها ووَحْشتها ، فلم يجد حيلةً إلاّ أن ألقاها فى البحر هَرَبًا منها وقد أثّر فى مِزاجه ما أكله منها ، فلم ينتهِ إلى بلده إلّا بعد أنْ ظهرتْ عليه الأسقام بما أكل وماشمّ من تلك الروائح ، فبلغ سقيما وَقيذاً مدبرا ، وأمّا من كان رجع عن قريب ومافاته إلاّ سَعَة المَحَلّ ؛ فإنّه تأذّى بضِيق المكان مدّة ، ولكن لمّا وصل إلى الوطن أستراح ، وأمّا من رجع أوّلا فإنّه وَجَـد المكان الأوسَع ، ووَصَل إلى الوطن سالما طيِّبَ القلب مسرورا .

فهذا مِثال أهلِ الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، ونسيانهم موردَهم ومصدرَهم ، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم ، وما أقبح حال من يزعُم أنه بصير عاقل وتغرّه حجارة الأرض، وهى الذهب والفضّة ، وهَشيم النَّبت وهو زينة الدنيا ، وهو يعلَم يقينا أنّ شيئاً من ذلك لا يَصحَبه عند الموت ، بل يصير كُلُّه وبالاً عليه ، وهو فى الحال الحاضرة شاغلٌ له بالخوف عليه ، والحزن والهمّ لحفظه ، وهذه حالُ الخَلْق كلّهم إلّا من عصَمَه الله .

وقد ضُرِب أيضا لها مِثالٌ آخَر فى عبور الإنسان عليها ؛ قالوا : الأحوال ثلاثة : حالٌ لم يكن الإنسان فيها شيئاً ، وهى ماقبل وجودِه إلى الأزَل ، وحالٌ لا يكون فيها موجودا مُشاهداً للدّنيا ، وهى بعد موته إلى الأبد ، وحالة متوسّطةٌ بين الأزَل والأبَد ، وهى أيّام حياته فى الدنيا ، فلينظر العاقلُ إلى الطَّرفين الطويلين ، ولينظرْ إلى الحالة المتوسّطة، هل يجد لها نسبةً إليها[1] ، وإذا رأى العاقل الدّنيا بهذه العين لم يركَن إليها ، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها ؛ فى ضُرّ وضِيق ، أو فى سَعةٍ ورَفاهة ، بل لا يَبنِي لَبِنةً على لَبِنة ؛ توفّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وما وَضَع لَبِنة على لَبِنة ، لا قَصَبة على قَصَبة . ورأى بعضَ الصّحابة بَنَى بيتا من جِصّ فقال : أرى الأمرَ أعجَل من هذا ، وأنكَرذلك ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله : مالى وللدنيا ؛ إنما مثلى ومَثَلُها كراكبٍ سار فى يوم صائف ، فرُفِعتْ له شجرةٌ فقام تحت ظِلّها ساعةً ثمّ راح وتركَها ؛ وإلى هذا أشار عيسى بنُ مريَمَ حيث قال : الدنيا قنطرة ، فاعبرُوها ولا تَعمرُوها ، وهو مَثَلٌ صحيح ، فإنّ الحياة الدنيا قَنطرةٌ إلى الآخرة ، والمَهْد هو أحد جانِبَى القَنطرة ، واللّحد الجانب الآخر ، وبينهما مسافة محدودة ، فمن النّاس من قطع نصفَ القَنطَرة ، ومنهم من قطع ثُلثَيها ، ومنهم من لم يبق له إلّا خُطوة واحدة وهو غافل عنها ؛ وكَيفَما كان فلابدّ من العبور والانتهاء ، ولا ريبَ أنّ عمارة هذه القنطرة ، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب ، د : « إليهما » .

هو محمول قسْرا وقهْرا على عُبورها ، يسوقه سائقٌ عنيف ، غاية الجهل والخذلان .

وفى الحديث المرفوعُ : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مرّ على شاةٍ ميّتةٍ ، فقال : أترون أنّ هـذه الشاة هيّنةٌ على أهلها : قالوا : نعم ، ومِنْ هوانها ألقوْها ، فقال : والذى نفسى بيده للدّنيا أهوَن على الله من هذه الشّاة على أهلِها ، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ بعوضة لما سَقَى كافراً منها شربةَ ماء » .

وقال صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجنُ المؤمن ، وجنّة الـكافر » .

وقال أيضا : « الدّنيا ملعونة ، ملعونٌ مافيها ، إلّا ما كان لله منها » .

وقال أيضا : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثِروا ما يبقَى على ما يَفنى » .

وقال أيضا : « حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة » :

وروى زيدُ بنُ أرقَم قال : كنّا مع أبى بكر ، فدعا بشراب ، فأُتِى بماء وعَسَل ، فلما أدناه مِنْ فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، فسكتوا وما سكت ، ثم عاد ليشرَب ، فبكى حتّى ظنُّوا أنّهم لا يقدِرون على مسألته ، ثمّ مسح عينيه ، فقالوا : ياخليفةَ رسول الله ، ماأبـكاك ؟ قال : كنتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فرأيتهُ يدفَع بيَدِه عن نفسه شيئاً ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يارسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : هذه الدّنيا مُثّلت لى ، فقلتُ لها : إليك عنى ، فرجعتْ وقالت : إنّك إن أفلتّ منّى لم يفلتْ منّى مَن بعدَك . وقال صلّى الله عليه وآله : « ياعجَبا كلّ العجَب للمصدّق بدار الخلود وهو يَسْعى لدار الغرور ! » .

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام : لا تتّخذوا الدّنيا ربًّا فتتخذكم الدّنيا عَبيدا ؛ فاكنزوا كَنزَكم عندَ من لا يضيّعه ؛ فإن صاحب كَنز الدنيا يخافُ عليــه الآفة ، وصاحب كنز الآخرة لا يخاف عليه .

الأصل :

مَنْ أبطأ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

وفى رِوَايَةٍ أُخْرَى : مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ ، لَمْ يَنْفَعْهُ حَسَبُ آبائِهِ .

***

الشرح :

قد تقدّم مِثلُ هذا ، وقد ذكرنا ما عندنا فيه ، وقال الشاعر :

لئن فخرتَ بآباء ذَوِى حَسَبٍ ... لقد صدقتَ ولكن بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال : أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية ، وتبجّح بالقرون الماضية ، واتّكل على الأيام الخالية .

وكان يقال : من طريف الأمور حَيٌّ يتّكل على ميت . وكان يقال : ضَعة الدنىّ فى نفسه والرفيع فى أصله ، أقبح من ضعة الوضيع فى نفسه وأصْله ؛ لأن هذا تشبّه بآبائه وسَلفِه ، وذاك قصّر عن أصله وسَلَفه ، فهو إلى الملامة أقرب ، وعن العذر أبعد .

افتخر شريفٌ بأبيه ، فقال خَصمه : لو وفّقتَ ، لما ذكرت أباك ، لأنه حجّةٌ عليك تُنادى بنقصك ، وتقرّ بتخلّفك .

كان جعفر بنُ يحيى يقول : ليس من الكِرام من افتخَر بالعظام .

وقال الفضل بن الرّبيع : كفى بالمرء عاراً أن يفتخِر بغيره .

وقال الرشيد : من افتخر بآبائه فقد نادى على نفسه بالعجز ، وأقر على همته بالدناءة .

وقال ابنُ الرّومىّ :

وما الحسبُ الموروثُ لا درَّ درُّه ... بمحتسب إلا بآخرَ مكتسبْ
إذا العُود لم يُثمر وإن كان شُعبةً ... من الثّمرات اعتدّه الناسُ فى الحطَبْ

وقال عبدُ الله بن جعفر :

لسنا وإن أحسابُنا كرُمتْ ... يوما على الآباء نتّكِلُ
نَبنِي كما كانت أوائلنــــا ... تَبنِي ، ونفعــلُ مِثلَ ما فعلوا

وقال آخَر :

وما فخرِى بمجدٍ قام غيرِى ... إليه إذا رقدتُ الليــلَ عنهُ
إلى حَسَبِ الفتى فى نفسِه أنظرْ ... ولا تنظرْ هُديتَ إلى ابن مَن هُو

وقال آخر :

إذا فخرتُ بآبائى وأجــدادى ... فقد حكمتُ على نفسى لأضدادى
هل نافعى إن سَعَى جَدّى لمكرمةٍ ... ونمت عن أختها فى جانب الوادى!

وقال آخر :

أيُقنِعُنِي كونى بمَنْ كونِيَ ابنهُ ... أبَا لِىَ أن أرضى لفخرى بمجدِهِ
إذا المرء لم يحو العَلاَء بنفسه ... فليس بحاوٍ للعَــــلاء بجدِّه
وهل يقطع السّيف الحسام بأصله ... إذا هو لم يقطع بصارم حَدِّهِ !

وقيل لرجل يُدِلّ بشرفِ آبائه : لَعمرى لك أوّل ، ولــكن ليس لأوّلك آخر .

ومثلُه ، أنّ شريفا بآبائه فاخر شريفا بنَفْسه ، فقال الشريف بنفسه : انتهى إليك شَرَفُ أهلك ، ومنّي ابتدأ شرَفُ أهلي ، وشتّان بين الابتداء والانتهاء !

وقيل لشريف ناقِص الأدب : إنّ شرفك بأبيك لغيرِك ، وشرفك بنفسِك لك ، فافرُقْ بين ما لكَ وما لغيرِك ، ولا تفرَح بشرف النسب ، فإنه دون شَرف الأدب .



(٣٩٣)

الأصلُ :

مَنْ طَلَبَ شيئاً نالَهُ أوْ بَعضَهُ .

***

الشرحُ :

هذا مِثلُ قولهم : مَنْ طلبَ وَجَدَ وجَدَ .

وقال بعضُ الحكماء : ما لازمَ أحدٌ بابَ المَلِكِ فاحتَمل الذلّ وكَظَم الغيظ ورَفق بالبوّاب وخالط الحاشية إلاّ وصَل إلى حاجته من المَلِكِ .

الأصْلُ :

ما خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ ، وما شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ ؛ وكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عافِيَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

موضع «بعده النار» رَفعٌ لأنّه صفة «خير» الذي بعد «ما» ، وخير يرفع لأنه اسمُ ما ، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنه خبر ما ، والباء زائدة ، مِثلها فى قولك : ما أنت بزيد ، كما تزاد فى خبر ليس ، والتقدير ما خيرٌ تتعقبه النار بخير ، كما تقول : ما لذّة تتلوها نغصة بلذّة ، ولا ينقدح فى ما : الوجهان اللّذان ذكرهما أربابُ الصّناعة النحوية فى «لا» فى قولهم : لا خير بخير بعدَه النار ، أحدهما ما ذكرناه فى ما ، والآخر أن يكون موضع «بعده النار» جرًّا لأنه صفة خير المجرور ، ويكون معنى الباء معنى فى كقولك : زيدٌ بالدار وفى الدار ، ويصير تقديرُ الكلام : لا خير فى خيرٍ تعقُبه النار ، وذلك أن ما تَستدعى خبَرا موجودا فى الكلام ، بخلاف لا ، فإن خبرها محذوف فى مِثل قولك : لا إلٰه إلاّ الله ، ونحوه ، أى فى الوجود أولنا أو ما أشبه ذلك ، وإذا جعلت بعده صفة خير المجرور لم يبق معك ما تجعله خبر ما .

وأيضا فإنّ معنى الكلام يَفسد فى ما بخلاف لا ، لأنّ لا لنفى الجنس ، فكأنه

نَفَى جنسَ الخير عن خير تتعقّبه النار ؛ وهذا معنى صحيح ، وكلامٌ منتظم ، وما ها هنا إن كانت نافيةً احتاجتْ إلى خبر ينتظم به الكلام ، وإن كانت استفهاما فَسَد المعنى ، لأنّ «ما» لفظ يُطلب به معنى الاسم ، كقوله : ما العَنقاء ؛ أو يُطلَب به حقيقةُ الذات ، كقولك : ما المَلَك ؟ ولست تطيق أن تدّعى أنّ ما للاستفهام ها هنا عن أحد القِسْمين مَدْخلا لأنك تكون كأنّك قد قلت : أىّ شىء هو خيرٌ فى خير تتعقبه النار ؟ وهذا كلامٌ لا معنى له .



الأصْلُ :

أَلا وَإِنَّ مِنَ الْبَلاءِ الفاقَةَ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ ؛ أَلا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ الْمَالِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةَ الْبَدَنِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلام فى الفاقة والغنى ، فأما المرض والعافية ففى الحديث المرفوع : « إليك انتهت الأمانىّ ياصاحبَ العافية » . فأمّا مرض القلب وصحته فالمراد به التقوى وضدّها ، وقد سبق القول فى ذلك .

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتب :

المالُ للمرءِ فى معيشتِه ... خيرٌ من الوالدَين والولدِ
وإن تَدُمْ نعمةٌ عليك تجِدْ ... خيراً من المال صحّةَ الجسدِ
وما بمن نَالَ فضلَ عافيةٍ ... وقوتَ يومٍ فقرٌ إلى أحدِ

(٣٩٦)

الأصْلُ :

الْمُؤمِنِ ثَلَاثُ ساعاتٍ : فساعةٌ يُناجِي فِيها رَبَّهُ ، وساعةٌ يَرُمُّ فيها مَعايِشَهُ ، وساعَةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ ؛ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شاخصاً إلّا في ثَلاثٍ : مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ ، أَوْ خُطْوَةٍ في مَعادٍ ، أَوْ لَذَّةٍ في غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

***

الشَّرْحُ :

تقدير الكلام : ينبغى أن يكون زمانُ العاقل مقسوما ثلاثةَ أقسام .

ويرُمّ معاشَه : يُصلِحه . وشاخصا : راحلا . وخطوة فى معاد ، يعنى فى عمل المَعاد ، وهو العبادة والطّاعة .

وكان شيخُنا أبو علىّ رحمه الله يَقسِم زمانَه على ما أصف لك : كان يُصلّى الصبحَ والكواكبُ طالعة ، ويجلس فى محرابه للذّكر والتّسبيح إلى بعد طُلوع الشمس بقليل ، ثمّ يتكلّم مع التلامذة وطلبةِ العلم إلى ارتفاع النّهار ، ثمّ يقوم فيصلّى الضُّحى ، ثمّ يجلس فيتمّ البحثَ مع التلامذة إلى أن يؤذّن للظّهر ، فيصلّيها بنوافلها ، ثمّ يدخل إلى أهله فيُصلِح شأنَه ، ويقضى حوائجه ، ثمّ يخرج للعصر فيصلّيها بنوافلها ، ويجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصلّيها ، ويصلّى العِشاء ، ثم يشتغل بالقرآن إلى ثُلثِ الليل ، ثم ينامُ الثلث الأوسَط ، ثمّ يقوم فيصلّى الثُّلثَ الأخير كلَّه إلى الصّبح .

الأصْـلُ :

ازْهَدْ فِى الدُّنْيا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا ، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

أمرَه بالزُّهد فى الدنيا ، وجعل جزاء الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا ، وهذا حقٌّ ، لأنَّ الرَّاغب فى الدُّنيا عاشقٌ لها ، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه ، كما قال القائل :

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِى المَساوِيَا[1]

فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها ، وإذا سخطها أبصرَ عيوبَها مُشاهدةً لا رواية .

ثمَّ نهاه عن الغفلة ، وقال له : إنّك غيرُ مغفول عنك ، فلا تغفَل أنتَ عن نفسك ، فإنَّ أحقَّ الناس وأولاهم ألّا يَغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه ؛ ومن عليه رقيب شَهيدٌ يناقِشه على الفَتِيل والنَّقِير[2] .

(١) هو عبد الله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ (طبعة دار الكتب) .

(٢) الفتيل : ما يكون فى شق النواة ، والنقير : النقرة التى فى ظاهر النواة .

(٣٩٨)

الأصْـلُ :

تَـكَلَّمُوا تُعْرَفُوا ، فَإِنَّ المَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

هذه إحدى كلماته عليه السلام التي لا قيمةَ لها ، ولا يقدر قَدْرُها ؛ والمعنى قد تَداوَله الناسُ قال :

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجبٍ زيادتُه أو نقصُــه في التَّـكلّمِ[1]

لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللَّحمِ والدّمِ

وكان يحيى بنُ خالد يقول : ما جلسَ إليَّ أحـدٌ قطّ إلّا هِبْتُهُ حتّى يتكلَّمَ ، فإذا تكلَّم إمّا أن تزداد تلك الهَيبة أو تنقُص .

---

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته بشرح الزوزني ٩٤ ، وينسبان أيضا للأحنف بن قيس ، وانظر شرح العيون ١١٢ .

(٣٩٩)

الأصل :

نِعمَ الطِّيبُ المِسْكُ ، خَفيفٌ مَحمِلُهُ ، عَطِرٌ رِيحُهُ .

* * *

[فصل فيما ورد في الطِّيب من الآثار]

الشرح :

كان النبيّ صلّى الله عليه وآله كثيرَ التطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب . وجاء في الخبر الصّحيح عنه : « حُبِّبَ إليّ من دنياكم ثلاث : الطِّيب ، والنّساء ، وقُرّة عيني في الصّلاة » .

وقد رُويت لفظةُ أميرالمؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة . ونحوها : « لا تردُّوا الطّيب فإنّه طيّب الريح ، خفيفُ المَحمل » .

سَرقَ أعرابيٌّ نافجَة مِسْك ، فقيل له : ﴿ ومَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامة ﴾[1] ، قال : إذَنْ أحمِلها طيّبةَ الرّيح ، خفيفةَ المَحمل .

وفي الحديث المرفوع أنّه عليه السلام بايع قوماً كان بيدِ رجلٍ منهم رَدْعٌ[2] خَلوق ، فبايعه بأطراف أصابعه ، وقال : « خيرُ طيبِ الرجال ما ظَهرَ ريحُهُ وخَفِيَ لونُهُ ، وخيرُ طِيبِ النّساء ما ظَهَرَ لونُهُ وخَفيَ رِيحُهُ » .

وعنه عليه السلام في صفة أهل الجنّة : « ومَجامِرُهم الألُوّة[3] » ، وهي العُودُ المندىّ .

---

(١) سورة آل عمران ١٦١ (٢) ردع الزعفران : لطخه . (٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ٧٠

وروى سهلُ بنُ سعد عنه عليه السلام : « إنّ فى الجنة لَمراغاً من مِسْك مِثل مَراغ دوابّكم هذه » .

ورُوِى عنه عليه السلام أيضا فى صفة الكوثر : « جاله المِسك ـ أى جانبه ـ ورَضْراضه التُّوم ، وحَصباؤه اللؤلؤ »[1] .

وقالت عائشة : كأنّى أنظر إلى وَبِيص المِسْك فى مَفارِق رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وهو مُحرِم[2] .

وكان ابنُ عمر يَستجمِر بعُود غير مُطَرّى ويجعَل معه الكافور ، ويقول : هكذا رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يَصنَع .

وروى أنسُ بنُ مالك قال : دخل علينا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فقال عندَنا والوقتُ صَيف ، فعرِق ، فجاءت أمّى بقارُورة فجعلت تَسلُت عرَقه ، فاستيقظ وقال : ياأمّ سُلَيم ، ماتصنعين ؟ قالت : هـذا عرَقك نجعَله فى طيبنا ، فإنّه من أطيَب الطِّيب ، ونَرجُو به برَكةَ صِبْيانِنا ؛ فقال : أصَبْت .

ومن كلامِ عمَر : لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غيرَ العِطْر ، إن فاتنى رِبحُه لم يَفُتني رِيحُه .

ناوَل المتوكّل أحمدَ بن أبى فَنَن فأرة مِسك ، فأنشدَه :

لئن كان هذا طِيبنا وهو طَيِّبٌ ... لقد طيّبَتْه من يدَيك الأنامِلُ

قالوا : سُمّيَت الغالية غاليةً ، لأنّ عبدَ الله بنَ جعفر أهدَى لمعاويةَ قارورةً منهـا ، فسأله ، كم أنفقَ عليها ، فذكَر مالًا ، فقال : هذه غالية ، فسُمّيتْ غالية .

شمّ مالكُ بنُ أسماء بنِ خارجة الفَزارِىّ من أخته هند بنت أسماء رِيحَ غالية ، وكانت تحتَ الحجّاج ، فقـال : علِّمينى طِيبك ؛ قالت : لا أفعـل ، أتريد أن تعلّمَه

(١) التوم : الدر . وهى من « د » .

(٢) الوبيص : البريق :

جَوارِيك ! هُوَ لك عنـدى ما أردتَه ، ثم ضحكتْ وقالت : واللهِ ما تعلّمْتُه إلّا من شِعرِكَ حيثُ قلتَ :

أطيَبُ الطِّيبِ طيبُ أمِّ أبَانٍ فأرُ مسكٍ بعنـــبرٍ مَسحوقِ
خَلَطَتْـــه بعُودِها وبِبانٍ فهو أحوَى على اليَدَيْن شريقِ

وروَى أبو قِلابة قال : كان ابنُ مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عرَف مَن فى الطريق أنّه قد مرّ من طِيب رِيحه .

ورَوَى الحسنُ بنُ زَيد عن أبيه ، قال : رأيتُ ابنَ عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنّها الرُّبّ .

أوْلَمَ المتوكّل فى طُهر بَنيه ، فلمّا كثُر اللّعب قال ليحيى بن أكثم : انصرف أيّها القاضى ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنّهم يريدون أن يَخلطـوا ؛ قال : أحوَج مايكونون إلى قاضٍ إذا خلّطوا ، فاستَظرَفه وأمرَ أن تُغلَّف لحيتُه ؛ ففُعل ؛ فقـال يحيى : إنا لله ! ضاعتِ الغالية ، كانت هذه تـكفينى دَهْرا لو دُفِعتْ إلىّ ، فأمر له بزَوْرَق لطيفٍ من ذهب مملوء من غالية ودُرْج بَخُور ، فأخَذَها وانصرف .

وروَى عِكرمةُ أنّ ابنَ عبّاس كان يَطلِى جسدَه بالمسك ، فإذا مرّ بالطريق قال الناس : أمرّ ابنُ عبّاس أمِ المِسك ؟

وقال أبو الضُّحى : رأيتُ على رأس ابنِ الزّبير من المِسك مالو كان لى لـكان رأس مالى .

لمّا بَنَى عمرُ بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتَ عبد الملك أسرَج فى مَسارِجه تلك الليلة الغالية إلى أن طَلَعت الشمس .

كانت لابن عمر بُندُقة من مسك يَبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها[1] .

كان عمرُ بنُ عبد العزيز فى إمارته المدينة يجعل المِسكَ بين قَدَميه ونعلِه ، فقال فيه الشاعر يمدحه :

له نَعلٌ لا تَطَّبِي الـكلبَ ريحُهـا[2] وإن وُضِعت فى مجلسِ القوم شُمَّت

---

(١) يبوكها بين راحتيه : أى يقلبها . (٢) يطبى : يستميل . والبيت لـكثير ، انظر خزانة الأدب ٤ : ١٤٧

سَمِع عمرُ قولَ سُحَيم عبدِ بنى الحسْحاس :

وهبّت شَمالٌ آخر اللّيـلِ قرّةٌ ولا ثوبَ إلّا دِرعها ورِدائيا [١]

فمـا زال بُردى طيّبا من ثيابها مَدى الحوْل حتّى أنهَج البُرداليا

فقال له : وَيْحَك ! إنك مقتول ، فلم تَمضِ عليه أيّام حتّى قُتِل .

قال الشّعبي : الرائحة الطيّبة تزيد فى العقل .

كان عبدُ الله بنُ زيد يتخلّق بالخلوق ، ثمّ يجلس فى المجلس .

وكانوا يستحِبّون إذا قاموا من اللّيل أن يَمسَحوا مَقَاديمَ لِحاهم بالطّيب .

واشترى تَميم الدّارىّ حُلّة بثمانمائة دِرهم ، وهيّأ طِيبا ، فكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبِس حُلّتَه ، وقام فى المحراب .

وقال أنَس : ياجميلة ، هيّئى لنا طِيبا أمسحْ به يدى ، فإنّ ابنَ أمّ ثابت إذا جاء قبّل يدِى — يَعنِى ثابتا البُنانىّ .

وقال سَلم بنُ قُتيبة : لقد شممتُ من فلانٍ رائحةً أطيَب من مَشْطة العَروس الحسْناء فى أنْف العاشق الشّبِق .

ومن كلامِ بعضِ الصّالحين : الفاسق رِجْس ولو تَضَمّخَ بالغالية .

عرَضتْ مدنيّة لكُثيّر فقالت له : أنت القائل :

فمـــا روْضةٌ بالحزْن طيّبة الثّرى يَمُجّ النّدَى جَثْجاثُهـــا وعَرارُها

بأطيَبَ مِن أردانِ عَـــزّةَ مَوْهِنًا وقد أوقدتْ بالمَندَل الرّطب نارُها

لو كانت هـذه الصّفة لزَنجيّة تجتـلى الحلّة لطابت ، هلاّ قلت كما قال سيّدك [٢] أمرؤ القيس :

---

(١) ديوانه ٢٠ .

(٢) ق د « سيدالشعراء » .

ألمْ تَرَيانى كلَّما جئتُ طارقا وجدتُ بهـا طِيباً وإن لم تَطيَّبِ [(١)]

وقال الزَّمخشرىّ : إنّ النوى المُنقَع بالمدينة ينتاب أشرافُها المواضعَ التى يكون فيها ٱلتماسا لطِيب رِيحه ، وإذا وَجَدوا ريحَه بالعِراق هَرَبوا منها لحُبها ؛ قال : ومن اُختلف فى طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبَنَّة [(٢)] عجيبة ؛ ولذلك سُمّيت طَيْبة ، والزِّنجيّة بها تجعَل فى رأسها شيئاً من بلحٍ ومالا قيمة له ، فتجد له خُمرةً لا يعدلهـا بيتُ عَروس من ذَوات الأقدار .

قال : ولو دخلت كلّ غالية وعطر قصبةَ الأهواز وقصبةَ أنطاكية لوجدتها قدتغيّرتْ وفسدتْ فى مدّة يسيرة .

أراد الرشيد المُقام فى أنطاكية ، فقال له شيخ منها : إنّها ليست من بلادِك ، فإنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيّر فيها حتّى لا يُنتفَع منه بشىء ، والسّلاح يَصدأ فيها .

سِيراف : من بلادِ فارسَ ، لهـا فغْمة طيّبة .

فأرة المِسْك دُوَيْبة شبيهة بالخِشْف [(٣)] تـكون فى ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها ، فإذا صادها الصائد عَصَب سُرّتها بِعصاب شديد وهى مدلّاة ، فيجتمع فيها دَمُها ، ثمّ يذبحها ، وما أكثرَ من يأكلها ، ثمّ يأخذ السرّة فيَدفِنهـا فى الشَّعْر حتى يستحيلَ الدمُ المحتقِن فيها مسكا ذكيّا بعـد أن كان لا يرام نَتْنا ، وقد يوجـد فى البيوت جِرْذان سُودٌ يقال لها : فأر المِسك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها .

وذكر شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ قال : سألتُ بعضَ أصحابنا المعتزِلة عن شأن المِسْك ، فقال : لولا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله تطيّب بالمسك لماتطيّبتُ به ، لأنّه دم ؛ فأمّا

---

(١) ديوانه ٤١

(٢) البنة : الرائحة مطلقا .

(٣) الخشف : ولد الظبي .

الزّباد فليس ممّا يقرُب ثيابى ، فقلتُ له : قد يرتضع الجدْى من لبن خنزيرة فلا يحرُم لحمُه ، لأنّ ذلك اللّبن استحال لحما ، وخرج من تلك الطّبيعة ، وعن تلك الصورة ، وعن ذلك الاسم ، وكذا لحم الجلاّلة ، فالمسك غيرُ الدّم ، والخلّ غيرُ الخمر ، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينِه ، وإنّما يَحرُم للأعراض والعِلل فلا تقزز[1] منه عند ذِكرك الدّم ، فليس به بأس .

قال الزّمخشرىّ : والزّبادة هِرّة . ويقال للزّيْلَع ، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يازَيْلع ، الزّبادة ماتت ، فيَغضَب .

وقال ابن جَزْلة الطّبيب فى المنهاج[2] : الزّباد طيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنّور يقال : إنّه وَسَخ فى رَحِمها .

وقال الزّمخشرى : العنبر يأتى طُفاوةً على الماء لا يدرى أحـدٌ معدنه ، يقذفه البحر إلى البرّ فلا يأكل منه شىء إلاّ مات ، ولا ينقرُه طائرٌ إلاّ بقى منقارُه فيه ، ولا يقع عليـه إلاّ نصلَتْ أظفارُه ، والبحريّون والعطّارون ربّما وجدوا فيه المنقار والظّفر .

قال : والبال ، وهو سَمكة طولها خمسون ذراعا ، يؤكل منه اليسير فيموت .

قال : وسمِعتُ ناسا من أهل مـكة يقولون : هو ضفع[3] ثور فى بحر الهند ، وقيـل : هو من زبد بحر سَرَنْديب ، وأجـودُه الأشهب ، ثمّ الأزرق ، وأدونُه الأسوَد .

وفى حديث ابن عبّاس : ليس فى العنبر زكاة ، إنمـا هو شىء يَدْسُرُه البحر ، أى يدفعـه .

---

(١) تقزز منه : تباعد .

(٢) كتاب المنهاج لابن جزلة الطبيب ؛ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٧ ـ طب .

(٣) ضفع الثور : نجوه

فأما صاحب المنهاج فى الطّبّ فقال : العنبر من عين فى البحر ، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال ، والأسود أردأ أصنافه ، وكثيرا ما يوجد فى أجوافِ السمك التى تأكله وتموت ، وتوجد فيه سُهُوكة .

وقال فى المِسك : إنه سُرّة دابّة كالظّبي ، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسى كقَرْنين . جاء فى الحديث المرفوع : « لا تمنعوا إماءالله مساجدَ الله ، وليخرجن إذا خرجن تَفِلاتٍ » ، أى غير متطيّبات[1] .

وفى الحديث أيضا : « إذا شهِدَتْ إحداكُن العشاء فلا تمسّ طِيبا » ؛ والمراد من ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال .

قال الشاعر :

والمِسكَ بينا تراه ممتهنًا بفهرِ عطّارِه وساحقِــهِ
حتى تراه فى عارِضَىْ مَلِكٍ أو موضَع التّاج من مَفارِقِه

الصَّنَوْبَرِىّ فى استهداء المِسْك :

المِســك أشبَه شيء بالشباب فهَبْ بعضَ الشباب لبعضِ العُصْبة الشِّيبِ

يقال : إنّ رجــلا وَجَد قِرطاسا فيه اسم الله تعالى ، فرفَعه ، وكان عنده دينار ، فاشترى به مِسْكا ، فطيّبه ، فرأى فى المنام قائلا يقول له : كما طيبّت اسمى لأطيبَنّ ذِكرك .

قال خالدُ بنُ صَفْوان ليزيد بن المهلّب : ما رأيت صدأ المِغفر ، ولا عبَق العَنبر بأحد أليقَ منه بك ، فقال : حاجَتك ؛ قال : ابنُ أخ لى فى حَبْسك ، فقال : يسبقك إلى المنزل .

---

(١) المنهاج . الورقة : ١٧٤

شاعر :

كأنّ دُخانَ النَدّ ما بين جَمْرِه بقايا ضَبابٍ فى رياضِ شقيقِ

قالوا : خيرُ العُود المَندَلِىّ ، وهو منسوبٌ إلى مَندل قريةٌ من قُرَى الهند ، وأجوَدُه أصلَبه ، وامتحان رَطْبه أن ينطَبِع فيه نَقْش الخاتَم ، واليابس تَفْضِح عنه النار ، ومن خاصية المَندَلىّ أنّ رائحته تثبت فى الثوب أسبوعا ، وأنه لا يقمل ما دامت فيه .

قال صاحبُ المِنهاج[1] : العُود عروقُ أشجارٍ تُقلع وتُدْفن فى الأرض حتى تتعفّن ، منها الخشبيّة والقشريّة ، ويبقى العود الخالص ، وأجوَدُه المندلِىّ ، ويُجلب من وَسَط بلاد الهند ، ثم العود الهندىّ ، وهو يفضل على المَنْدَلِىّ بأنه لا يولّد القَمْل ، وهو أعبق بالثّياب .

قال : وأفضل العُود أرسَبُه فى الماء ، والطافى ردىء .

قال أبو العبّاس الأعمى :

ليت شَعرِى من أينَ رائحةُ المِسْـ ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أُنْسِى
حين غابتْ بنو أميّـةَ عنه والبَهاليـــل من بنى عبدِ شَمس
خُطباءُ على المنـــابر فُرْسا نٌ على الخيْل قالةٌ غيرُ خُرْس
بحُلومٍ مِثـــلِ الجبال رِزانٍ ووجوهٍ مِثــلِ الدّنانير مُلْسِ

المسيّب بن عَلَس[2] :

تبيت المــلوكُ على عَتْبِهــا وشَيْبان إن غضبتْ تُعْتَبُ
وكالشّهــد بالراح ألفاظُهم وأخلاقُهمْ منهمـا أعذَبُ

(١) المنهاج الورقة ١٧٤ (٢) ديوان الأعشين ٣٥٠

وكالمِسك تُربُ مَقاماتِهم   وتُربُ قُبُــــورِهمُ أطيبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف فقال :

وأنتَ إذا ما وطئتَ التُّرابَ   كأنّ ترابك للنـاسِ طِيبا

وهجا بعضُ الشعراء العمّال فى أيّام عمر ، ووقع عليهم ، فقال فى بعض شعره :

نئوبُ إذا آبوا ونَغزُوا إذا غزَوْا   فأنَّى لهمْ وَفرٌ ولسنا ذَوِى وفرِ

إذا التاجرُ الدّارىُّ جاء بفأرةٍ   من المِسك راحتْ فى مَفارقِهمْ تجرِى

فقبض عمرُ على العمال وصادرَهم .

قالوا فى الـكافور : إنه ماء فى شجر مكفور فيه يَغرزونه بالحديد ، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضرَبه الهواء فانعقــد كالصّموغ الجامدة على الأشجار .

وقال صاحبُ المنهاج[(١)] : هو أصناف : منها الفَنصورى[(٢)] ، والرَّباحى[(٣)] ، والأزاد ، والإسْفَرك[(٤)] الأزرق ، وهو المختلط بخشبه ، وقيل إن شجرته عظيمة تُظِلّ أكثر من مائة فارس ، وهى بحرية ، وخشب الـكافور أبيض إلى الحمرة خفيف ، والرَّباحى يوجد فى بدن شجرته قِطَع كالثلج ، فإذا شققتَ الشجرةَ تناثر منها الـكافورُ .

النَّدّ : هو الغالية، وهو العود المطرّى بالمسك والعَنْبر ودُهن البان ، ومن الناس من لا يضيفُ إليه دهنَ البان ، ويجعل عوضه الـكافور ، ومنهم لا يضيف إليه الـكافورَ أيضا ، ومن الناس من يركّب الغالية من المسك والعنبر والـكافور ودُهْن النَّيْلوفر .

قال الأصمعى : قلتُ لأبى المهدّية الأعرابىّ : كيف تقول: ليس الطِّيب إلّا المِسك ؟ فلم يحفل الإعرابىّ ، وذهب إلى مذهب آخر ، فقال : فأين أنت عن العنبر ؟ فقلت : كيف تقول: ليس الطِّيب إلا المسك والعنبر ؟ قال : فأين أنتَ عن البان ، قلت : فكيف

(١) المنهاج : ورقة ١٧٧ .

(٢) فنصور : جزيرة سرنديب . انظر المفردات لابن البيطار ج ٤ : ٤٢ طبع بولاق .

(٣) نسبة إلى ملك اسمه رباح انظر نهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

(٤) كذا فى قانون ابن سينا وشرح الأدوية المفردة للكازرونى ونهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

تقول : ليس الطِّيب إلّا المِسك والعنبر والبان ؟ قال : فأين أنت عن ادّهان بحجرٍ – يعنى اليمامة ، قلت : فكيف تقول ليس الطِّيب إلاّ المسك والعنبر والبان وادّهان بحَجَر ؟ قال : فأين أنت عن فارة الإبل صادرةً ؟ فرأيت أنى قد أكثرتُ عليه ، فتركتُه قال : وفارة الإبل رِيحها حين تصدرُ عن الماء . وقد أكلت العُشب الطيب .

وفى فارة الإبل يقول الشاعر :

كأنّ فارةَ مسكٍ فى مباءتها ... إذا بدا من ضِياء الصبح تنتشرُ

كان لأبى أيوب المَوْرُيانىّ وزيرالمنصور دُهن طيّبٌ يدّهن به إذا ركب إلى المنصور ، فلمّا رأى الناسُ غلبتَه على المنصور وطاعتَه له فيما يريده ، حتّى إنه ربما كان يستحضره ليوقع به ، فإذا رآه تبسّم إليه وطابت نفسه قالوا : دهن أبى أيّوب من عمل السحرة ، وضربوا به المَثَل ، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان : معه دُهْنُ أبى أيوب .

أعرابىّ : فيها مَدَرّ كفّ ومَشَمّ أنف .

وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزارىّ :

لو كنتُ أحمل خمراً حين زُرْتكُمُ ... لم ينكر الكلبُ أنّى صاحبُ الدّار
لكنْ أتيتُ وريح المسك يقدُمنى ... والعَنبر الورْد مَشْبوبا على النّارَ
فأنكر الكلبُ ريحى حين خالطنى ... وكان يألف ريح الزّقّ والقارِ

قال الأصمعى : ذكر لأبى أيوب هؤلاء الذين يتقشّفون ، فقال : ماعلمتُ أن القَذَر والذّفر من الدِّين .

ريحُ الكَلْب مَثَلٌ فى النّتن ، قال الشاعر :

ريحُها ريحُ كلابٍ ... هارشتْ فى يومِ طَلٍّ

وقال آخر :

يزدادُ لؤما على المديح كما ... يزدادُ نَتْنُ الكلاب فى المطرِ

وقالت امرأةُ امرئِ القيس له وكان مُفَرَّكاً عند النساء : إذا عرقتَ عرقتَ بريح كلْب . قال : صدقتِ ، إنّ أهلي أرضعوني مرّةً بلبن كلبة .

قال سَلَمَة بنُ عيّاش ، يقول لجعفر بن سليمان :

فما شم أنفي رِيحُ كفٍّ رأيتها　　من النّاس إلّا ريح كفك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر .

وجّــه عمرُ إلى مَلِك الرّوم بريدا فاشترتْ أمُّ كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانير وجعلته فى قارورتين وأهدَتْهما إلى امرأة ملك الرّوم ، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارُورتين جواهر ، فدخل عليها عمر ، وقد صبّت الجواهر فى حجرْها ، فقال : مِن أين لك هــذا ؟ فأخبرته ، فقبض عليه ، وقال : هذا للمسلمين ؟ قالت : كيف وهو عِوَض هديّتى ! قال : بيني و بينك أبوك ، فقال عليٌّ عليه السلام : لك منه بقيمة دينارك ، والباقى للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حمَلَه :

قيل لخديجة بنت الرشيد : رُسُل العبّاس بن محمد على الباب ، معهم زِنْبيل يحمله رجلان. فقالت: تراه بعث إلىّ باقلاء؟ فكشف الزنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مسحاة من ذَهب ، وإذا برُقعة : هذه جرّة أصيبتْ هي وأختها فى خزائن بنى أميّة ، فأمّا أختُها فغَلَب عليها الخلفاء ، وأمّا هذه فلم أرَ أحدا أحقّ بها منك .

الأصل :

ضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحطُطْ كِبْرَكَ ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى العجبْ والكبر والفخر .

***

[نبذ ممّا قيل فى التِّيه والفخر]

فى الحديث المرفوع : « إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّة وفخرها بالآباء ، الناسُ لآدم ، وآدمُ من تراب ، مؤمن تقىّ ، وفاجرٌ شقىّ ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهونَ على الله من جُعَلات[1] تدفع النَّتنْ بأنفها » .

ومن وصيّته صلى الله عليه وآله إلى علىّ عليه السلام : « لا فقر أشدّ من الجهل ، ولا وحشة أوحش من العُجْب » .

أتى وائلُ بن حُجْر النبىّ صلى الله عليه وآله فأقطعه أرضا ، وأمر معاوية أن يمضى معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه ، ويكتبها له ، فخرج مع وائل فى هاجِرة

---

(١) الجعلات : جمع جعل ؛ بضم ففتح : دويبة معروفة تغشى الأمكنة القذرة .

شاوية ، ومشى خلف ناقته فأحرقته الرّمضاء ، فقال : أردفنى : قال : لستَ من أرداف الملوك ، قال : فادفع إلىّ نعليك ، قال : مابخل يمنعنى يابن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال(١) اليمن أنك لبستَ نعلى ، ولكن امش فى ظلّ ناقتى فحسْبك بذاك شرفا ، و يقال : إنه عاش حتى أدرك زمن معاوية فأجلسه معه على سريره .

قيل لحكيم : ما الشىء الذى لا يَحسُن أن يقال و إن كان حقا ؟ فقال : الفخر .

حبس هشامُ بنُ عبد الملك الفرزدقَ فى سجن خالد بن عبد الله القسرىّ ، فوفد جرير إلى خالد ليشفع فيه ، فقال له خالد : ألا يسرّك أنّ الله قد أخزى الفرزدقَ ؟ فقال : أيها الأمير ، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشعرى ، و إنما قدمتُ لأشفعَ فيه . قال : فاشفع فيه فى ملأ ليكون أخزَى له(٢) ، فشفع فيه ، فدعا به فقال : إنى مُطلِقك بشفاعةِ جرير ، فقال : أسيرُ قسْرىّ ، وطليقُ كلبىّ ، فبأىّ وجه أفاخر العربَ بعدَها ! ردّنى إلى السّجن .

ذكر أعرابىّ قوما فقال : مانالوا بأناملهم شيئاً إلّا وقد وطئناه بأخامِص أقدامِنا ، و إن أقصى مُناهم لأدنى فعالنا .

نظر رجل إلى بعض ولد أبى موسى يختال فى مشيته ، فقال : ألا ترون مشيته ؟ كأنّ أباه خدَع عمرو بن العاص !

وسمع الفرزدق أبا بُردة يقول : كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكَمين ، فقال : أحدهما مائق ، والآخر فاسق ، فكن ابن أيّهما شئت .

نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أبى دُجانة وهو يتبختر بين الصّفّين ، فقال : « إنّ هذه مشية يبغضها الله إلّا فى هذا الموطن » .

---

(١) الأقيال : جمع قيل ؛ وهو الملك . (٢) فى د : « أذل له » ؛ وهو مستقيم أيضاً .

لما بلغ الحسن بن علىّ عليه السلام قول معاوية : إذا لم يكن الهاشمىّ جوادا والأموىّ حليما والعوّامىّ شجاعا والمخزومىّ تيّاها لم يشبهوا آباءهم ؛ فقال : إنه والله ماأراد بها النّصيحة ، ولـكن أراد أن يُفنىَ بنو هاشم مافى أيديهم فيحتاجوا إليه ، وأن يشجعوا بنى العوّام فيقتلوا ، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا ، وأن يحلم بنو أمية فيُحبّهم الناس .

كان قاضى القضاة محمّد بن أبى الشوارب الأموىّ تائها ، فهجاه عبدُ الأعلى البصرىّ فقال :

إنّى رأيتُ محمّدا متشاوساً مستصغراً لجميع هذى الناسِ[1]
ويقول لمّا أن تنفّس خاليا نفَسًا له يعلو على الأنفاسِ
وَيْح الخلافَة فى جوانب لحيتى تستنّ دون لِحَى بنى العبّاسِ !

بعض الأمويّة :

إذا تائهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَهُ يتيهُ فرشّحه لـكلِّ عظيمِ
وإن تاهَ تَيّاهٌ سواه فإنه يتيـهُ لحمقٍ أو يتيـه لِلُومِ

لبعض الأمويّة أيضاً :

ألسنا بنى مرْوان كيف تبدّلتْ بنا الحالُ أودارتْعلينا الدوائرُ !
إذا وُلد المولود منّا تهلّلتْ له الأرض واهتزّت إليه المنابرُ

بعض التيّاهين :

أتيهُ على إنْسِ البلاد وجِنّها ولو لم أجد خَلْقا أتيهُ على نفْسى
أتيه فلا أدرى من التّيه من أنا سوى مَنْ يقول الناسُ فىّ وفى جنْسى
فإنْ زعموا أنّى من الإنس مثلهم فمالىَ عيبٌ غير أنّى من الإنس

---

(١) المتشاوس : المختال عجباً وكبراً .

بعض العلوية .

لقد نازعتنا من قريش عصابةٌ ... بمطّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ

فلمّا تنازعنا الفخار قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع

ترانا سكوتاً والشهيدُ بفضلنا ... عليهمْ أذانُ الناس فى كلّ جامع

بأن رسول الله لا شكّ جدُّنا ... وأنّ بنيه كالنجوم الطوالع

كان عُمارةُ بن حمزة بن ميمون مولى بنى العباس مَثَلا فى التِّيه ؛ حتّى قيل : أتيَهُ من عُمارة . وكان يتولّى دواوينَ السّفّاح والمنصور ، وكان إذا أخطأ مضى على خطئه تكبّرا عن الرجوع ، ويقول : نَقْض و إبرام فى حالة واحدة ، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك .

وافتخرت أمّ سلمة المخزوميّة امرأةُ السفّاح ذاتَ ليلة بقومها على السّفّاح ، وبنو مخزوم يُضرَب بهم المَثَل فى الكِبْر والتّيه ، فقال : أنا أُحضرُكِ الساعةَ على غير أُهْبة مولًى من مواليّ ليس فى أهلك مِثله ، فأرسل إلى عُمارة ، وأمر الرسول أن يُعجِله عن تغييرِ زِيِّه ، فجاء على الحال التى وجده عليها الرّسول فى ثياب ممسّكة مزرّرة بالذّهب ، وقد غَلّف لحيتَه بالغالية حتّى قامت ، فرمى إليه السفّاح بِمُدْهن ذهب مملوء غالية ، فلم يلتفت إليه ، وقال : هل ترى لها فى لحيته موضعا ؟ فأخرجتْ أمّ سَلَمة عِقْداً لها ثمينا ، وأمرَت خادما أن يضعه بين يديه ، فقام وتركه ، فأمرت الخادمَ أن يَتْبَعه به ، ويقول : إنّها تسألك قبولَه ، فقال للخادم : هو لك ، فانصرف بالعِقْد إليها ، فأعطت الخادمَ فكاكَه عشرةَ آلافِ دينار ، واسترجعتْه ، وعجبتْ من نفس عُمارة ، وكان عمارة لا يذلّ للخُلَفاء وهم مواليه وَ يتيه عليهم .

نظر رجل إلى المَهدىّ ويدُه فى يد عُمارة ، وهما يَمشِيان ، فقال : ياأميرَ المؤمنين

مَن هذا ؟ قال : هذا أخى ، وابنُ عمّى عُمارة بن حَمْزة ، فلمّا ولّى الرجل ذكر المهدىّ الكلمةَ كالمازح لعُمارة ، فقال عُمارة : واللهِ لقد انتظرت أن تقول : مولاى فأنفض يدى من يدِك ، فتبسّم المهدىّ .

وكان أبو الرّبيع الغَنَوىّ أعرابيًّا جافيًا تيّاها شديدَ الكِبْر ، قال أبو العبّاس المبرّد فى الكامل : فذكر الجاحظ أنّه أتاه ومعه رجل هاشمىّ ، قال: فناديتُ : أبو الرّبيع هنا ؟ فخرج إلىّ وهو يقول : خرجَ إليك رجلٌ أكرَم الناسِ ، فلمّا رأى الهاشمىّ استحيا وقال: أكرمُ الناسِ رديفا ، وأشرَفهم حليفا[(١)] ـ أراد بذلك أبا مَرْثد الغَنَوىّ ، لأنّه كان رديفَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وحليفَ أبى بكر ـ قال : حدّثنا ساعة ثمّ نهض الهاشمىّ فقلت له : مَنْ خير الخلق ؟ قال : الناس والله ، قلت : مَن خيرُ الناس ؟ قال : العرَب والله ؛ قلت : فمَن خيرُ العرب ؟ قال : مُضَر والله ؛ قلتُ : فمن خيرُ مُضَر ؟ قال : قيس والله ؛ قلت : فمن خير قَيْس ؟ قال: يَعصُر والله ، قلت : فمن خير يَعْصُر ، قال: غَنِىّ والله ، قلت : فمن خيرُ غَنِىّ ؟ قال : المخاطِبُ لك والله ؛ قلتُ: أفأنتَ خيرُ الناس ؟ قال : إى والله ؛ قلت : أيسرّك أن تكون تحتك أمَة يزيدَ بنِ المهلّب ؟ قال : لا والله قلتُ: ولك ألف دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت : فألفا دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت : ولك الجنّة ، قال : فأطرَق ثم قال : على ألّا تلدَ منّى ، ثمّ أنشَدَ :

تأبَى ليَعصُرَ أعراقٌ[(٢)] مهذَّبةٌ من أن تُناسب قوماً غيرَ أكفاء
فإن يكن ذاك حتْماً لا مَرَدّ له فاذكر حذيفَ فإنّى غيرُ أبّاء[(٣)]

---

(١) قال أبو العباس : قوله : « وأشرفهم حليفاً » ؛ كان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

(٢) فى د : « أخلاق » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

(٣) قال أبو العباس : « قوله : « فاذكر حذيف » ؛ أراد حذيفة بن بدر الفزارى ؛ وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أقربهم إليه نسباً ؛ وذاك يعصر بن سعد بن قيس ، وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

(٤٠٣)

الأصلُ :

كلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كافٍ .

***

الشرحُ :

هذا من باب القناعة ، وإنّ من اقتصر على شيء وقنعتْ به نفسه فقد كفاه ، وقام مقام الفضول التى يرغب فيها المُترَفون ؛ وقد تقدّم القولُ فى ذلك .

(٤٠٤)

الأصل :

ألمنيّةُ ولا الدّنيّةُ ، والتّقلّلُ ولاَ التّوسّلُ .

***

الشرح :

قد تقدّم من كلامنا فى هذا الباب شىء كثير ، وقال الشاعر :

أُقسِم بالله لَمصُّ النّوى   وشربُ ماء القُلُبِ المالحه[1]
أحسنُ بالإنسان من ذُلّه   ومن سؤال الأوجهِ الكالحهْ
فاستغن بالله تكن ذا غنًى   مغتبطا بالصّفقة الرابحهْ
فالزّهد عزٌّ والتّقى سُؤددٌ   وذلّة النفس لهـا فاضحهْ
كم سالمٍ صِيح به بَغْتـةً   وقائلٍ عهدى به البارحهْ
أمسى وأمستْ عنده قَيْنةٌ   وأصبحتْ تندُبه نائحـهْ
طوبَى لمن كانت موازينهُ   يومَ يلاقى ربّه راجحهْ

وقال أيضا :

لَمصُّ الثّماد وخَرْطُ القَتادِ   وشربُ الأُجاجِ أوانَ الظّمَى
على المرء أهوَن من أن يُرَى   ذليلاً لخلقٍ إذا أعدَما
وخيرٌ لعينيك من مَنظَرٍ   إلى ما بأيدى اللّئام العمَى

قلتُ : لحاه الله ، هلاّ قال : بأيدى الرّجال !

(١) القلب بضمتين : جمع قليب ؛ وهى البئر .

الأصل :

مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِداً ، لَمْ يُعْطَ قائِماً .

***

الشرح :

مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى ، فمن لم يرزقه قاعدا لم يجب عليه القيام والحركة .

وقد جاء في الحديث : إنه صلى الله عليه وآله ناول أعرابياً تمرة ، وقال له : « خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك » .

وقال الشاعر :

جرى قلم القَضاء بما يكونُ ... فسيَّان التحرّكُ والسكونُ
جنونٌ منك أن تَسعى لرزقٍ ... ويُرزَق في غِشاوتِه الجَنينُ

(٤٠٦)

الأصـلُ :

الدَّهْرُ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٍ عَلَيْكَ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ .

***

الشَّـرْحُ :

قديما قيل هذا المعنى : الدّهر يومان : يوم بَلاء ، و يوم رَخاء . والدهر : ضَرْبان : حَبْرة وعَبْرة . والدهر وقتان : وقت سرور ، ووقت ثبُور [1] .

وقال أبو سُفيان يوم أُحُد : يومٌ بيومِ بَدْر ، والدّنيا دُوَل .

قال عليه السلام : فإذا كان لك فلا تبطر ، و إذا كان عليك فاصبر .

قد تقدّم القولُ فى ذمّ البَطر ومدح الصّبر ، و يُحمَل ذمّ البَطَر هاهنا على محملين . أحدهما البَطَر بمعنى الأَشَر ، وشدّة المرح ، بطِر الرجُل بالكسر يبطَر ، وقد أبطَره المال ، وقالوا : بطر فلانٌ معيشتَه ، كما قالوا : رَشِدَ فلانٌ أمرَه . والثانى البَطَر بمعنى الحيرة والدّهش ، أى إذا كانَ الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النعمة بالطاعة والعبادة . والمحمَل الأوّل أوضَح .

---

(١) الثبور : الهلاك .

أراد حذيفةَ بنَ بدر الفزاريَّ ، وكان سيّدَ قيس فى زمانه [١] .

رأى عمر رجلا يمشى مُرْخِيا يديه ، طارحا رِجْليه ، يتبختر ، فقال له : دع هذه المِشية ، فقال : ما أطيق ، فجلده ثمّ خلّاه ، فترك التبختر ، فقال عمر : إذا لم أجلد فى هذا ففيمَ أجلد ؛ فجاءه الرجل بعد ذلك فقال : جزاك الله ياأميرَ المؤمنين خيرا ، إن كان إلّا شيطانا سُلِّط علىّ فأذهبه الله بك .



(١) الكامل ٢ : ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٤٠١)

الأصْـلُ :

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَاأَتَاكَ ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ .

***

الشَّـرْحُ :

كان يقال : اجعل الدّنيا كغريم السّوء حَصِّل منه مايَرضَخ لك به ، ولا تأس على مادَفَعَك عنه ؛ ثمّ قال عليه السلام : فإن لم تفعل فأجمِلْ فى الطّلب ، وهى من الألفاظ النبويّة : « لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها ، فأجمِلوا فى الطّلب »

قيل لبعض الحكماء :ما الغنى ؟ فقال : قلّة تمنّيك ، ورضاك بما يكفيك .

الأصل :

رُبَّ قَوْلٍ ، أنفَذُ مِنْ صَوْلٍ .

***

الشرح :

قد قيل هذا المعنى كثيرا ، فنه قولُهم :

* والقولُ يَنفذُ مالا تنفُذُ الإبَرُ *

ومن ذلك : القولُ لا تملكه إذا نما ، كالسهم لا تملكه إذا رمى ، وقال الشاعر :

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السّنا ن تَبقى وَيذْهَبُ مَن قالَها
تخيّرتُها ثم أرسلتُها ولم يُطِق النّاسُ إرسالَها

وقال محمود الورّاق :

أتاني منك ماليسَ على مكروهه صبرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ وكم يُغضِي الفتَى الحُرُّ
وأدّبتُك بالهَجْرِ فما أدّبك الهجْرُ
ولا ردَّكَ عمّا كا ن منك الصّفحُ والبِرُّ
فلمّا اضطرّني المكرو هُ واشتدّ بيَ الأمرُ
تناولتُك مِن شِعرى بما ليس له قَدْرُ
فحرَّكتَ جَناحَ الضُّرِّ لمّا مَسّكَ الضرّ
إذا لم يُصلح الخيرُ امـ رأ أصلَحه الشّرّ

وقال الرّضيّ رحمه الله :

سأمضغُ بالأقوال أعراض قومِكم ... وللقول أنيابٌ لديّ حِدادُ[1]

يُرَى للقوافي والسماء جليّة ... عليكم بُرُوقٌ جَمّةٌ ورِعادُ

وقال أيضا :

كَمَمْتُ لساني أن يقول وإن يَقُل ... فقل في الجراز العضب إن فارق الغِمْدا[2]

وإنّ بُروداً للمخازي معدّة ... فمن شاء من ذا الحيّ أسحبتُه بُردا

قلائد في الأعناق بالعار لا تَبِي ... على مرّ أيام الزمان ولا تَصْدا

إذا صَلْصَلَتْ بين القنا قصّت القنا ... وإن زَفَرتْ في السّرد قطّعت السَّرْدا[3]

(١) ديوانه : ٣١٢

(٢) ديوانه ١ : ٣٠٩ كمت : شددت . والجراز العضب : السيف القاطع .

(٣) صلصلت : صوّتت . والسرد : الدروع

الأصل :

إنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الوَالِدِ حقًّا ، وَإنَّ لِلوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حقًّا ، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَحَقُّ الولد عَلى الوَالِدِ أَنْ يُحسنَ اسْمَهُ ، وَيُحسنَ أَدَبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ .

***



الشرح :

أمّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه : ﴿ أنِ اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير * وإن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ (١) .

***

[طرائف حول الأسماء والكنى]

وأما تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فمأمور به ، وكذلك القول في تسميته باسم حسن ؛ وقد جاء في الحديث: « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبدُ الرحمن . وأصدقها حارث وهمّام . وأقبحها حَرْب ومُرّة » .

وروى أبو الدّرداء عن النّبي صلّى الله عليه وآله: « إنّكم تُدْعَوْن يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » .

---

(١) سورة لقمان ١٤، ١٥ .

وقال عليه السلام : « إذا سَمَّيتم فعبّدوا» أى سَمُّوا بنيكم عبدَ الله ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزَّ اسمُه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يغيِّر بعض الأسماء ، سمَّى أبا بكر عبدَ الله ، وكان اسمُه فى الجاهلية عبدَ الكعبة ، وسمَّى ابن عوف عبد الرحمن ، وكان اسمُه عبد الحارث ، وسمَّى شِعْب الضَّلالة شِعْبَ الهدى ، وسمَّى يَثْرِب طَيْبة ، وسمَّى بنى الرِّبية بنى الرِّشْدة ، وبنى معاوية بنى مُرشِدة .

كان سعيدُ بنُ المسيَّب بن حَزْن المخزومىّ أحد الفقهاء المشهورين ، أتى جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : ما اسمك ؟ قال : حزْن ؛ قال : لا ، بل أنت سَهْل ، فقال : لا ، بل أنا حَزْن ، عاوَده فيها ثلاثا ، ثمّ قال : لا أحِبّ هذا الاسمَ السَّهْل يوطَأ ويُمْتَهن ، فقال : فأنت حَزْن ، فكان سعيد يقول : فما زلتُ أعرف تلك الحزونةَ فينا .

وروى جابر عنه عليه السلام : « ما من بيت فيه أحدٌ اسمُه محمد إلا وسّع الله عليه الرزق فإذا سمَّيتموهم به فلا تَضربوهم ولا تشتموهم ، ومن وُلد له ثلاثة ذُكور ولم يسمِّ أحدَهم أحمدَ أو محمّدا فقد جفانى » .

أبو هريرة عنه عليه السلام ، أنه نَهى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد .

وروى أنه أذن لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فى ذلك ، فسمّى ابنه محمد بن الحنفيّة محمدا ، وكناه أبا القاسم .

وقد رُوِى أنَّ جماعةً من أبناء الصّحابة جُمِع لهم بين الاسم والكُنية .

وقال الزّمخشرىّ : قد قدّم الخلفاء وغيرُهم من الملوك رجالا بحُسْنِ أسمائهم ، وأقصَوْا قوما لشناعة أسمائهم ، وتعلّق المدح والذمّ بذلك فى كثير من الأمور .

وفي رسالة الجاحظ إلى أبي الفرَج نجاح بن سلمة : قد أظهر الله في أسمائكم وأسماء آبائكم وكُناكم وكُنى أجدادكم من برهان الفأل الحسَن ، ونفى طيرة السوء ، ما جمع لكم صنوف الأمل ، وصرف إليكم وجوه الغلب ، فأسماؤكم وكناكم بين فرَج ونجاح ، وسلامة وفضل ، ووجوهكم وأخلاقكم ، وفْق أعراقكم وأفعالكم ، فلم يضرب التفاوتُ فيكم بنصيب .

أراد عمرُ الاستعانة برجل ! فسأله عن اسمه واسم أبيه ، فقال : سرّاق بنُ ظالم ، فقال : تَسْرِق أنت ويظلم أبوك ! فلم يستعنْ به .

سأل رجلٌ رجلاً : ما اسمك ؟ فقال : بحر ؛ قال : أبو مَنْ ؟ قال . أبو الفَيْض ؛ قال: ابنُ من ؟ قال : ابن الفُرات ، قال : ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلاّ في زَوْرق .

وكان بعضُ الأعراب اسمُه وَثّاب ، وله كلب اسمُه عمرو ، فهجاه أعرابيّ آخر فقال :

ولو هَيّا له الله من التّوفيق أسبابا
لَسمّى نفسه عَمْراً وسمّى الكلبَ وَثّابا

قالوا : وكلّما كان الاسم غريبا كان أشهرَ لصاحبه . أمنعَ من تعلّق النّبْز (١) به قال رؤبة :

قد رَفَع العجّاج ذكرى فادعُنِي باسمي إذا الأسماء طالت تكفِني

ومن ها هنا أخذ المعرّي قوله يمدح الرضيّ والمرتضى رحمهما الله :

أنتم ذوو النّسب القصير فطولكم بادٍ على الكُبراء والأشرافِ (٢)
والرّاح إن قيل ابنةُ العِنَب اكتفتْ بأبٍ عن الأسماء والأوصافِ

---

(١) النبز : أن يلقب الإنسان بما يكره (٢) سقط الزند ٢ - ١٣٠

وسأل النّسابة البكْرىّ رؤبة عن نسبه ولم يكن يعرفه ، قال : أنا ابن العجّاج ؛ قال : قصرت وعرّفت .

صاح أعرابىّ بعبد الله بن جعفر : يا أبا الفضل ! قيل : ليست كنيته ، قال : وإن لم تكن كنيته فإنّها صفته . نظر عمرُ إلى جارية له سوداء تبكى فقال : ما شأنك ؟ قالت : ضربَنى ابنكُ أبو عيسى ، قال : أوقد تكنّى بأبى عيسى ! علىّ به ، فأحضروه ، فقال : وَيْحك ! أكان لعيسى أب فتكنّى به ! أتدرى ما كُنَى العرب ! أبو سلمة ، أبو عرْفُطة ، أبو طلحة ، أبو حنظلة ، ثمّ أدّبه .

لما أقبل قحطبة بنُ شَبيب نحو ابن هُبيرة أراد ابنُ هبيرة أن يكتب إلى مروان يخبره ، وكره أن يسمّيه ، فقال : اقلبوا اسمَه ، فوجدوه هبط حقّ ، فقال : دعُوه على هيئته .

قال برْصُوما الزامر لأمّه : وَيْحكِ ! أما وجدتِ لى اسماً تسمّينى به غير هذا ! قالت : لو علمتُ أنك تجالس الخلفاء والملوك سمّيتك يزيد بن مزْيد .

قيل لبعض صبيان الأعراب : ما اسمُك ؟ قال : قراد ، قيل : لقد ضيّق أبوك عليك الاسم ، قال : إن ضيّق الاسمَ لقد أوسع الكُنْية ، قال : ما كُنيتُك ؟ قال : أبو الصحارى .

نظر المأمونُ إلى غلامٍ حسَن الوجْه فى الموكب ، فقال له : يا غلام ، ما اسمُك؟ قال : لا أدرى ، قال : أو يكون أحد لا يَعرِف اسمَه ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اسمى الذى أعرف به « لا أدرى » ؛ فقال المأمون :

وسُمّيتَ لا أدرِى لأنّكَ لا تدرِى ... بما فعَل الحبُّ المبرِّح فى صدرى

ولد لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ولدٌ ذَكر ، فبُشِّر به وهو عند معاوية

ابن أبي سُفْيان ، فقال له معاوية : سمّه باسمي ولك خمسمائة ألف درهم ؛ فسمّاه معاوية ، فدفعها إليه ، وقال : اشتر بها لسَمِيّي ضَيْعة .

ومن حديثِ عليٍّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله : «إذا سمّيتم الولدَ محمّدا فأكرموه ، وأوسعوا له في المجلس ، ولا تقبّحوا له وجها» .

وعنه صلّى الله عليه وآله : « مامن قوم كانت لهم مَشُورة فحضر معهم عليها مَن اسمه محمّد أو أحمَد فأدخلوه في مَشُورتهم إلّا خِيرَ لهم ؛ وما من مائدةٍ وُضعتْ فحضر عليها من اسمُه محمّدأو أحمد إلّا قُدِّس ذلك المنزلُ في كلِّ يوم مرّتين» .

من أبيات المعاني :

وحَللْتَ من مضرٍ بأمنِـعِ ذرْوَةٍ منعتْ بحَدِّ الشَّوكِ والأحجـارِ

قالوا : يريد بالشَّوك أخواله ، وهم قَتادة وطلحة وعَوسَجة ، وبالأحجار أعمامه ، وهم صَفْوان وفِهْر وجَنْدَل وصَخْر وجَرْوَل .

سمّى عبدُ الملك ابناً له الحجّاج لحبّه الحجّاج بنَ يوسفَ وقال فيه :

سمّيتُه الحجّاجَ بالحجّـاجِ الناصِح المكاشِفِ المُداجِي

استأذن الجاحظ والشَّـكّاك ـ وهو من المتكلمين ـ على رئيس ، فقال الخادم لمولاه : الجاحد والشَّـكّاك ، فقال : هٰذان من الزّنادقة لا محالة ! فصاح الجاحظ : ويحك ! ارجع قل : الحدقيّ بالبـاب ـ وبه كان يُعرَف ـ فقال الخادم : الحلقيّ بالباب ، فصاح الجاحظ وَيلَكَ ! ارْجع إلى الجاحد .

جمع ابنُ دُرَيد ثمانية أسماء في بيتٍ واحد فقال :

فتم أخـو الجـلّى ومستنبط النّدى وملجـــأ مكروب ومفزع لاهث (١)

قال محمد بنُ صدقة المقرى ليموتَ بن المزرّع : صدّق الله فيك اسمك ! فقال له : أحوجَك الله إلى اسم أبيك .

سأل رجُلٌ أبا عبيدة عن اسم رجلٍ من العرب ، فلم يَعرِفه ، فقال : كَيْسانُ غلامُه : أنا أعرَفُ الناس به ، هو خِراش أو خِداش أو رياش[1] أو شيء آخر ، فقال أبو عبيدةَ : ما أحسنَ ماعرفته ياكَيْسان ! قال : إي والله ، وهو قرشيٌّ ايضا ، قال : وما يدُرِيك به ؟ قال : أما ترى كيف احتوشَتْه الشّينات من كلّ جانب ! قال الفرزدق :

وقد تَلتقِي الأسماء فى النّاس والكُنَى كثيرا ولكنْ مُيِّزوا فى الخلائق[2]

رَأى الإسكندرُ فى عسكره رجلا لا يزال يَنهزِم فى الحرب ، فسأله عن اسمه ؟ فقال : اسمِى الإسكندر ، فقال : ياهذا ، إمّا أن تغيّر اسمك ، وأما أن تغيّر فعلك .

قال شيخُنا أبو عثمان : لولا أنّ القدماء من الشّعراء سمّت الملوكَ وكنَتْها فى أشعارِها ، وأجازتْ واصطلحت عليه ما كان جزاء مَن فعل ذلك إلا العقوبة ؛ على أنّ ملوكَ بنى سَامَان لم يُكنّها أحد من رعاياها قطّ ، ولا سمّاها فى شعر ولا خُطْبة ، وإنما حَدَث هذا فى مُلوك الحيرة . وكانت الجفاةُ من العَرب لسوء أدَبها وغِلَظ تركيبها إذا أتوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلم خاطَبوه باسمه وكنيته ، فأما أصحابه فكانت مخاطبتُهم له : يارسولَ الله ؛ وهكذا يجب أن يقال للملك فى المخاطبة : ياخليفة الله ، و ياأمير المؤمنين .

و ينبغى للدّاخل على الملِك أن يتلطّف فى مراعاة الأدب ، كما حكَيَ سعيدُ بن مُرّة الكِنْدىّ ، دخل على معاوية فقال : أنت سعيد ؟ فقال : أمير المؤمنينَ السعيد ، وأنا ابن مُرّة .

وقال المأمون للسيّد بن أنس الأزْدىّ : أنت السيّد ؟ فقال : أنت السيّد يا أمير المؤمنين ، وأنا ابن أنسٍ .

---

(١) ب : « دباس » . (٢) ديوانه ٥٧٨ ، وروايته : « ولكن لا تلاق الخلائق » .

شاعر :

لعمرُكَ ما الأسماءُ إلّا علامةٌ　　منارٌ ومِن خيرِ المنارِ ارتفاعُها

كان قومٌ من الصحابة يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله : « يانبيء الله » بالهمزة ، فأنكر ذلك وقال : « لست بنَبيء الله ، ولكنّي نبيُّ الله » .

وكان البحتريّ إذا ذكر الخثعميّ الشاعر يقول : ذاك الغثّ العمى .

وكان صاحب ربيع يتشيّع ، فارتفع إليه خصمان : اسم أحدهما عليّ ، والآخر معاوية ، فانحَى على معاوية فضرَبه مائة سوط من غير أن اتجهتْ عليه حجّة ، ففطِن من أين أُتِيَ ! فقال : أصلحك الله ! سَلْ خصمى عن كنيتِه ، فإذا هو أبو عبد الرحمن — وكانت كنيةُ معاوية بن أبي سُفيان — فبطَحَه وضرَبَه مائةسوط ، فقال لصاحبه : ماأخذتَه منّي بالاسم استرجعتهُ منكَ بالكُنْية .

الأصْلُ :

الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَالرُّقَى حَقٌّ ، والسِّحْرُ حَقٌّ ، وَالفَأْلُ حَقٌّ . وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ ، والعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ . والطِّيبُ نُشْرَةٌ ، وَالْعَسَلُ نُشْرَةٌ ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ[1] ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

ويروى : «والغسل نُشرة» بالغين المعجمة ، أى التّطهير بالماء .

***

[أقوال فى العين والسّحر والفأل والعدوى والطيَرة]

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « العَينُ حقّ ، ولو كان شىء يَسبِق القَدَر لسبقَتْه العين ، و إذا استُغسِلْتم فاغسِلوا » ؛ قالوا فى تفسيره : إنّهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضّأ بماء ثم يسقى منه المَعِين[2] ويَغتسِل بسائره .

وفى حديث عائشة: « العين حق كما أنّ محمد حقّ » .

وللحكماء فى تعليل ذلك قولٌ لا بأس به ، قالوا : هذا عائدٌ إلى نفس العائن ، وذلك لأنّ الهيُولى مُطيعة للأنفس ، متأثّرة بها ؛ ألا ترى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقُب الصوَر عليها ! والنفوس البَشَرية من جَوْهر نفوس الأفلاك ، وشديدة الشَّبَه بها ؛ إلا أنّ نسبتها إليها نسبة السراج إلى الشّمس ، فليست عامّة التأثير ، بل تأثيرُها فى أغلب الأمر فى بدَنِها خاصّة ، ولهذا يَحْمَى مزاجُ الإنسان عند الغضب ،

---

(١) النشرة : كالعوذة والرقية .

(٢) المعين : المعيون ، أى المصاب بالعين .

يستعدّ للجماع عند تصوُّر النفس صورةَ المشوق ، فإذن قد صار تصوُّر النفس مؤثّراً فيما هو خارجٌ عنها ؛ لأنّها ليست حالّةً في البدن ، فلا يُستبعد وجُود نفس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النفوس تؤثّر في غير بدنها ، ولهذا يقال : إنّ قوما من الهند يُقتلون بالوَهْم ؛ والإصابة بالعَيْن من هذا الباب ، وهو أن تستحسِن النفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها ، وتكون تلك النفس خبيثة جـداً ؛ فينفعل جسمُ تلك الصّورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفَعِل البدَن للسّم .

وفي حديث أمّ سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى في وجه جارية لها سَعْفَة[1] ، فقال : « إنّ بها نَظْرةً فاسترقُوا لها » .

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ : كنّا نرقي في الجاهليّة ، فقلت : يارسولَ الله ، ماترَى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا عليّ رُقاكم فلا بأس بالرُّقى مالم يكن فيها شِرْك » .

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله في سفرٍ ، فمرّوا بحيّ من أحياء العرَب ؛ فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم : هل فيكم من راقٍ ، فإنّ سيّد الحيّ لَديغ ؟ فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه فرَقاه بفاتحة الـكتاب فبرئ ، فأُعطِيَ قَطيعاً من الغنم ، فأبى أن يَقبلها حتّى يأتيَ رسولَ الله صلّى الله عليـه وآله ، فذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقال : وعَيْشك مارقيتُه إلّا بفاتحة الـكتاب ، فقال : « ما أدراكم إنّها رُقْية ! خذُوا منهم ، واضربوا لي معكم بسَهْم » .

ورَوَى بُرَيْدة ، قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وقد ذُكرتْ عنده الطِّيَرة : « مَنْ عَرض له من هذه الطِّيَرة شيء فليقل : اللّهم لا طَيْر إلا طَيْرُك ، ولا خيرَ إلّا خيرُك ، ولا إله غيرُك ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله » .

وعنه عليه السلام : « ليس منّا من تَطيّر أو تُطُيِّر له ، أو تَـكهّن أو تُـكُهِّن له » .

---

(١) السعفة : قروح تخرج على رأس الصبي . واسترقوا ، أي اطلبوا من يرقيها .

أنس بنُ مالك يرفعه : « لا عَدْوَى ولا طِيَرَة ، ويُعجِبنى الفأل الصّالح » ؛ قالوا : فما الفأل الصالح ؟ قال : الكلمة الطيّبة .

وعنه عليه السلام : « تفاءلوا ولا تطيّروا » .

وروى عبدُ الله بنُ بُرَيدة ، عن أبيه ، أنّ رسولَ اللهُ صلّى الله عليه وآله كان لا يتطيّر من شىء ، وكان إذا بعث عاملا سأل عن اسمه ، فإذا أعجبه سُرَّ به ، ورئى بِشْرُ ذلك فى وَجْهه ، وإن كره اسمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه ، وإذا دخل قريةً سأل عن اسمها فإنْ أعجبَه ظهرَ على وجْهه :

بَنَى عُبيدُ الله بن زياد بالبصرة داراً عظيمةً ، فمرَّ بها بعضُ الأعراب ، فرأى فى دِهْلِيزِها صورةَ أسَد وكلْب وكَبْش ، فقال : أسدٌ كالح ، وكبشٌ ناطح ، وكَلْب نابح ، والله لا يُمتّع بها ؛ فلم يَلبثْ عبيدُ الله فيها إلا أياماً يسيرة .

أبو هريرة يرفَعه : « إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا ، وإذا تطيّرتم فامْضوا ، وعلى الله فتوكّلوا » .

وقال عليه السلام : « أحسَنُها الفألُ ، ولا يَرُدّ قدَرا ، ولكن إذا رأى أحدُكم ما يَكرَه فليَقُل : اللّهم لا يأتى بالحسَنات إلّا أنت ، ولا يدفع السيّئات إلّا أنت ، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك » .

وقال بعضُ الشّعراء :

لا يَعلَمَ المرء لَيلاً ما يُصبِّحه ... إلّا كواذب ما يَجرِي به الفالُ
والفألُ والزّجر والكُهّان كلُّهمُ ... مضلّلون ودونَ الغيب أقفالُ

وعن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : « القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الخِبْث » .

ابن عباس يرفَعُه : « من اقتبس عِلْماً من النجوم اقتَبَس شُعْبة من السِّحْر » .

أبو هريرة يرفَعه : « من أتى كاهناً فصدّقه فيما يقول فقد بَرِئ مما أنزل اللهُ على أبى القاسم » .

شاعر :

لَعمرُكَ ماتدري الطّوارقُ بالحصى ولا زاجِراتُ الطّير ما الله صانعُ[1]

وقال آخر :

لا يقعـــدنّك عن بغا ء الخير تعقاد العزائم[2]

فلقــد غدوتُ وكنتُ لا أغـــدو على راقٍ وحائم

فإذا الأشـــائمُ كالأيا مِنِ والأيامِنُ كالأشـــائم

وكذاك لا خـــيرٌ ولا شرٌّ على أحـــدٍ بدائم

تفاءل هشامُ بنُ عبد الملك بنصر بن سيّار فقلّده خُراسان ، فبقى فيها عشرَ سنين .

وتفاءل عامرُ بنُ إسمعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه ، فسأله عن اسمه ، فقال : منصور بن سعد ، قال : من أيّ العرب ؟ قال : من سَعْد العشيرة ، فاستصحبه وطَلب مروان فظفِر به وقتله .

وتفاءل المأمونُ بمنصور بن بسّام فكان سببَ مكانته عندَه .

قالوا : إنما أصل اليد اليُسرَى العُسْرَى؛ إلا أنّهم أبدلوا اليُسْرَى من اليُسْر تفاؤلا .

مزرِّدُ بنُ ضِرار :

وإنّى امرؤ لا تقشعـــر ذُؤابتِي من الذّئبِ يَعوِى والغرابِ المحجّلِ

الكُمَيْت :

ولا أنا ممّن يَزْجر الطـــير همّه أصاحَ غُـرابٌ أم تعرّض ثَعلبُ[3]

وقال بعض العرب : خرجتُ فى طلب ناقةٍ ضلّت لى ، فسمعتُ قائلاً يقول :

ولئن بعثت لها بُغا ة فما البغاةُ بواجِدِينا[4]

---

(١) لبيد ، ديوانه ١٧٢ (٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٥ ، ونسبها إلى المرقش .
(٣) الهاشميات ٣٦ . (٤) لبيد ، ديوانه ٣٢٣ .

فلم أتطيّر ومضيتُ لوجهى ، فلقيَنى رجلٌ قبيح الوجه به ماشئت من عاهة ؛ فلم أتطيّر وتقدّمت فلاحَت لى أَكَمة [1] فسَمِعْت منها صائحا :

* والشرَّ يلقى مَطالِعَ الأكَم *

فلم أكترثْ ولا انثنيْت وعلوتُها ، فوجدتُ ناقتى قد تفاجّت [2] للولادَة فنتجتُها [3] ، وعدتُ إلى منزلى بها ومعها ولدُها .

وقيل لعلىّ عليه السلام : لا تحاربهم اليَوم فإن القمر فى العقْرب ، فقال : قمرُنا أم قمرُهُم !

ورُوِى عنه عليه السّلام أنه كان يَكرَه أن يُسافِر أو يتزوّج فى محاق [4] الشهر، وإذا كان القمر فى العقْرب .

ورُوِى أنّ ابن عبّاس قال على مِنبَر البَصرة: إنّ الكلاب من الجنّ وإن الحنّ من ضُعَفاء الجنّ ؛ فإذا غشيَكم منهم شىء فألقوا إليه شيئاً أو اطردوه ، فإنّ لها أنفُس سَوء .

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يكرَهون الأكل بين يدى السّباع يخافون عيونَها لِلّذى فيها من النّهَم والشّرَه ، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرّدِىّ ، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه . وكانوا يكرهون قيامَ الخدَم بالمُذاب والأشرِبة على رءوسهم خوْفا من أعينِهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم ؛ وكانوا يأمرون بإشباعهم قبل أن يأكلوا ، وكانوا يقولون فى الكلْب والسّنّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له .

(١) الأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، وانظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .

(٢) تفاجت : وسعت ما بين رجليها . (٣) نتجتها أى أولدتها .

(٤) المحاق مثلثة : آخر الشهر أو ثلاث ليال من من آخره ، أو أن يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية ، سمى محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته .

وقالت الحكماء: نفوسُ السِّباع أردأ النفوس وأخبثها لفَرْطِ شَرَهِها وشَرِّها، قالوا: وقد وجدْنا الرجل يضرب الحيّة بعصا فيموت الضارب والحيّة، لأن سمّ الحيّة فَصِل منها حتى خالط أحشاء الضارب وقَلْبَه، ونفذ فى مَسامِّ جسدِه.

وقد يُدِيم الإنسانُ النظر إلى العين المحمرّة فتعترى عينه حُمرة، والتثاؤب يُعدِى إعداء ظاهراً، ويكره دنوُّ الطامِث من اللّبن لتسوطه، لأن لها رائحةً وبُخارا يُفسِد اللبن المسُوط[1].

وقال الأصمعىّ: رأيت رجلا عَيونا[2] كان يَذْكُر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشيء وَجدَ حرارَة تخرُج من عينه.

وقال أيضاً: كان عندنا عَيونان فمرّ أحدُهما بحَوض من حجارة؛ فقال: تالله مارأيتُ كاليوم حوْضا! فانصَدع فِلقَتَيْن، فمرّ عليه الثانى، فقال: وأبيك لقلّما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربع فِلَق.

وسمع آخرصوت بوْل من وراء جِدار حائط، فقال: إنك كثيرُ الشَّخْب، فقالوا: هوَ ابنُك؛ فقال: أوه انقطَع ظَهرُه! فقيل: لا بأس عليه إنْ شاء الله، فقال: والله لا يبُول بَعْدها أبدا، فما بال حتى مات.

وسمع آخَرُ صوت شَخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجَبه، فقال: أيتهنّ هذه، فورّوا بأخرى عنها، فهلكَتا جميعا، المورّى بها والمورّى عنها.

قال رجل من خاصّة المنصور له قبـــل أن يقتُل أبا مسلم بيوْم واحد: إنّى رأيتُ اليوم لأبى مسلم ثلاثاً تطيّرت له منها. قال: ما هى؟ قال: ركب فوقعتْ قلَنْسوَته

---

(١) الطامث: الحائض. والمسوط: المخلوط.

(٢) العيون: الشديد الإصابة بالعين.

عن رأسه ، فقال المنصور : الله أكبرُ ! تبعها والله رأسُه ، فقال : وكَبابه فرُسه ، فقال : الله أكبر ! كبا والله جَدُّه ، وأصلَد زَنْدُهُ ، فما الثالثة ؟ قال : أنه قال لأصحابه : أنا مقتول ، وإنما أخادع نفسى ، وإذا رجلٌ يُنادِي آخر من الصحراء : اليوم آخِر الأجل يا فلان . فقال : الله أكبر ! انقضى أجلُه إن شاء الله ؛ وانقطع من الدنيا أثرُه . فقتِل فى غدِ ذلك اليوم .

تجهزّ النابغةُ الذبيانىّ للغزو — واسمُه زياد بن عمرو — مع زبّان بن سيّار الفزارىّ — فلما أراد الرحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر ، وقال : ذات لوْنين تجرد ، غُرِّى من خرج ، فأقام ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته ، فذهب ورَجَع غانماً ، فقال :

تطيّر طـــيرةً يوماً زيادٌ ... لتخبره وما فيها خَبيرُ[(١)]

أقامَ كأنّ لقمانَ بن عادٍ ... أشـارَ له بحكمته مُشيرُ

تعلمْ أنه لا طـــير إلّا ... على متطيّرٍ وهو الثّبورُ

بلى شىءٌ يوافِق بعض شىء ... أحايينًا وباطـــله كثيرُ

حضر عمرَ بنَ الخطاب الموسمُ ، فصاح به صائح : يا خليفة رسول الله ، فقال رجل من بنى لِهْب ؛ وهم أهلُ عِيافة وزَجْر : دعاه باسم ميّت : مات والله أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فلما وقف الناس للجمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعَةَ عُمَر ، فأُدِمى منها ، فقال ذلك القائل : أُشعر والله أمير المؤمنين ، لا والله ما يقف هذا الموقف أبداً ، فقُتِـل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل ، وقال كثيِّر بن عبد الرحمن :

تيمّمت لِهْبًا أبتغى العِلْمَ عندَها ... وقد صار عِلْمُ العائفين إلى لِهْبِ[(٢)]

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٤٧ .

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٩ .

كان للعرب كاهنان اسمُ أحدهما شِقّ ، وكان نصف إنسان ، واسم الآخر سَطِيح ، وكان يُطوَى طَيَّ الحصير ، ويتكلّمان بكل أعجوبة فى الكهانة ، فقال ابنُ الرُّومىّ .

لك رأىٌ كأنهُ رأى شِقٍّ وسَطِيحٍ قَرِيعَىِ الكُهّانِ
يستشفُّ الغُيوبَ عما توارى بعيون جليّة الإنسان

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان مُسيلمة قبل أن يتنبّأ يدور فى الأسواق التى كانت بين دُور العرب والعَجَمِ كسُوق الأُبُلّة وسوق بقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّمَ الحِيل والنِّيرنْجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقَى والعزائم والنجوم ، وقد كان أحكم علم الحُزاة وأصحاب الزجر والخطّ ، فعَمَد إلى بَيْضة فصبّ إليها خَلّاً حاذقا قاطعا ، فلانَتْ ، حتى إذا مَدّها الإنسان استطالتْ ودقّت كالعلك ؛ ثم أدخلها قارورةً ضيقة الرأس وتركها حتى انضمّت واستدارتْ وجمدتْ ، فعادت كهيئتها الأولى ، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها ، وفيه قيل :

ببيضـــةِ قارور ورايةِ شادنٍ وتوصيل مَقْطوعٍ من الطير حاذقِ

قالوا : أراد براية الشّادن التى يعملها الصبىّ من القِرطاس الرّقيق، ويجعل لها ذَنبا وجناحين ويُرسلها يوم الرِّيح بخيط طويل .

كان مُسَيْلمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس ، ويعلّق فيها الجلاجِل ، ويُرسلها ليْلا فى شدّة الريح ، ويقول : هذه الملائكة تنزل علىّ ، وهذه خَشخَشة الملائكة وزجَلُها ، وكان يصل جَناح الطير المقصوص بريشٍ معه فيطير ويَستغوِى به الأعراب .

شاعرٌ فى الطِّيَرة :

وأمنع الياسمين الغضَّ من حَذَرِى ... عليكِ إذ قيل لى نصفُ اسمهِ ياسُ

وقال آخر :

أهدَتْ إليه سَفَرْجلاً فتطيَّرا ... منه وظَلَّ مفكِّرا مستعبرا[1]

خوف الفِراق لأن شَطر هِجائه ... سَفَرٌ وحُقَّ له بأنْ يتطيَّرا

وقال آخر :

يا ذا الذى أهدَى لنا سَوْسَناً ... ما كنت فى إهدائه محسنا

نِصفُ اسمه سوٌّ فقد ساءنى ... ياليت أنِّى لم أرَ السَّوْسَنا

ومِثلُه :

لا ترانى طَوال دهْـ ... ـرىَ أهوى الشَّقائقَا

إنْ يكن يُشْبِه الخدو ... دَ فنصف اسمه شَقَا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه ، ويتطيّرون من النّرجس لسرعة انقضائه ، ويسمّونه الغَدّار .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

إنّ الّذى سمّاكِ يا منيَتى ... بالنّرجِس الغَدّار ما أنصَفا

لو أنّه سمّاك بالآسِ قد ... وفيتِ إنّ الآسَ أهلُ الوَفا

خرج كثيِّرٌ يريد عزّةَ ومعه صاحِبٌ له من نَهْد ، فرأى غرابا ساقطاً فوق بانَةٍ يَنتِف ريشَه ، فقال له النّهْدىّ : إن صَدَق الطّيْر فقد ماتت عَزّة ، فوافَى أهلَها وقد أخرَجوا جنازتَها ، فقال :

وما أعيَفَ النهدىَّ لا دَرّ دَرّهُ ... وأزجَرَه للطّير لا عزّ ناصِرُهْ[2]

رأيتُ غراباً ساقطاً فوقَ بانةٍ ... ينتّفُ أعلَى ريشِه ويُطايِرُهْ

---

(١) مستعبراً : أى سالت عبرته ، أى دموعه . (٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٨

فقال غرابٌ لِاغترابٍ ، وبانَةٌ لِبَيْنٍ ، وهُدْهُدٌ من حبيبٍ تُعاشِرُهْ

وقال الشاعر :

وسَمّيته يحيَى ليحيا ولم يكن إلى رَدِّ حُكمِ الله فيــهِ سَبيلُ
تيمَّمْتُ فيه الفألَ حين رُزِقته ولم أدرِ أنّ الفألَ فيــه يفيلُ

* * *

فأمّا القولُ في السِّحر فإنّ الفقهاء يُثبِتونه ويقولون : فيــه القَوَد ، وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سحَره لَبيد بن أعصَم اليهوديّ حتى كان يُخيَّل إليه أنه عَمِل الشيء ولم يَعمَله .

ورُوِي أنّ امرأةً من يهود سحرته بشَعر وقُصاص ظُفُر وجعلت السِّحرَ في بئر ، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك ، فبعث عليًّا عليه السلام فاستخرجه وقتل المرأة .

وقومٌ من المتكلّمين يَنفون هذا عنه عليه السلام ، ويقولون : إنه معصوم مِن مِثله .

والفلاسـفة تَزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النَّفسِ الناطقة ، وأنه لا يَبعُد أن يكون في النفوس نفس تؤثّر في غيرِ بَدنهـا المرض والحبّ والبُغض ، ونحو ذلك ، وأصحاب الـكواكب يجعلون للـكواكب في ذلك تأثيراً ، وأصحابُ خواصّ الأحجار والنبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر .

وأمّا العَدْوَى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا عدوى في الإسلام » . وقال لمن قال: أعدَى بعضُها بعضاً ـ يعني الإبل :« فمن أعدَى الأول ؟» وقال :« لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر » ، فالعَدْوَى معروفة ، والهامَة : ما كانت العرب تَزْعمه في المقتول

لا يؤخذ بثأره ، والصَّفَر : ما كانت العرب تزعمه من الحيّة في البطن تعض عند الجوع .

* * *

[نكت فى مذاهب العرب وتخيلاتها]

وسنذكر ها هنا نُكتاً مُمتعةً من مَذاهب العَرَب وتخيُّلاتِها ، لأنّ الموضع قد ساقنا إليه ، أنشَد هشامُ بنُ الكلبيّ لأميّة بن أبي الصَّلْت :

سَنَةٌ أزْمَةٌ تُبرِّح بالنا … سِ ترَى للعِضاهِ فيها صَرِيرا[1]

لا عَلَى كوكبٍ تَنوءُ ولا رِيـ … ـحِ جنوبٍ ولا ترى طُخْرورا[2]

ويُسقَوْن باقرَ السّهل للطَّو … دِ مهازيلَ خشيةً أن تبورا

عاقدين النِّيرانَ في ثُكَنِ الأذ … نابِ منها لكى تَهيجَ البحُورا

سَلَعٌ ما ومِثْلُه عُشَرٌ ما … عائلٌ ما وَعالتِ البَيْقُورا

يُروَى أنّ عيسى بن عمر قال : ما أدرى معنَى هذا البيت ! ويقال : إنّ الأصمعىّ صحّف فيه ، فقال : « وغالَت البَيْقورا » بالغَين المعجمة ، وفسّره غيرُه فقال : عالَت بمعنى أثقَلت البقرَ بما حملتها من السّلع والعُشَر ، والبَيْقور : البقر . وعائل : غالب ، أومُثقَل .

وكانت العرب إذا أجدَبَتْ وأمسكَتْ السماء عنهم وأرادوا أن يُستمطِرُوا عمدوا إلى السَّلع والعُشَر فحزَموهما وعقَدوهما فى أذنابِ البقر ، وأضرموا فيها النِّيران ، وأصعَدوها فى جبل وَعِر ، واتّبعوها يَدْعون الله ويَسْتَسْقونه ؛ وإنّما يَضرمون النِّيران فى أذناب البقَر تفاؤلا للبَرْق بالنار ، وكانوا يَسُوقونها نحو المغرب من دون الجهات . وقال أعرابىّ :

شفَعْنا بِبَيقور إلى هاطل الحيَا … فلم يُغنِ عنّا ذاكَ بل زادَنا جَدْبا

فعُدْنا إلى رَبِّ الحيا فأجارَنا … وصيّرجدْبَ الأرضِ من عندِه خِصْبا

---

(١) شعراء النصرانية ٢٣٥ ، فى وصف سنة ومجاعة . (٢) الطخرور : القطع من السحاب .

وقال آخر :

قُلْ لبني نَهْشَلَ أصحاب الخَوَرْ : أتطلبُونَ الغيثَ جَهْلاً بالبَقَرْ !

وسَلَعٍ من بعد ذاكَ وعُشَرْ ليس بذا يُجَلِّلُ الأرضَ المَطَرْ

ويمكن أن يُحمَل تفسيرُ الأصمعيّ على محمل صحيح ، فيقال : غالت بمعنى أهلكتْ ، يقال : غالَه كذا واغتالَه أى أهلَكه ، وغالَتهم غُولٌ ؛ يعنى المنيّة ، ومنه الغضب غُول الحلم

وقال آخر :

لمّا كَسَوْنا الأرض أذنابَ البَقَرْ بالسَّلَع المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخَر :

يا كُحْل قد أثقلتَ أذنابَ البَقَرْ بسَلَعٍ يعقد فيها وعُشَرْ

* فهل تجُودِين ببَرْقٍ ومَطرْ *

وقال آخر يعيب العربَ بِفعلهم هذا :

لا دَرَّ دَرّ رجالٍ خابَ سعيهُمُ يَستمطِرونَ لدى الإعسار بالعُشَرِ

أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعة ذريعةً لك بين الله والمَطَر

وقال بعضُ الأذكياء : كلّ أمّة قد تحذو فى مذاهبها مذاهبَ مِلّة أخرى ، وقد كانت الهند تزعُم أنّ البقر ملائكة ، سَخط اللهُ عليها فجعَلَها فى الأرض ، وأنّ لها عنده حرمة ، وكانوا يلطّخون الأبدانَ بأخثائها[1] ، ويَغسِلون الوجوهَ ببوْلها ويجعلونها مُهورَ نسائهم ، ويتبرّكون بها فى جميع أحوالهم ، فلعلّ أوائلَ العربِ حَذَوْا هذا الحذوَ وانتهجوا هذا المَسلك .

---

(١) الأخثاء : جمع خثة ؛ وهى المعرة اللينة .

وللعرب فى البقر خيالٌ آخر ، وذلك أنّهم إذا أوردوها فلم تَرِد ضَرَبوا الثّور ليقتحمَ الماء ، فتقتحم البقر بعدَه، و يقولون : إنّ الجنّ تَصُدّ البقر عن الماء ، و إن الشّيطان يركَب قَرْنَىْ الثّور ، وقال قائلهم :

إنّى وقتلى سُلَيْكاً حين أعقِلُه كالثّور يُضرَب لمّا عافَت البَقَرُ[1]

وقال نَهشَل بن حرىّ :

كذاكَ الثورُ يُضرَب بالهَراوَى إذا ما عافتِ البَقَرُ الظِّماءُ

وقال آخر :

كالثّوْر يُضرَب للورُو دِ إذا تَمنَّعتِ البَقَرْ

فإنْ كان ليس إلّا هذا فليس ذاكَ بعجيبٍ من البقر ولا بَمذهَبٍ من مذاهب العرب : لأنّه قد يجوز أن تمتنِع البقر من الورُود حتى يرِدَ الثّور كما تمتنِع الغنمُ من سلوك الطُّرُق أو دخول الدُّور والأخْبِية حتّى يتقدّمها الكبش أو التَّيس، وكالنحل تتبع اليعسُوب ، والكَرا كىّ تتبع أميرَها ، ولكن الّذى تدلّ عليه أشعارها أنّ الثّورَ يرِدُ و يَشرَب ولا يمتنع ، ولكنّ البقر تمتنع وتَعافُ الماء وقد رأت الثّورَ يَشرَب، فحينئذ يُضرَب الثور مع إجابته إلى الورود فتَشرَب البقر عند شُرْبه ، وهذا هو العَجَب ، قال الشاعر :

فإنّى إذَنْ كالثّوْر يُضرَب جَنْبُهُ إذا لم يَعَفْ شربا وعافَتْ صَواحِبُهْ

وقال آخر :

فلا تجعلونى كالبقير وفحلها يكسَّر ضَرْباً وهو للورْد طائِعُ

وما ذَنْبه إن لم يرد بقَراته وقد فاجأتْها عند ذاك الشّرائعُ

---

(١) للسليك بن السلكة ، والبيت من شواهد ابن عقيل ٢ : ٢٨٢ .

وقال الأعشى :

لكالثور والجنيّ يُضرَب وجهُه   وما ذنبُه إن عافَت الماء مَشرَبا ! [1]

وما ذنبُه إن عافت الماء باقرٌ   وما أن يَعافُ الماء إلّا ليُضرَبا

قالوا فى تفسيره : لمّا كان أمتناعُها يتعقبه الضرب ، حَسُن أن يقال : عافت الماء لتُضرَب ، وهذه اللام هى لام العاقبة ، كقوله : «لِدُوا للموت» ، وعلى هذا فسّر أصحابُنا قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ [2] .

* * *

ومن مذاهب العرب أيضا تعليق الحلْى والجلاجِل على اللَّدِيغ يرَوْن أنه يُفيق بذلك ، ويقال : إنه إنّما يعلّق عليه لأنّهم يرَوْن [أنه] إنْ نام يَسرِى السمّ فيه فيَهلِك ، فشَغَلوه بالحلْى والجلاجِل وأصواتها عن النوم ، وهذا قولُ النَّضْر بن شُميل ، وبعضُهم يقول : إنّه إذا عُلّقَ عليه حلى الذهب برَأ ، وإن علّق الرَّصاص أوْ حَلْى الرصاص مات .

وقيل لبعض الأعراب : أتريدون شُهْرةً ؟ فقال : إنّ الحلْى لا تُشهر ، ولكنها سُنّةٌ ورِثْناها .

وقال النابغة :

فبتّ كأنّى ساورتْنى ضئيلةٌ   من الرُّقْش فى أنيابها السمُّ ناقِعُ [3]

يُسهّدُ من ليلِ التَّمام سَليمُها   لِحَلْىِ النساء فى يديْه قَعاقِعُ

وقال بعض بنى عُذْرَة :

كأنّى سَليمٌ نالَه كَلْمُ حَيّةٍ   ترى حوله حَلْى النساء موضَّعا

---

(١) ديوانه ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٩

(٣) ديوانه ٥١

وقال آخر :

وقد عُلّوا بالنُّبطُل فى كلّ موضع ... وغُرُّوا كما غُرَّ السليمَ الجلاجلُ

وقال جَمِيل وظَرُفَ فى قوله ، ولو قاله العبّاس بن الأحنف لكان ظريفا !

إذا ما لَدِيغٌ أبرأ الحَلْىُ داءه ... فحَلْيكِ أمسَى يا بُثَيْنة دائيا [1]

وقال عُوَيْمر النَّبهانىّ وهو يؤكِّد قولَ النَّضر بنِ شُمَيل :

فبتّ مُعَنًّى بالهموم كأنّنى ... سليمٌ نَفَى عنه الرُّقادَ الجلاجلُ

ومِثلُه قولُ الآخر :

كأنى سليمٌ سَهَّدَ الحَلْىُ عينَه ... فراقب من ليل التّمام الكواكبا

ويشبه مذهبَهم فى ضَرْب الثور مذهبهم فى العَرّ يصيبُ الإبلَ فيُكوَى الصّحيح ليَبْرأ السّقيم . وقال النابغة :

وكلّفتَنِى ذنبَ امرِئٍ وتركته ... كذى العَرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتعُ [2]

وقال بعضُ الأعراب :

كمن يَكوِى الصّحاحَ يرومُ بُرْءاً ... به من كلّ جَرْباء الإهابِ

وهذا البيت يُبطِل رواية مَن رَوَى بيت النابغة « كذِى العُرِّ » بضم العين ، لأنّ العُرّ بالضم قَرْح فى مَشافِر الإبل غيرُ الجرَب ، والعَرّ بالفتح الجرَب نفسه ، فإذا دلَّ الشعر على أنه يكوَى الصّحيح ليبرأ الأجرَب فالواجبُ أن يكون بيتُ النابغة « كذِى العَرّ » بالفتح .

ومِثلُ هذا البيت قولُ الآخر :

فألزمْتنى ذَنْبا وغيرِىَ جرَّه ... حَنانَيْكَ لا يُكوى الصحيحُ بأجْربا

إلاّ أن يكون إطلاق لفظِ الجَرَب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له .

---

(١) ديوانه ٢١٨ (٢) ديوانه ٥٤

ومن تخيّلاتِ العَرَب ومذاهبِها أنّهم كانوا يَفقئون عينَ الفحْلِ من الإبل إذا بلغت ألفاً ، كأنّهم يدْفعون العينَ عنها ، قال الشاعر :

فَقأْنا عيوناً من فُحول بَهازِرٍ وأنتمْ برَعْى البُهْم أولَى وأجْدرُ

وقال آخَر :

وهَبْتَها وكنتَ ذا امتِنانٍ تفقأ فِيها أعيُنَ البُعْرانِ

وقال الآخر :

أعطيتَها ألفاً ولم تَبْخَلْ بها ففقأتَ عينَ فُحَيْلِها مُعْتافا

وقد ظَنّ قومٌ أنّ بيتَ الفرزْدق وهو :

غَلَبْتُكَ بالمفقّىءِ والمُعنّي وبيتِ المحتبي والخافقاتِ[1]

من هذا الباب ، وليس الأمر على ذلك ، وإنّما أراد بالمفقّىء قوله لجرير :

ولستَ ولو فقأتُ عينيكَ واجدا أخاً كلقَيطٍ أو أباً مِثلَ دارِمِ[2]

وأرادَ بالمعنّي قوله لجرير أيضا :

وإنّك إذ تَسعَى لتُدرِكَ دارِماً لأَنتَ المعنّى ياجَرير المكلَّفُ[3]

وأراد بقوله : « بيت المحتبي » قوله :

بيتٌ زرارةُ محتبٍ بفِنائه ومُجاشع وأبو الفوارِس نَهْشَلُ[4]

وبيت الخافقات ، قوله :

ومعصَّبٍ بالتّاج يخفق فوقَه خِرَقُ الملوك له خَميسٌ جَحْفَلُ[5]

---

(١) ديوانه ١٣١ . والخافقات : الرايات . (٢) فى شرح ديوانه : « أو أبا مثل نهشل » .

(٣) ديوانه ٤٣٦ (٤) ٧١٤

(٥) ديوانه ٧١٥ ؛ وفى شرح الديوان . والخافقات يريد قوله :

وأينَ تقَضّى المالكانِ أمورَها بحقٍّ وأينَ الخافقاتُ اللوامعُ

قال أبو الهيثم : « نخر الفرزدق فى هذا البيت على جرير ؛ لأن العرب كانت إذا بلغ لأحدهم ألف بعير فقأ عين بعير منها ؛ فإذا تمت ألفان أعماه ؛ فافتخر عليه بكثرة ماله » .

فأما مذهبهم فى البليّة ، وهى ناقةٌ تُعقَلُ عند القبر حتّى تموت ، فمذهبٌ مشهور ، والبَلِية أنّهم إذا ماتَ منهم كريمٌ بلَوا ناقته أو بعيره ، فعكسوا عنقها ، وأداروا رأسها إلى مؤخّرها ، وتركوها فى حَفِيرة لا تُطعَم ولا تُسقَى حتّى تموت ، وربّما أُحرِقتْ بعد موتها ، وربّما سُلِخت وملىء جلدُها ثُماما . وكانوا يزعُمون أنّ من مات ولم يُبْلَ عليه حُشِر ماشيا ، ومَن كانت له بليّة حُشِر راكبا على بليّته ، قال جُرَيبة[1] بن الأشيم الفَقْعَسيّ لابنه :

يا سَعْدُ إما أهلِكَنَّ فإنّنى ... أوصيكَ إنّ أخا الوَصاةِ الأقربُ

لا أعرِفَنّ أباكَ يحشر خلفكم ... تعبا يجُرُّ على اليدَين ويَنكَبُ

واحملْ أباكَ على بعيرٍ صالحٍ ... وتَقِ الخطيئةَ إنّه هو أصوَبُ

ولعلّ لى ممّا جمعتُ مطيّة ... فى الحشر أركبُها إذا قيل اركَبوا

وقال جُريبة أيضا :

إذا مِتُّ فادفِنّى بجدّاء ما بها ... سِوَى الأصرخين أو يفوّز راكبُ

فإنْ أنتَ لم تعقِر علىّ مطيّتى ... فلا قامَ فى مالٍ لك الدهر حالِبُ

ولا تدفنَنّى[1] فى صُوًى وادْفِنَنّى ... بدَيْمومةٍ تنزو عليها الجنادِبُ

وقد ذكرتُ فى مجموعى المسمّى « بالعَبقرىّ الحسان » أنّ أبا عبد الله الحسين بن محمّد ابن جعفر الخالع رحمه الله ذكر فى كتابه فى آراء العرب وأديانها هذه الأبيات ، واستشهد بها على ما كانوا يَعتقِدون فى البَلِيّة ، وقلتُ : إنه وَهِمَ فى ذلك ، وإنه ليس فى هذه الأبيات دَلالةٌ على هذا المعنى ، ولا لها به تعلّق ، وإنما هى وصيّة لولده أن يَعقِر مطيّته بعد موتِه ؛ إمّا لِكَيلا يركبها غيرُه بعده ، أو على هيئة القُرْبان كالهَدْى المعقور

---

(١) ديوانه ٣٤٦ .

بمكّة ، أو كما كانوا يَنْحَرون عند القبور . ومَذْهبهم فى العَقْر على القبور ، كقول زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلّب :

إنّ السّماحة والمروءة ضُمِّنا قبراً بمَرْوَ على الطّريق الواضح[1]
فإذا مَررتَ بقبره فاعقِرْ به كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابح[2]

وقال الآخر :

نفرتْ قَلوصِى عن حِجارة حَرّةٍ بُنيتْ على طَلْق اليدين وَهوبِ[3]
لا تنفِرى ياناقُ منه فإنّه شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحرُوبِ
لولا السِّفار وبُعدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لتركتُها تحبُو على العُرْقوب

ومَذهبُهم فى العَقْر على القبور مشهور ، وليس فى هذا الشّعر مايدلّ على مذهبهم فى البَلِيّة ، فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنّ قوله : « أو يَفوزَ راكب » ، فيه إيماء إلى ذلك ، فليس الأمرُ كما ظنّه ، ومعنى البيت ادفنّى بفلاةٍ جَدّاء مقطوعة عن الإنس ، ليس بها إلّا الذئب والغُراب ، أو أن يعتسف راكبها المَفازة وهى المَهلَكة ، سمّوها مَفَازةً على طريق الفأل ، وقيل : إنّها تسمّى مَفازةً من فوّز أى هلَك ، فليس فى هذا البيت ذِكرُ البليّة ، ولكنّ الخالع أخطأ فى إيرادِه فى هذا الباب ، كما أخطأ فى هذا الباب أيضا فى إيراده قول مالك ابن الرّيب :

وعطِّلْ قَلوصِى فى الرِّكاب فإنّها سَتبرِد أكباداً وتُبكى بوَاكِيا[4]

فظنّ أنّ ذلك من هذا الباب الّذى نحن فيه ، ولم يُرِد الشاعر ذلك ، وإنما أراد

---

(١) الشعر والشعراء ٣٩٧ (٢) بعده فى الشعر والشعراء :

وانْضَحْ جوانبَ قبرِه بدمائها فلقد يكونُ أخَا دمٍ وذبائح

(٣) من أبيات فى رثاء ربيعة بن مكدم ، تنسب إلى ضرار بن الخطاب ، وتنسب لحسان أيضاً ؛ وانظر الأغانى ١٦ : ٥٨ ، ٥٩ (طبعة دار الكتب) . (٤) أمالى القالى ٣ : ١٣٨

لَا تَرْكَبُوا راحلتى بعدِى ، وعطِّلوها بحيثُ لا يشاهدها أعادِىَّ وأصادِق ذاهبةً جائية تحتَ راكبها، فَيَشْمَتَ العدوّ ويُساء الصديق ، وقد أخطأ الخالع فى مواضعَ عدّة من هذا الكتاب ، وأورد أشعاراً فى غير موضِعها ، وظنّها مناسبةً لما هو فيه ، فنها ماذَكَرْناه ، ومنها أنّه ذكَرَ مذهَب العرب فى الحلْى ووضْعِه على اللَّدِيغ ، واستشهَدَ عليه بقول الشاعر :

يُلاقِى من تذكُّرِ آلِ لَيْلَى   كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدادِ[1]

ولا وجه لإيراد هذا البيت فى هذا الموضع ، فالعِداد مُعاوَدَة السّمّ الملسوعَ فى كلّ سنة فى الوقت الّذى لُدِغ فيه ، وليس هذا من باب الحلْى بسبيل .

ومن ذلك إيرادُه قولَ الفرزدق « غلبتك بالمفقّى[2] » فى باب فقْء عُيون الفُحول ، إذا بلغَت الإبلُ ألفاً ، وقد تقدّم شرحُنا لموضع الوَهْم فى ذلك . وسنذكر هاهنا كثيراً من المواضع الّتى وَهِم فيها إنْ شاء الله .

***

ومِمّا وَرَد عن العرب فى البليّة قولُ بعضهم .

أبُنَىّ زَوِّدْنى إذا فارقْتَنِى   فى القبْر راحلةً برَحْلٍ فاتِرِ
لِلبَعْث أركَبُها إذا قيل اركبوا   مستوثقين معاً لحشر الحاشِرِ

وقال عُوَيم النَّبهانىّ :

أبُنَىّ لا تنسَى البليّةَ إنّها   لأبيكَ يومَ نُشورِه مرْكوبُ

***

---

(١) اللسان ٤ : ٢٧٤ .

(٢) وهو قوله :

غَلَبْتُكَ بالمفقِّئِ والمعنّى   وبيتِ المحتبِى والخافقاتِ

ومن تخيلات العرب ومذاهبها ماحكاه ابنُ الأعرابيّ قال : كانت العرب إذا نفرت الناقةُ فسُمّيتْ لها أمُّها سكنتْ من النِّفار ، قال الراجز :

أقولُ والوجناء بي تقحّمُ ويلك قُلْ ما اسمُ أمِّها ياعَلْكَمُ

عَلْكَم : اسمُ عبدٍ له ، وإنّما سأل عبدَه ترفُّعا أن يَعرِف اسمَ أمِّها ، لأنّ العبيد بالإبل أعرَف ، وهُم رُعاتُها .

وأنشد السكّريّ .

فقلتُ له ما اسمُ أمّهاتِ فادْعُها تُجِبْك وبَسْكُنْ روعُها ونِفارُها

* * *

وممّا كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ليس من ميّت يموت ولا قتيلٍ يقتَل ، إلاّ ويخرج من رأسه هامةٌ ، فإنْ كان قتِل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامةُ على قبْره : اسْقُونى ، فإنّى صَدِيَة ؛ وعن هذا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « لا هَامَة » .

وحُكي أنّ أبا زيد كان يقول : الهامّة مشدّدة الميم إحدى هَوَامّ الأرض ، وأنها هي المتلوّنة المذكورة .

وقيل : إنّ أبا عُبيد قال : ما أرَى أبا زيد حَفِظ هـذا ، وقد يُسمّونها الصَّدى والجمع أصْداء ، قال :

* وكيف حَياةُ أصداء وهامِ *

وقال أبو دُواد الإيادي :

سُلِّط الموتُ والمَنونُ عليهمْ فلهمْ في صَدا المقابرِ هامُ[1]

---

(١) ديوانه ٣٣٩

وقال بعضُهم لابنه :

ولا تَزْقُوَنْ لى هامَةٌ فوقَ مَرْقَبٍ   فإنّ زُقاء الهامِ للمرءِ عائِبُ

تُنادِي ألا اسْقونِي وكلّ صَدًى به   وتلك التى تبيضّ منها الذَّوائبُ

يقول له: لا تَتْرك ثأرى إن قتلت ، فإنّك إن تركتَه صاحتْ هامَتى : اسقونى ، فإن كل صدًى ـ وهو ها هنا العَطَش ـ بأبيك ، وتلك التى تبيضّ منها الذوائب ، لصُعوبتها وشِدّتها ، كما يقال : أمرٌ يُشِيب رأسَ المولود. يَحتمل أن يريد به صعوبة الأمر عليه وهو مقبور إذا لم يثأرْ به ، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنـه ، يعنِي أن ذلك عارٌ عليك ، وقال ذو الإصبَع :

يا عَمْرو إلاّ تَدَعْ شَتْمى ومَنقَصَتى   أضرِبْكَ حيث تقولُ الهامَةُ اسْقُونى[1]

وقال آخر :

فيارَبِّ إنْ أهلك ولم تَرْوِ هامَتِى   بَليلَى أمُتْ لا قبرَ أعطشُ من قبرى[2]

ويحتمل هذا البيت أنْ يكون خارجاً عن هذا المعنى الذى نحن فيه ، وأن يكون رِىّ هامته الذى طلبه من ربّه هو وصالُ لَيْلَى وهما فى الدنيا . وهم يَكنُون عما يَشفِيهم بأنه يُرْوِى هامَتَهم.

وقال مغلّس الفَقْعسىّ :

وإنّ أخاكم قد علمت مكانَه   بسَفْح قُبًا تَسفِى عليه الأعاصرُ

له هامةٌ تدعُو إذا الليل جَنّها   بَنِى عامرٍ هل للهلالىِّ ثائرُ

وقال تَوْبةُ بن الحُمَيِّر :

ولو أنّ لَيلى الأخيليّةَ سلّمتْ   علىّ ودُونِى جَنْدَلٌ وصَفائحُ

---

(١) المفضلية ٣١   (٢) للمجنون ، ديوانه ١٦٥

لسلّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زقا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ[1]

وقال قيسُ بن المُلوّح ، وهو المجنون :

ولو تلتقِي أصداؤنا بعد موتِنا ... ومِن دونِ رَمسَيْنا من الأرضِ أنكَبُ[2]

لظَلّ صَدَى رَمْسِي وإن كنتُ رِمّةً ... لِصوتِ صَدَى لَيلَى يَهَشُّ ويطرَبُ

وقال حُمَيد بنُ ثور :

ألاَ هَلْ صَدَى أمِّ الوليد مكلِّمٌ ... صَدايَ إذا ما كنتُ رَمْساً وأعظُما[3]

* * *

ومما أبطله الإسلام قولُ العرَب بالصَّفَر ، زعموا أنّ في البطن حَيّةً إذا جاع الإنسان عَضّت على شُرْسُوفه وكبده ، وقيل : هو الجوع بعَيْنه ، ليس أنها تعضّ بعد حصول الجوع ، فأما لفظ الحديث : « لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر، ولا غول » ، فإن أبا عُبيدة مَعمَر بن المثنى قال : هو صَفَر الشّهر الذى بَعد المحرّم ، قال : نهى عليه السلام عن تأخيرهم المحرّم إلى صَفَر يَعني ما كانوا يفعلونه من النّسىء ، ولم يوافِق أحدٌ من العلماء أبا عُبيدة على هذا التفسير ، وقال الشاعر :

لا يَتأرّى لِما في القِدْرِ يرْقُبه ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[4]

وقال بعضُ شعراء بني عَبْس يذكر قَيس بن زُهير حين هجَر الناس وسكن الفياف

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ .

(٢) ديوانه ٤٦ ، وروايته : * ومن دون رمسينا من الأرض سبسب * .

(٣) ديوانه ٣٠

(٤) لأعشى باهلة ؛ الكامل للمبرد (٤ : ٦٥ ، والرواية فيه :

لا يتأرّى لما في القِدْرِ يرقُبُهُ ... ولا تراهُ أمامَ القِدْرِ يقتفِرُ

لا يغمِزُ السّاقَ من أينٍ ولا وَصَبٍ ... وَلا يَعَضُّ على شُرسُوفِهِ الصَّفَرُ

وأَنِسَ بالوَحْش ، ثمّ رأى ليلةً نارا فمشا إليها ، فشمّ عندها قُتَار اللحم ، فنازعتْه شهوته ، فغلبها وقهرها ، ومال إلى شجرة سلَمٍ فلم يزَل يكْدِمُها ويأكُل مِن خَبَطها[1] إلى أن مات :

إنّ قيساً كان ميتَته كرمٌ والحيّ منطلقُ
شامَ ناراً بالهوى فهوَى وشُجاع البَطْن يختفقُ
فى دَرِيسٍ ليس يسْتُره رُبَّ حُرٍّ ثوبهُ خَلَقُ

وقوله : « بالهوى » اسمُ موضع بعَينه .

وقال أبو النّجم العِجْليّ :

إنك ياخَيرَ فتًى نَستعدِى على زمانٍ مسنِتٍ بجَهْدِ
* عضًّا كعضِّ صفَرٍ بكبدِ *

وقال آخَر :

أردُّ شُجاعَ البطْن قد تعلمينه وأوثر غيرِى من عيالِك بالطعمِ

* * *

ومن خُرافات العرب أن الرّجل منهم كان إذا أراد دخول قريةٍ فخاف وباءها أو جنّها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهَق نهيق الحمار ، ثم علّق عليه كعب أرنب ، كأنّ ذلك عُوذة له ورُقْية من الوَباء والجنّ ، ويسمُّون هذا النّهيق التّعشير ، قال شاعرُهم :

ولا ينفع التّعْشير أن حُمّ واقِعٌ ولا زَعزَعٌ يغنى ولا كَعبُ أرنبِ

وقال الهيثم بن عَدِيّ : خرج عُروة بن الوَرْد إلى خيبر فى رُفْقة ليمتارُوا ، فلمّا قربوا منها عشّروا ، وعاف عُرْوة أن يفعل فعلَهم ، وقال :

(١) الخبط هنا : الورق .

لَعَمرى لئن عَشّرتُ من خِيفةِ الرَّدَى نُهاقَ حَمــــيرٍ إننى لجزُوعُ[١]

فلا وألَتْ تلك النفوسُ ولا أتَتْ قُفُولا إلى الأوطان وهى جميعُ

وقالوا ألا أنْهَقْ لا تضرك خَيبَرٌ وذلك من فعـلِ اليهود وُلُوعُ

الوُلوع بالضمّ : الـكَذِب ، ولع الرجُل إذا كَذَب ، فيقال إن رُفقته مرضوا ومات بعضُهم ، ونجا عروة من الموت والمرض .

وقال آخر :

لا يُنْجِيَنَّكَ من حِمامٍ واقــعٍ كَعبٌ تعلِّقُه ولا تَعشــــيرُ

* * *

ويُشابه هــذا أن الرجل منهم كان إذا ضلّ فى فَلاةٍ قلب قميصَه وصفّق بيَدَيه كأنه يومىء بهما إلى إنسان ، فيهتدِى ، قال أعرابى :

قلبتُ ثِيابى والظُّنونُ تجول بى وتَرْمِى برِحلى نحو كلّ سبيلِ

فَلأْيًا بلأْىٍ ما عرفت جَلِيّتى وأبصرْتُ قَصْدا لم يصب بدَليل

وقال أبو العملّس الطائىّ :

فلو أبصرْتنى بلوَى بطانٍ أصفِّق بالبَنَانِ على البَنَانِ

فأقلبُ تارةً خــوفًا ردائى وأصرُخُ تارةً بأبى فُــلانِ

لقلتُ أبو العَمَلّس قــد دَهاهُ من الجِنّان خالعــة العِنانِ

والأصل فى قَلْب الثِّياب التفاؤل بقَلْب الحال ، وقد جاء فى الشّريعة الإسلاميّة نحوَ ذلك فى الأستسقاء .

* * *

---

(١) ديوانه ٩٥ .

ومن مذاهب العرب أنّ الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها ، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإنْ وجده بحاله علم أنّ زوجته لم تخنْه ، وإن لم يجده أو وجده محلولا قال : قد خانتني ، وذلك العقد يسمّى الرتم ، ويقال : بل كانوا يعقدون طرفا من غصن الشّجرة بطرف غصنٍ آخر ، وقال الراجز :

هل ينفعنْكَ اليومَ إنْ همت بهمْ   كثرةُ ماتوصِي وتعقاد الرتمْ (١)

وقال آخر :

خانته لمّا رأت شَيبا بمفرقه   وغرّه حلفها والعقد الرّتمِ

وقال آخر :

لا تحسبنّ رتائما عقدتها   تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر :

يعلّل عمرٌو بالرتائم قلبه   وفى الحيّ ظبيٌ قد أحلّتْ محارمُهْ

فما نفعتْ تلك الوصايا ولا جنتْ   عليه سوى مالا يحب رتائمُهْ

وقال آخر :

ماذا الذى تنفعك الرتائمُ   إذ أصبحتْ وعِشقُها مُلازمُ

وهى على لذاتها تداومُ   يزورها طبُّ الفؤاد عارمُ

* بكلّ أدواء النّساء عالِمُ *

وقد كانوا يعقدون الرتم للحمّى ويرون أنّ من حلّها انتقلت الحمّى إليه ، وقال الشاعر :

حللتُ رتيمةً فمكثتُ شهرا   أكابدُ كلّ مكروهِ الدّواء

***

(١) اللسان (رتم) من غير نسبة .

وقال ابنُ السِّكِّيت : إنّ العرب كانت تقول : إنّ المرأة المِقلات وهي التي لا يعيشُ لها ولد ، إذا وَطِئت القتيل الشريفَ عاشَ ولدُها ، قال بِشرُ بنُ أبي خازِم :

تَظَلُّ مَقاليتُ النِّساء تطأْنَه ... يَقُلْنَ ألا يُلْقَى على المرء مِئزَرُ[1]

وقال أبو عُبيدة : تتخطّاه المِقلات سبعَ مرّات ، فذلك وَطؤها له .

وقال ابنُ الأعرابيّ : يمرّون به ويطئون حولَه وقيل : إنّما كانوا يفعلون ذلك بالشّريف يُقتَل غَدْرا أو قَوَدا .

وقال الكُمَيْت :

وتُطِيلُ المرزّآتُ المَقاليـ ... ـتُ إليه القُعودَ بعد القِيامِ

وقال الآخَر :

تركنا الشَّمْشَمَين برَمْلِ خَبْتٍ ... تزورهما مَقاليتُ النّساء

وقال الآخَر :

بنفسي التي تَمشِي المَقاليتُ حَوْلَه ... يُطافُ له كَشْحا هَضِيماً مُهشَّما

وقال آخَر :

تَباشَرت المَقالِتُ حِينَ قالُوا ... ثوَى عَمرُو بنُ مُرّةَ بالحَفِيرِ

* * *

ومن تخيّلات العرَب وخُرافاتِها أنّ الغلام منهم كان إذا سقطتْ له سِنّ أخذَها بين السّبّابة والإبهام واستقبَل الشّمس إذا طلعتْ وقذَفَ بها ، وقال : ياشمسُ أبدِليني بسِنّ أحسَنَ منها ، وليَجرْ فى ظَلْمِها ياتك ، أو تقول : « إياؤك » ، وهما جميعا شُعاع الشمس قال طَرَفة :

---

[1] ديوانه ٨٨

* سَقَتْه إياةُ الشّمس (١) *

وإلى هذا الخيالِ أشارَ شاعرُهم بقوله :

شادِنٌ يَجْلو إذا ما ابتَسَمتْ عن أقاحٍ كأقاحِ الرّملِ غرّ
بذّلَتْه الشمسُ من مَنبِته بَرَداً أبيضَ مَصقولَ الأثَرْ

وقال آخَر :

وأشنبُ واضحُ عَذْبُ الثّنايا كأنّ رُضابَهُ صافى المُدامِ
كَسَتْه الشمسُ لوْناً من سَناها فلاحَ كأنّه برْقُ الغمامِ

وقال آخَر :

بذى أُشُرٍ عَذْبِ المَذاقِ تفرّدتْ به الشمس حتّى عاد أبيضَ ناصِعاً

والناسُ اليوم فى صِبْيانِهم على هذا المذهب .

وكانت العربُ تَعتَقد أنّ دَم الرّئيس يَشْفِى مِن عضّة الكَلْب الكَلِب ؛ قال الشاعر :

بُناةُ مكارِمٍ وأُساةُ جُرحٍ دِماؤهمُ من الكَلَبِ الشّفاء

وقال عبدُ الله بن الزّبير الأسَدىّ :

من خيرِ بيتٍ عَلِمْناه وأكرَمه كانت دماؤهُمُ تَشْفِى مِنَ الكَلَبِ

وقال الكُميت :

أحلامكمْ لسَقامِ الجَهْلِ شافيةٌ كما دِماؤكُمُ تَشْفِى مِن الكَلَبِ

* * *

ومِن تخيّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجُنونَ وتعرُّضَ الأرواح

---

(١) البيت بتمامه :

سَقَتْهُ إياةُ الشمسِ إلاّ لثاتِهِ أُسِفّ ولم تَكْدِمْ عليهِ بِإثْمِدِ

الخبيثة له بخسوه بتعليق الأقذار عليه ، كخِرقة الحيض وعِظامِ الموتى ، قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلّق عليه طامِثٌ عِظام موتى ، ثمّ لا يراها يومه ذلك ، وأنشدو للممزّق العبدىّ :

فلو أنّ عنــدى جارتَيْن وراقياً وعلّقَ أنجـاساً علىّ المعلّقُ

قالوا : والتّنجيس يَشفِى إلاّ مِن العِشق ، قال أعرابىّ :

يقولون علّق يالك الخير رِمّةً وهل ينفع التّنجيس مَن كان عاشقا !

وقالت امرأة ـ و نجّستْ ولدَها فلم يَنفَعْه ومات !

نجّسْتُــه لو يَنفَع التّنجيسُ والمــوتُ لا تَفوتُه النفوس

وكان أبو مهديّة يعلّق فى عُنقه العِظامَ والصّوف حَذَر الموت ، وأنشدوا :

أتوْنى بأنجاسٍ لهمْ ومنجِّسٍ فقُلتُ لهمْ ماقدّر اللهُ كائنُ

***

ومن مَذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا خَدِرت رِجلُه ذَكَر من يُحِبّ أو دعاه فيذهب خَدَرُها .

ورُوِى أنّ عبد الله بن عمر خَدِرتْ رِجلُه ، فقيل له ادعُ أحبَّ الناس إليك ، فقال : يارسول الله .

وقال الشاعر :

على أنّ رِجْلى لا يَزالُ امْذِلالُها مُقيماً بهــا حتّى أجِيلَك فى فِكْرى

وقال كُثيّر :

إذا مَذِلَتْ رِجلى ذكرتكِ أشتفِى بدَعواكِ من مَذْلٍ بهـا فيَهونُ (١)

وقال جَميل :

وأنتِ لعَيْنــى قُرّةٌ حينَ نلتقى وذِكرُكِ يَشفِينى إذا خدِرَتْ رِجْلِى (٢)

---

(١) اللسان (مذل) من غير نسبة (٢) ديوانه ١٧٢

وقالت امرأة :

إذا خَدِرَتْ رجلي دعوتُ أبنَ مصعَبٍ فإنْ قلتُ عبدَ الله أجَـلَى فُتورُها

وقال آخَر :

صَبٌّ محبّ إذا مارِجْلُه خَـدِرَتْ نَادى كُبَيْشَةَ حتّى يذهبَ الخَـدَرُ

وقال المؤمّل :

واللهِ ماخَدِرَتْ رِجـلي ولا عَثَرَتْ إلّا ذكرْتُكِ حتى يَذهبَ الخَـدَرُ

وقال الوليد بن يزيد :

أثيبي هائمـاً كلِفاً مُعَنَّى إذا خَدِرَتْ لهرِجلٌ دعاكِ

ونظير هذا الوَهم أنّ الرجل منهم كان إذا اختلَجَتْ عينُه قال : أرَى مَن أُحِبّه ، فإن كان غائبا توَقّع قدومَه ، وإن كان بعيدا توقّع قُرْبه .

وقال بشر :

إذا اختلجتْ عيني أقولُ لعلّهـا فَتاةُ بني عَمْرو بها العَينُ تَلمَعُ (١)

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عيني تيقّنتُ أنّني أراكِ وإن كان المزارُ بَعيـدا

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عيني أقولُ لعلّها لرؤيتها تَهتاجُ عَيني وتطرِفُ

وهذا الوَهْم باقٍ في الناس اليوم .

***

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا عَشِق ولم يَسْلُ وأفرَط عليه العِشقُ حمَله

---

(٣) ديوانه ١١٨

رجلٌ على ظَهرِه كما يحمَل الصبىّ ، وقام آخر فأحمَى حديدةً أو مِيلاً ، وكوى به بين أليَتَيْهِ فيذهب عِشقُه فيما يزعمون .

وقال أعرابىّ :

كويتمْ بين رانفتىّ جَهْلاً ... ونارُ القَلْب يُضرِمُها الغَرامُ

وقال آخَر :

شكوتُ إلى رفيقىّ اشتياقِى ... فجاءانِى وقد جَمَعا دوَاءْ

وجاءا بالطبيب ليَكوِيانى ... ولا أبغِى عَدِمتُهما اكتِوَاءْ

ولو أتيا بسَلْمى حين جاءا ... لعاضانِى من السّقَم الشّفَاءْ

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كُثَيِّر :

أغاضرَ لو شَهدتِ غداةَ بِنتم ... حُنُوَّ العائداتِ على وسادِى

أوَيْتِ لعاشقٍ لم ترحَميهِ ... بواقِدةٍ تلذّع بالزّنادِ

هذا البيت ليس بصريح فى هذا الباب ، ويحتمل أن يكون مُرادُهُ فيه المعنى المشهور المطروقَ بين الشعراء من ذِكر حرارة الوَجْد ولَذْعِه ، وتشبيهِ بالنار ، إلّا أنّه قد روَى فى كتابه خبرا يؤكِّد المقصِد الّذى عزاه وادّعاه ، وهو عن محمّد بن سليمانَ ابن فُلَيح ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنتُ عندَ عبدِ الله بنِ جعفر ، فدخل عليه كُثَيّر وعليه أثر عِلّة ، فقال عبدُ الله : ماهذا بك ؟ قال : هذا مافعلتْ بى أمُّ الحُوَيْرث ، ثم كشفَ عن ثوبه وهو مَكوىّ ، وأنشد :

عفا الله عن أمِّ الحُويرثِ ذَنبهَا ... علامَ تُعنِّينى وتَكمِى دَوائيا !

ولو آذنونى قبل أن يرقُموا بها ... لقلت لهم : أمُّ الحويرث دائيا

* * *

ومن أوهامهم وتخيُّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أن الرّجل إذا أحَبّ امرأةً وأحبّته فشقّ برْقُعها ، وشقّت رِداءه ، صَلَح حبّهما ودام ، فإن لم يفعلا ذلك فسدَ حبُّهما ؛ قال سُحيْم عبدُ بني الحسْحاس :

وكم قد شققْنا من رداء محبَّرٍ ... ومن بُرقعٍ عن طَفْلةٍ غير عابسِ [1]

إذا شُقَّ بُردٌ شُقَّ بالبرد بُرقعٌ ... دَوَاليك حتّى كلّنا غير لابِسِ

نرومُ بهذا الفعلِ بُقياعلى الهوى ... وَإلفُ الهوى يغرِي بهذي الوساوِس

وقال آخر :

شققت ردائى يومَ برْقةِ عالجٍ ... وأمكنني من شَقّ برقعها السّحقا

فما بالُ هذا الودِّ يفسدُ بيننا ... ويمحَقُ حبلُ الوصلِ مابيننا مَحْقا

***

ومن مذاهبهم أنّهم كانوا يرَون أنّ أكل لحوم السِّباع تزيد فى الشجاعة والقوّة ، وهذا مذهبٌ طِبِّىٌّ ، والأطبّاء يعتقدونه ، قال بعضهم :

أبا المعارك لا تُتعِب بأكلِك ما ... تظن أنك تُلفَى منــــه كرّارا

فلو أكلتَ سِباعَ الأرضِ قاطبةً ... ما كنتَ إلّا جبانَ القلب خوّارا

وقال بعضُ الأعراب ـ وأكل فؤاد الأسد ليكون شجاعا ـ فعدَا عليه نمِر فجرَحه :

أكلتُ من الليثِ الهصورِ فؤادَهُ ... لأصبِح أجرَى منه قَلبا وأقدَما

فأدرَكَ منّى ثأرَه بابن أختِــه ... فيالكَ ثأرا ماأشدَّ وأعظَما !

وقال آخَر :

إذا لم يكن قلبُ الفتى غُدْوَةَ الوَغَى ... أصمّ فقلبُ اللّيث ليس بنافِــع

---

(١) ديوانه ١٦ ، ولم يذكر البيت الثالث

وما نَفْعُ قلبِ الليثِ في حَوْمة الوَغَى إذا كان سيف المرء ليس بقاطِـع !

* * *

ومن مَذاهبهم أنّ صاحَب الفرَس المَهْقوع إذا ركبَه فعرِق تحته اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره ، والهَقْعة : دائرة تـكون بالفرَس ، وربّما كانت على الـكَتِف في الأكثر ، وهي مستقبَحةٌ عندهم ، قال بعضُهم لصاحبه :

إذا عَرِق المَهْقُوع بالمرء أنْعظتْ حَليلتُه وازدادَ حَرُّ عِجانِها

فأجابه صاحبُه :

قد يركب المهقوعَ من ليس مثله وقد يركبُ المهقوعَ زوج حَصَانِ (١)

* * *

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يوُقدون النّار خَلْف المسافر الذي لا يحبّون رجوعَه ، يقولون في دعائهم : أبعدَه الله وأَسحقه ، وأوقدَ ناراً أثرَه ! قال بعضهم :

صحوتَ وَأوقدتَ للجهل نارًا ورَدَّ عليك الصبَا ما أستَعـارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقَدوا نارا بينهم وبين المنزِل الّذي يريدونه ، ولم يُوقدوها بينهم وبين المنزل الّذي خرجوا منه ؛ تفاؤلا بالرجوع إليه .

* * *

ومن مذاهبهم المشهورة تعليقُ كَعْب الأرْنَب ، قال ابنُ الأعرابيّ : قلتُ لزيد بن كَثْوةَ : أتقولون: إنّ من عُلّق عليه كعبُ أرنبٍ لم تقربْه جِنّان الدار ، ولا عُمّار الحَيّ ؟ قال : إي واللهِ ، ولا شَيطانُ الحَماطة ولا جار العُشَيرة ، ولا غُول القَفْر . وقال أمرؤ القَيْس :

---

(١) اللسان (هقع) دون نسبة .

أياهنـــدُ لا تَنـكِحِى بُوهةً   عليـــــه عقيقتُه أحسَبَا [١]

مرسّعـــــةً بين أَدْباقِهِ   به عَسَمٌ يَبتغى أرنبـــــا

ليَجعَلَ فى رِجلِهِ كَعْبَهـــا   حِـــــذارَ المَنيّة أن يعطَبا

والخماطة : شجرة ، والمُشَيرة : تصغير المَشْرة ، وهى شجرة أيضا .

وقال أبو محلِّم : كانت العرب تعلِّق على الصّبىّ سِنّ ثعلب وسِنّ هِرّة خوفا من الخطْفة والنّظرة ، ويقولون : إنّ جنّيّة أرادتْ صبىّ قوم فلم تَقدِر عليه ، فلامَها قومُها من الجنّ فى ذلك ؛ فقالت تعتذِر إليهم :

كأنّ عليـــــه نُفَرَهْ   ثعالبٌ وهِـــــرَرَهْ

* والحَيض حيضُ السَّمُرَهْ *

والسَّمُرة شىء يسيل من السَّمُر كدم الغزال ؛ وكانت العربُ إذا وَلدت المرأةُ أخذوا من دَمِ السَّمُر ـ وهو صَمْغُه الّذى يسيل منه ـ ينقطونه بين عَيْنَى النُّفَساء ؛ وخَطُّوا على وجه الصبىّ خَطًّا ، ويسمّى هذا الصمغ السائل من السَّمُر الدَّوْدَم ؛ ويقال بالذال المعجَمة أيضا ، وتسمَّى هذه الأشياء الّتى تُعلَّق على الصّبى : النَفرات .

قال عبد الرحمن بنُ أخى الأصمعىّ : إنّ بعض العرَب قال لأبى : إذا وُلِد لك ولَد فنفِّر عنـه ، فقال له : أبى ، وما التنفير ؟ قال : غرِّب اسمَه ؛ فوُلِد له ولدٌ فسمّاه قُنفُذا ، وكَنّاه أبا العدّاء ؛ قال : وأنشد أبى :

كالخَمْر مَزْجُ دَوائها مِنهـــا بها   تَشفى الصُّداعَ وتُبرئُ المَنجُودَا [٢]

قال : يريد أنّ القُنفُذ من مَراكِب الجنّ ؛ فداوى منهم ولده بمَراكبهم .

* * *

---

(١) ديوانه ١٢٨   (٢) المنجود : المكروب .

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مَفازةً وخاف على نفسِه من طَوارِق اللّيل عَمَد إلى وادى شجر فأناخَ راحلتَه فى قرارته ، وعقَلها وخَطّ عليها خَطّا ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادى ، وربّما قال : بعظيم هذا الوادى ، وعن هذا قال الله سبحانه فى القرآن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [1] .

واستعاذ رجلٌ منهم ومعه ولدٌ فأكَلَه الأسد ، فقال :

قــد اُستعذْنا بعظيمِ الوادِى   من شرِّ مافيــه من الأعادِى

* فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادِى *

وقال آخَر :

أعوذُ من شَرِّ البلاد البيـدِ   بسَيِّدٍ معظَّمٍ مَجيــــدِ

أصبحَ يأوِى بــلِوَى زَرُودِ   ذِى عِــزّةٍ وكاهِلٍ شَديدِ

وقال آخَر :

ياجِنَّ أجراعِ اللِّوى من عالجِ   عاذَ بِكُمْ سارِى الظّلام الداجِ

* لا تُرهِقوه بغَوِىٍّ هائجِ *

وقال آخر :

قــد بتّ ضيفا لعظيم الوادى   المانِعِ مِنْ سَطْوة الأعادى

* راحِلَتِى فى جارِه وزادِى *

وقال آخَر :

هَيَا صاحبَ الشَّجْراء هل أنتَ مانِعِى   فإنّى ضَـــيْفٌ نازلٌ بفِنائِــكا

---

(١) سورة الجن ٦

وإنّك للجِنّان فى الأرضِ سَـــيّدٌ ومِثلُكَ آوَى فى الظّلام الصَّعالِـكا

***

ومن مذاهبهم أنّ المسافر إذا خرج من بلده إلى آخَرَ فلا ينبغى له أن يَلتفِت ، فإنه إذا ٱلتفت عاد ، فلذلك لا يلتفت إلّا العاشق الّذى يُرِيدُ العَوْد ؛ قال بعضهم :

دَعِ التلفّت يامَسْعودُ وارمِ بهـــا وجهَ الهواجِرِ تأمَنْ رَجعــةَ البَلَدِ

وقال آخَر ؛ أنشدَه الخالع :

عِيــلَ صبرِى بالثَّعلَبيّة لمّا طال ليـــلِى ومَلَّ ... قُرَنائى

كلّما سارَت المَطَايا بنـــ... لاَّ تنفَّسْتُ والتفتُّ وَرائِى

هذان البيتان ذكَرَها الخالعُ فى هذا الباب ، وعندى أنّه لا دَلالة فيهما على ما أراد ، لأنّ التلفّت فى أشعارهم كثير ، ومُرادُهم به الإبانةُ والإعرابُ عن كثرة الشّوق،والتأسّف على المفارقة ، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يُمكِنْه المُقام فيه بجُثْمانه يُتبِعه بَصرَه ، ويتزوّد من رؤيته ؛ كقول الرضىّ رحمه الله :

ولقــــد مررتُ على طُلولهمُ ورُسُومهمْ بِيَدِ البِلَى نَهْبُ (١)

فوقفتُ حتى ضَجّ من لَغَبٍ نِضْوِى ولَجّ بعَذْلِىَ الرَّكْبُ

وتلفّتتْ عينى فمُـــذ خَفِيتْ عنّى الطُّـــلول تلفّتَ القلبُ

وليس يُقصَد بالتلفّت هاهنا التفاؤل بالرّجوع إليها ، لأن رسُومَها قد صارت نَهْبا لِيَد البِلَى ، فأىّ فائدةٍ فى الرّجوع إليها ! وإنّما يريد ماقدّمنا ذكره من الحنين والتذكّر لِما مضى من أيّامه فيها ، وكذلك قول الأوّل :

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٥

تلفَّتَ نحو الحيّ حتى وَجـدْتُنى وَجِعتُ من الإصْغاء لِيتاً وأخدَعا[1]

ومِثل ذلك كثير ، وقال بعضُهم فى المذهَب الأوّل :

تلفّتّ أرجو رجعةً بعــدَ نيّةٍ فـكان التفاتى زائداً فى بَلائيا

أأرجو رُجوعا بعد ما حال بيننا وبينـكم حَزْنُ الفَلا والفَيافِيا !

وقال آخر ، وقد طلّق امرأته فتلفّتتْ إليه :

تَلفَّتُ تَرْجو رجعةً بعد فُرقةٍ وهيهات مما تَرتجِى أمُّ مازِنِ !

ألم تعلمى أنى جمـــوحٌ عِنانُه إذا كان من أهواهُ غيرَ ملاين !

***

ومن مذاهبهم، إذا بُثِرتْ شفَةَ الصبىّ حمل مُنخُلا على رأسه، ونادى بين بيوت الحىّ: الحلا الحَلا ، الطّعام الطعام ، فتلقى له النساء كِسَرَ الخبزِ وأقطاعَ التمر واللّحم فى المُنخُل ، ثمّ يلقى ذلك للـكلاب فتأ كُله فيبرأ من المرض ، فإن أ كلَ صبىّ من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للـكلاب تمرةً أو لقمةً أو لحمةً أصبح وقد بثِرتْ شفته . وأنشِد لامرأة :

ألا حَلاَ فى شَفَةٍ مشقوقهْ فقد قَضَى مُنخُلُنا حُقوقَهْ

***

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا طَرِفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المَطروف سبع مرّات ؛ يقول : فى الأولى : بإحدى جاءت من المدينة ، وفى الثانية : باثنتين جاءتا من المدينة ، وفى الثالثة بثلاثٍ جئن من المدينة ، إلى أن يقول فى السابعة : بسبعٍ جئن من المدينة ، فتبرأ عينُ المطروف .

---

(١) للصمة بن عبد الله ؛ ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ١٩٩

وفيهم من يقول : بإحدى من سَبْع جِنّ من المدينة ، باثنتين من سبعٍ ، إلى أن يقول بسَبْع من سَبْعٍ .

* * *

ومن مذاهبهم أنّ المرأة منهم كان إذا عَسُر عليها خاطبُ النّكاح نشرَتْ جانباً من شَعْرها، وكحلتْ إحدى عينيْها مخالفةً للشَّعر المنشور ، وحَجَلتْ على إحدى رِجْليها ويكون ذلك لَيْلا ، وتقول : ياكاح ، أبغى النّكاح ، قَبْل الصباح ؛ فيَسهل أمرُها وتتزوّج عن قُرْب ، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأةً تفعلُ ذلك :

أما تَرَى أمّك تبغى بَعْلا قد نَشرتْ من شَعرها الأقلاّ

ولم تُوَفّ مقلتَيْها كَحْلا ترفَع رِجْلا وتَحُطّ رِجْلا

هذا وقد شابَ بَنُوها أصْلا وأصبَحَ الأصغرُ منهمْ كَهْلا

خذ القَطيع ثمّ سِمْها الذُّلا ضَرْبا به تَتْرك هذا الفِعْلا

وقال آخر :

قد كَحلتْ عيناً وأعفَتَ عَيْنا وحَجَلتْ ونَشرتْ قُرَيْنا

* تَظُنّ زَيْنا ما تراه شَيْنا *

وقال آخر :

تَصنّعِى ما شئت أنْ تَصنّعى وكَحّلى عينَيْك أو لا فدَعِى

ثم احجِلى فى البيت أو فى المجمعِ مالكِ فى بَعْلٍ أرَى من مَطْمعِ

* * *

ومن مذاهبهم كانوا إذا رَحَل الضيف أو غيره عنهم وأحبّوا ألاّ يعود كسروا

شيئا من الأوانى وراءه ، وهذا مما تعمله الناسُ اليوم أيضا ، قال بعضهم :

كسرْنا القِدْر بعـد أبى سوارٍ فـهادَ وقِدْرُنا ذهبتْ ضَياعا

وقال آخَر :

ولا نَكسِر الكِيزانَ فى إثر ضَيفنا ولـكننا نقفيـه زاداً ليَرْجِعا

وقال آخَر :

أما واللهِ أنَّ بَنِى نُفَيــلٍ لحلاّلون بالشَّرَف اليَفاعِ

أناسٌ ليس تَكسِر خلفَ ضَيفٍ أوانيَهم ولا شعب القِصاعِ

***

ومن مذاهبهم قولهم : إنّ من ولد فى القَمْراء تقلّصت غُرْلته[1] ، فكان كالمختون . ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواصّ القمر ، كما أنّ من خواصه إبلاء الكَتّان ، وإنتان اللحم ، وقد رُوِى عن أميرِ المؤمنين عليه السلام : إذا رأيتَ الغلام طويل الغُرْلة فاقرِبْ به من السُّؤدد ، وإذا رأيته قصير الغُرْلة كأنما ختنَه القمر فأبعِدْ به .

وقال امرؤ القيس لقَيْصر ، وقد دخل معه الحمّام فرآه أقلَف :

إنّى حلفتُ يميناً غـير كاذبةٍ لأنت أغلَفُ إلاّ ما جَنَى القمرُ[2]

ومن مذاهبهم التّشاؤم بالعُطاس ، قال امرؤ القيس :

* وقد اغتَدِى قبل العُطاسِ[3] بهيكَلٍ *

وقال آخَر :

---

(١) الغرلة : القلفة ، وهى الجلدة فى رأس الإحليل قبل الختان .

(٢) ديوانه ٢٨٠ (٣) البيت بتمامه :

وقَدْ أغتدى قبلَ العُطاسِ بهيكَلٍ شديدِ منيع الجنبِ فَعْمِ المنطّقِ

ديوانه ١٧٣

وخرْقٍ إذا وجّهت فيه لغَزْوةٍ   مضيت ولم يَحبسْكَ عنه العَواطِسُ

* * *

ومن مذاهبهم قولهم فى الدعاء : لا عشتَ إلاّ عيش القراد ! يضربونه مثلا فى الشدّة والصبر على المَشقّة ، ويزْعمون أنّ القراد يعيش ببَطْنه عاما وبظهره عاما ، ويقولون : إنه يُترَكُ فى طينةٍ ويُرمى بها الحائط فيبقى سنةً على بَطْنه ، وسنةً على ظَهْره ولا يموت ، قال بعضهم :

فلا عشتَ إلا كَعَيْش القُرا   دِ عاماً ببطْنٍ وعاماً بظَهْرِ

ومن مذاهبهم كانت النساء إذا غاب عنهنّ من يُحِبْنه أخذن تُرابا من موضع رجله ، كانت العربُ تزعُم أنّ ذلك أسرَعُ لرجوعه .

وقالت امرأةٌ من العرب ــ واقتبضتْ من أثره :

يارَبِّ أنت جارُه فى سَفَرِهْ   وجار خُصْيَيْه وجارُ ذَكَرِهْ

وقالت امرأةٌ :

أخذتُ تُرابا من مواطىء رجله   غداةَ غدا كيما يؤوبَ مُسلَّمَا

* * *

ومن مذاهبهم ، أنّهم كانوا يسمّون العَشا فى العين الهُدَبِد ، وأصلُ الهدبد ، اللّبن الخاثر ، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سَنام فقطَع منه قطعةً ومن الكِبد قطعة ، وقلاَهما ، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسَح جفنَه الأعلى بسبّابَته :

فيا سَنَاما وكَبِدْ   ألا أذهبا بالهُدَبِدْ[1]

ليس شفاء الهُدَبِدْ   إلا السّنام والكَبِدْ

---

(١) انظر اللسان ٤ : ٤٤٦ .

قال : فيذهب العشا بذلك .

***

ومن مذاهبهم اعتقادُهم أنَّ الوَرَل والقُنفذ والأرنب والظّبيَ واليَرْبوع والنّعام مراكبُ الجنّ يمتطونها ، ولهم فى ذلك أشعارٌ مشهورة ، ويزعمون أنّهم يرَوْن الجنّ ويظاهرونهم ويخاطبونهم، ويشاهدون الغُول، وربما جامَعوها وتزوّجوها ، وقالوا : إن عمرو بن يَرْبوع تزوج الغولَ وأولدها بنين ، ومكثَتْ عنده دهراً ؛ فكانت تقول له : إذا لاح البَرْق من جهة بلادى — وهى جهة كذا — فاستره عنى ، فإنى إنْ لم تَستُره عنى تركتُ ولدَك عليك ، وطِرْتُ إلى بلاد قومى ؛ فكان عمرو بن يَرْبوع كلّما برق البرقُ غطَّى وجهها بردائه فلا تُبصره ؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو العَلاء المعرّى فى قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرْق :

طَرِبْنَ لضَوْء البارِق المُتعالى ببغدادَ وَهْناً ما لهنّ ومالِى[1]

سَمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنها بنارَيْهِ من هنا وثَمّ صَوالِى

إذا طال عنها سَرّها لوْ رءوسها تمدُّ إليه فى صُدورِ عَوالِى

تمنّت قويقاً والصَّراة أمامَها ترابٌ لها من أيْنُق وجمالِ

إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وجوهها كأنِّىَ عمرو والمطىّ سَعالِى

وكم همّ نِضْوٌ أن يطيرَ مع الصَّبا إلى الشام لولا حَبْسُه بعِقالِ

قالوا : فغفَل عمرو بن يَرْبوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يَستُر وجهها ، فطارت وقالت له وهى تطير :

أمسِكْ بنيك عَمْرُو إنِّى آبقْ بَرْقٌ على أرض السَّعالى آلِقْ[2]

---

(١) سقط الزند ١١٦٢

(٢) شروح سقط الزند ١٦٨

ومنهم من يقول: ركبتْ بعيراً وطارت عليه ـ أي أسرعَتْ ـ فلم يُدرِكْها. وعن هذا قال الشاعر:

رأى برقاً فأوضعَ فوقَ بكْرٍ فلا بِكَ ما أسالَ ولا أغاما [1]

قال: فبنو عمرو بن يَرْبوع إلى اليوم يُدْعَـوْن بنى السِّعْلاة، ولذلك قال الشاعر يهجُوهم:

يا قبّح اللهُ بنى السِّعـــلاةِ عمرو بن يربوع شِرَارَ النّاتِ [1]

* ليسوا بأبطالٍ ولا أكْياتِ *

فأبدلَ السِّين تاء، وهى لغةُ قوم من العرب.

* * *

ومن مذاهبهم فى الغول قولهم: إنها إذا ضُرِبتْ ضربةً واحدةً بالسّيف هلكتْ، فإن ضُرِبت ثانيةً عاشت، وإلى هذا المعنى أشارَ الشاعرُ بقوله:

فقالت: ثَنِّ، قلتُ: لها رُوَيْداً مكانَكِ، إننى ثَبْتُ الجنانِ

* * *

وكانت العرَب تسمّى أصواتَ الجنّ العَزيفَ وتقول: إن الرجل إذا قَتل قُنفُذا أو وَرَلا لم يأمَن الجنّ على فَحْل إبله، وإذا أصاب إبلَه خَطْب أو بلاء حَمَله على ذلك، ويزعمون أنهم يَسمَعون الهـاتفَ بذلك، ويقولون مثله فى الجانّ من الحيّات، وقتله عندهم عظيم.

ورأى رجلٌ منهم جانا فى قعر بئرٍ لا يستطيع الخروجَ منها، فنزل وأخرَجَـه منها على خَطَر عظيم، وغمّض عينَيْه لئلّا يرى أين يدخل، كأنه يريد بذلك التقرّب إلى الجنّ.

---

(١) شروح سقط الزند ١١٦٨. نوادر أبى زيد ١٤٦، وروايته: «دما أسال وما أغاما».

وقال أبو عثمانَ الجاحظ : وكانوا يُسمُّون من يُجاوِرِ منهم النّاس عامراً ، والجمع عُمّار ، فإن تعرّض للصبيان فهو رُوح ، فإن خَبُثَ وتعرّم فهو شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارِد ، فإن زاد على ذلك فى القوّة فهو عِفريت ، فإن طَهُرَ ولطف وصار خيراً كلّه فهو مَلَك ؛ و يفاضِلون بينهم ، و يعتقدون مع كلّ شاعر شَيْطانا ، و يسمّونهم بأسماء مختلفة ؛ قال أبو عثمان : وفى النّهار ساعاتٌ يُرى فيها الصغيرُ كبيرا ويُوجد لأوساط القَيافِي والرّمالِ والحِرار مِثل الدّوِيّ ، وهو طبع ذلك الوقت ، قال ذو الرّمة :

إذا قال حادِينا لترْنيم نَبْأةٍ صَهٍ لم يكنْ إلا دوِىّ المَسامِعِ[1]

وقال أبو عثمان أيضا فى الّذين يذكرون عزيفَ الجنّ وتَغوّل الغِيلان : إنّ أثر هذا الأمر وابتداء هذا الخيال أنّ القوم لمّا نزلوا بلاد الوَحْش عملتْ فيهم الوَحْشة[2] ، ومن انفرد وطال مقامُه فى البلاد الخلاء استوحَشَ ، ولا سيّما مع قلّة الأشغال وفَقْد المُذاكرين ؛ والوَحْدة لا تقطع أيّامها إلاّ بالتّمنى والأفكار ، وذلك أحد أسباب الوَسْواس[3] .

***

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها اعتقادُهم فى الدّيك والغُراب والحمامة وساقِ حُرّ — وهو الهديل — والحيّة ، فمنهم من يَعتقِد أنّ للجنّ بهذه الحيوانات تعلّقات ، ومنهم من يَزعم أنّها نوعٌ من الجنّ ، و يعتقدون أنّ سُهيلا والزُّهَرة والضّبّ والذئب والضّبع مُسُوخ ، ومن أشعارهم فى مَراكِب الجنّ قولُ بعضهم فى قُنفُذٍ رآه ليلا :

فما يُعجِب الجِنّانَ منك عَدِمْتَهمْ وفى الأُسْد أفراسٌ لهمْ ونجائبُ[4]

أيُسرَجُ يرْبوعٌ ويُلجَم قنفذٌ لقد أعوزَتْكم ما علمت النجائبُ !

---

(١) ديوانه ٣٦٠ . (٢) كذا فى ا والحيوان ، وفى ب : « الوحشية » .
(٣) الحيوان ٦ : ٢٤٩ (٤) الحيوان ٦ : ٢٤٠ .

فإن كانت الجِنّان جُنّتْ فبالحرَى ولا ذَنْبَ للأقوامِ واللهُ غالبُ[1]

ومن الشّعر المنسوب إلى الجنّ :

وكلّ المطايا قد ركبْنا فلم نَجِد ألذّ وأشهى من رُكوب الأرانِب

ومن عَضْرَفُوطٍ عَنّ لي فركِبتُه أبادِرُ سِرْباً من عطاء قوارِبِ[2]

وقال أعرابيّ يكذّب بذلك :

أيستَمِع الأسرارَ راكبُ قُنفُذٍ لقد ضاعَ سِرُّ الله يا أُمّ معبَدِ!

* * *

ومن أشعارهم وأحاديثهم في رواية الجنّ وخِطابِهم وهتافِهم ما رواه أبو عثمان الجاحظ لسمير بن الحرث الضّبي :

ونارٍ قد حَضأتُ بُعيدَ وَهْنٍ بدارٍ لا أُريدُ بهـــا مُقاماً[3]

سِوَى تحليـل راحلةٍ وعَيْنٍ[4] أُكالئهـــا مخافةَ أن تناماً

أتوْا نارِي فقلتُ : مَنُونَ أنتم؟ فقالوا : الجنّ قلتُ : عِمُوا ظَلاماً

ويزعمون أنّ عُمَير بنَ ضبيعة رأى غلمانا ثلاثةً يلعبون نهارا ، فوثَب غلامٌ منهم فقام على عاتِقَيْ صاحِبه ، ووَثَب الآخَر ، فقام على عاتقَيْ الأعلى منهما ، فلمّا رآهم كذلك حَمَل عليهم فصَدَمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يَضحَكون ، فقال عمير بن ضُبَيعة : فما مررتُ يومئذ بشَجَرة إلّا وسَمِعتُ من تحتها ضَحِكا ؛ فلمّا رجع إلى منزله مَرِض أربعَةَ أشهر .

---

(١) الحيوان : « ولا ذنب للأقدار » .

(٢) العضرفوط : دويبة بيضاء ناعمة ؛ وهي ضرب من العظاء .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٨١ ، ٦ : ١٩٦ ، ونوادر أبي زيد ؛ وفيه : « شمير بن الحارث الضبي » وانظر الخزانة ٣ : ٣ ، والمخصص ١ : ٩٤ ، والميداني ١ : ٣٢ . حضأت : أشعلت .

(٤) قوله : « سوى تحليل راحلة » ، أراد سوى راحلة أقت بها فيها بعد تحلة اليمين » .

وحكى الأصمعيّ عن بعضهم أنّه خرج هو وصاحبٌ له يسيران ، فإذا غلامٌ على الطريق ، فقالا له : مَن أنتَ ؟ قال : أنا مسكين قد قُطِع بى ، فقال أحدهما لصاحبه : أرْدِفه خَلْفَك ، فأرْدَفه ، فالتفتَ الآخَر إليه فرأى فَمَه يتأجّج نارا ، فشدّ عليه بالسّيف فذهبت النارُ فرَجَع عنه ، ثمّ التفت فرأى فَمه يتأجّج نارا فشدّ عليه فذهَبت النار ، ففَعَل ذلك مرارا ، فقال ذلك الغلام : قاتَلَكما الله ! ما أجْلَدَكما ! والله مافعلتُها بآدمىّ إلا وانخَلَع فؤادُه ، ثم غابَ عنهما فلم يَعلَما خبرَه .

وقال أبو البلاد الطُّهَوِىّ — ويُرْوَى لتأبّط شرًّا :

لَهَان عَلَى جُهَينـــةَ ما أُلاقِى ... من الرَّوْعات يومَ رَحا بِطانِ[(1)]

لقيتُ الغولَ تَسرِى فى ظَلامٍ ... بسَهْبٍ كالعَباءة صَحْصَحانِ[(2)]

فقلتُ لها : كلانا نِقْضُ أرضٍ ... أخو سَفَرٍ فخَلِّى لى مكانى[(3)]

فشـدّتْ شَدّةً نحوى فأهوَى ... لها كَفِّى بمَصقولٍ يَمـانِى

فقالتْ : زِدْ فقلتُ : رُوَيدَ إنّى ... على أمثالِهـا ثَبْتُ الجَنانِ

والذين يَرْوُون هذا الشِّعر لتأبّط شرًّا يروُون أوّله :

ألا مَن مُبلِغٌ فَتَياتِ جَهْمٍ ... بما لاقيتُ عنـدَ رَحا بِطانِ

بأنّى قـد لقيتُ الغُولَ تَلوِى ... بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحانِ

فصدّتْ فانتحَيْتُ لهـا بعَضْبٍ ... حُسامٍ غير مؤتَشِب يمـانِى

فقدّ سَراتَهـا والبَرْكَ منهـا ... فخرّتْ لليَدَيْنِ ولِلجِرانِ[(4)]

فقالتْ : ثنِّ قلت لها : رُوَيدًا ... مكانَك إنّنى ثَبْتُ الجَنـانِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٣٤ ، وانظر الأغانى ١٨ : ٢١ ، ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٨ : ٢٣١ . ورحا بطان : موضع فى بلاد هذيل .
(٢) الصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٣) النقض : المهزول قد نقضه السفر .
(٤) السراة ، بالفتح ، الظهر ، والبرك : الصدر .

ولم أنفكّ مضطجماً لديْها ... لأ نظُرَ مصبحا ماذا دَهانى

إذا عَيْنان فى رأسٍ دَقيق ... كَرأس الهرّ مشقوق اللسان

وساقا مُخدَجٍ ولسان كَلْبٍ ... وثوب من عَباء أو شِنانِ

وقال البهرانىّ :

وتزوّجتُ فى الشّبيبة غُولاً ... بغزالٍ وصَدْقتى زِقّ خمْرِ[1]

وقال الجاحظ : أصدَقها الخمر لِطيب رِيحها ، والغزال لأنّه من مَراكِب الجنّ .

وقال أبو عبيد بن أيوبَ العَنبرىّ أحد لصوص العرب :

تقول ـ وقد ألمَمْتُ بالإنسِ لَمّةً ... مخضّبةُ الأطراف خُرس الخلاخِلِ[2]

أهذا خَدِينُ الغُول والذئبِ والذى ... يَهيمُ بربّات الحجال الهراكِلِ ![3]

رأتْ خَلَقَ الدِّرسَيْنِ أسوَدَ شاحِباً ... من القوم بسّاما كريمَ الشمائِلِ[4]

تَعوّدَ من آبائه فَتَكاتِهمْ ... وإطعامَهم فى كلّ غبراء شامِلِ[5]

إذا صادَ صَيْداً لَفّهُ بضرامِه ... وَشيكا ولم يَنظُرْ لغَلْى المَراجِلِ[6]

ونهساً كنَهْس الصَّقْر ثُمّ مِراسه ... بكَفّيه رأس الشّيخة المتمائِلِ[7]

ومن هذه الأبيات .

إذا ما أرادَ اللهُ ذُلّ قبيلةٍ ... رَماها بتَشْتيتِ الهوى والتّخاذُلِ

وأوّل عَجزِ القوم عمّا ينوبُهمْ ... تقاعُدُهم عنه وطولُ التّواكُلِ

وأوّل خُبثُ الماء خُبْثُ تُرابه ... وأوّل لُؤمِ القوم لُؤمُ الحلائِلِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٢٥

(٢) الحيوان ٦ : ١٦٧ . وخرس الخلاخل : كناية عن امتلاء الساق .

(٣) الهراكل : جمع هركلة ؛ وهى الحسنة الجسم التامة والخلق .

(٤) الدرس : البالى من الثياب . وفى الحيوان : « خلق الأدراس » .

(٥) الغبراء : السنة الجدبة .

(٦) الحيوان : « لنصب المراجل »

(٧) المراس : المسح والدلك ، والشيخة : نبتة .

وهذا الشعر من جيّد شعر العرب ، وإنما كان غرضنا منه متعلقاً بأوّله ، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب .

وقال عُبَيد بن أيّوبَ أيضا فى المعنى الّذى نحن بصدده :

وصارَ خليل الغُولِ بعد عداوةٍ صَفيًّا وربّته القِفارُ البَسابسُ[1]

وقال أيضا

فللهِ درُّ الغُولِ أىّ رفيقةٍ لصاحب قفر فى المَهامِهِ يُذْعَرُ[2]

أرنّت بلحْن بعد لحْن وأوْقدَتْ حوالىَّ نيرانًا تلوح وتزْهرُ

وقال أيضاً :

وغُولاَ قَفْرةٍ ذَكرٍ وأنثى كأنّ عليهما قِطَعَ البِجادِ[3]

وقال أيضاً :

فقد لاقت الغِزلانُ منّى بَلِيّةً وقد لاقت الغِيلانُ منّى الدّواهيا[4] .

وقال البَهْرانىّ فى قتل الغُول :

ضربتُ ضربةً فصارتْ هَباءً فى مُحاقِ القَمْراء آخرَ شهرِ[5]

وقال أيضا ، يزعم أنه لما ثنى عليها الضرب عاشتْ :

فثنّيت والمقْدارُ يَحرُس أهلَه فلَيتَ يَمينى يومَ ذلك شَلّتِ !

وقال تأبّط شرّا يَصِف الغُولَ ويذكر أنّه راوَدَها عن نفسها فامتنعتْ عليه فقتَلَها :

فأصبحتُ والغُولُ لى جارةٌ فياجارةً أنتِ ما أغوَلا

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٣٥
(٢) الحيوان ٦ : ١٦٥
(٣) الحيوان ٦ : ١٥٩
(٤) الحيوان ٦ : ١٦٦
(٥) الحيوان ٦ : ٢٣٣

وطالبْتُها بُضْعَها فالتوَتْ فكان من الرأيِ أن تُقتَـلا
فجلَّلْتُها مُرهَفًا صارِمًا أبَانَ المَرافِقَ والمِفْصَلا
فطارَ بقحفِ ابنةِ الجنّ ذا شقاشقَ قد أخلقَ المِحملا
فمن يكُ يسألُ عن جارتى فإنّ لها باللّوى منزلا
عَظاءةُ أرضٍ لها حُلّتان مِن ورَقِ الطّلحِ لم تُغزَلا
وكنتُ إذا ماهممتُ ابتهلتُ وأحرى إذا قلتُ أن أفعَلا

***

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا إذا طالت عِلّة الواحد منهم وظنّوا أنّ به مَسًّا من الجنّ ، لأنه قتل حيّةً أو يَرْبوعا أو قُنفذا ، عمِلوا جِمالا من طين، وجعلوا عليها جُوالِق، وملئوها حِنطةً وشَعيرا وتمرا ، وجعلوا تلك الجِمال فى باب جُحْر إلى جهة المَغرب وقتَ غروب الشمس ، وباتوا ليلتَهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطّين ، فإنْ رأوا أنّها بحالها قالوا : لم تقبل الدِّيَة ، فزادوا فيها ، وإن رأوْها قد تساقطتْ وتبدّد ماعليهامن المِيرة قالوا : قد قُبِلت الدِّيَة ، واستدلّوا على شِفاء المَريض وضربوا بالدُّفّ، قال بعضُهم :

قالوا وقد طالَ عَنائِى والسَّقَمْ احمِلْ إلى الجنّ جِمالاتٍ وضُمّْ
فقد فعلتُ[1] والسَّقامُ لم يَرِمْ فبالّذى يَمْلِكُ بُرْئى أعتَصِمْ

وقال آخر :

فياليت أنّ الجنّ جازُوا جِمالتى وزُحزِحَ عنّى ماعَنانِى من السَّقَمْ
وياليتهم قالوا أعْطِنا كلَّ ماحوَتْ يمينُك فى حَرْبٍ عماسٍ وفى سَلَمْ
أعلِّلُ قلبى بالّذى يزعُمونه فياليتنى عُوفيتُ فى ذلك الزَّعَمْ

---

(١) فى د : « نكلت » .

وقال آخر :

أرى أنّ جِنّانَ النُّوَيرة أصبحوا ... وهم بين غضبانٍ عليَّ وآسِفِ

حملتُ ولم أقبــــلْ إليهم حمالةً ... تسكّنُ عن قلبٍ من السُّقمِ تالِفِ

ولو أنصفُوا لم يَطلُبوا غــيرَ حقِّهمْ ... ومن لىَ من أمثالهمْ بالتّناصُفِ !

تَغطّوْا بثوبِ الأرض عنّى ولو بَدَوا ... لأصبحتُ منهمْ آمِناً غــيرَ خائِفِ

* * *

وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائبِ ولم يَعرفوا له خبراً جاءوا إلى بئرٍ عاديةٍ[1] أو حفرٍ قديم ونادَوا فيه : يافلان ، أو يا أبافلانٍ ثلاثَ مرّاتٍ ، ويزْعمون أنّه إن كان ميّتا لم يَسمَعوا صَوْتا ، وإن كان حيّا سَمِعوا صَوْتا رُبّما توهّموه وَهْما ، أو سَمِعوه من الصَّدى ، فبَنَوا عليه عقيدَتَهم ، قال بعضُهم :

دعوتُ أبا المِغْــوارِ فى الحَفْر دَعْوةً ... فما آضَ صَوْتى بالّذى كنتُ داعياً

أظنّ أبا المِغــــوارِ فى قَعْرِ مُظلمٍ ... تجرّ عليـــــه الذّارياتُ السّوافِيَا

وقال :

وكم ناديتُه واللّيــل ساجٍ ... بِعادِيِّ البِئــارِ فما أجابَا

وقال آخر :

غابَ فلمْ أرجُــو له إيابَا ... والحفْر لا يَرجِع لى جَوابَا

وما قرأتُ مُــذْ نَأى كتابَا ... حتّى متَى أستنشِدُ الرّكابا

* عنه وكلٌّ يَمنَع الخِطابَا *

---

(١) عادية : قديمة .

وقال آخَر :

أَلَمْ تَعلمِى أَنّى دعوتُ مُجاشِماً ... من الجفر والظَّلماء بادٍ كُسورُها

فجاوَبَنى حـــتّى ظننتُ بأنّه ... سيَطْلع من جَوْفاء صعبٍ خدُورُها

لقد سكنتْ نفسِى وأيقنتُ أنّه ... سيُقدِم والدّنيا عجابٌ أُمُورُها

وقال آخَر :

دعوناهُ مِنْ عادِيّةٍ نَضَبَ ماؤُها ... وهَدَّم جالَيْها اختلافُ عُصورِ

فرَدّ جوابا ماشككتُ بأنّه ... قريب إلينـــا بالإياب يَصيرُ

أقوى فى البيت الثانى ، وسَكّن « نَضَبَ » ضرورةً كما قال :

* لو عُصْرَ منه البانُ والمِسْك انعصرْ *

***

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا فى الحرب ربّما أخرجوا النّساء فيَبُلْن بين الصّفّين يَروْن أنّ ذلك يُطفِىء نارَ الحرب ويقودُهم إلى السِّلْم .

قال بعضهم :

لقَـــونا بأبوالِ النّساء جَهالةً ... ونحن نُلاقِيهم بِبِيضٍ قَواضِبِ

وقال آخَر :

بالَتْ نساء بنى خُراشَةَ خِيفةً ... مِنّا وأدبَرَت الرجالُ شِـــلالا

وقال آخَر :

بالتْ نساؤُهُمُ والبيضُ قد أخذتْ ... منهمْ مآخِذَ يَستشفَى بها الكَلِبُ

وهذان البيتان يُمكِن أن يراد بهما أنّ النساء يَبُلْن خيفةً وذُعْرا ، لا على المعنى الّذى نحن فى ذكره ، فإذَنْ لا يكون فيهما دلالة على المراد .

وقال الآخر :

هيهات ردّ الخيـــل بالأبوالِ   إذا غـدَتْ فى صُوَر السَّعالِى

وقال آخر :

جَعلوا السُّيوف المَشْرَفِيَّةَ منهمُ   بَوْل النساء وقَلَّ ذاك غَنَاء

***

فأما ذِكرُهم عَزيف الجنّ فى المفاوز والسَّباسِب فكثير مشهور ، كقول بعضهم :

وخَرْقٍ تحـدّث غيطانه   حديثَ العَذَارى بأسْرارها

وقال آخر :

ودَوِّيَةٍ سَبْسَب سَمْلَقٍ   من البيد تَعزِف جِنّانُها[1]

وقال الأعشى :

وبَهْماءَ تَعزِفُ جِنَّانُهـــا   مناهلها آجِناتٍ سُدُمْ[2]

وقال :

وَبلدةٍ مِثل ظَهْر التُّرْسِ مُوحِشةٍ   للجنّ بالليل فى حافاتها زَجَلُ[3]

وقال آخر :

* بِبَيْداء فى أرجائها الجنّ تعزفُ *

وقال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من كَلْب يقال له عبيد بن الحُمارِس شجاعا ، وكان نازلا بالسَّماوة أيّامَ الرّبيع ، فلما حَسَرَ الرّبيع وقلّ ماؤه وأقلعت أنواؤه ، تحمّل إلى وادي تُبَـل ، فرأى رَوْضةً وغديراً ، فقال : روضةٌ وغدير ، وخطْبٌ يَسير ؛ وأنا لما

(١) السملق : القاع الصفصف .

(٢) ديوانه ٢٩

(٣) ديوانه ٤٤ .

حَويثُ مجير ، فنزل هناك ، وله امرأتان : اسمُ احداهما الرَّباب ، والأخرى خَوْلة ، فقالت له خَوْلة :

أرَى بلدةً قَفْرا قليــلا أنيسُها ··· وإنا لنَخْشَى إنْ دَجا الليلُ أهْلَها

وقالت له الرَّباب :

أرتك برَأْيِي فاستمعْ عنك قولها ··· ولاتأمَنَنْ جنَّ العَزيفِ وجَهْلها

فقال مجيبا لهما :

ألستُ كَمِيّــا فى الحروب مُجرَّبا ··· شُجاعا إذا شبَّت له الحَربُ مِحْرَبا

سريعاً إلى الهيْجا إذا حَمِسَ الوَغا ··· فأقسِم لا أعدو الغَدير منكَّبا

ثمّ صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة ـ وهى الأنثى من القَنافذ ـ فرماها فأقْصَمها[1] ومعها ولدُها ، فارتبطه ، فلما كان الليلُ هتف به هاتفٌ من الجنّ :

يابنَ الحارِسِ قد أسأتَ جوارَنا ··· وركبت صاحبنا بأمرٍ مُفظِعِ

وعقرتَ لَقْحَته وقُدْت فَصِيلَها ··· قَوْداً عَنِيفا فى المنيع الأرْفــعِ

ونزلتَ مَرْعًى شائِناً وظَلَمْتَنَا ··· والظّلم فاعِــلُه وخِيمُ المَرْتَعِ

فلَنطرُقَنَّك بالّذى أوْليْتنــا ··· شرٌّ يجنْك وما لَه مِنْ مَدْفعِ

فأجابَه ابنُ الحارِس :

يامدّعى ظُلمِي ولستُ بظـــالمٍ ··· اِسْمَع لديْك مَقالَتِى وتَسمَّعِ

إن كنتمُ جِنًّا ظلمتمْ فَنفذا ··· عُقِرتْ فشرّ عَقيرةٍ فى مَصْرعِ

لا تَطمَعوا فيما لدىَّ فما لَكُمْ ··· فيما حويتُ وحُزْتُه من مطمعِ

فأجابَه الجِنىّ :

ياضاربَ اللّقْحة بالعَضْب الأفَلّ ··· قد جاءكَ الموتُ وأوْفاكَ الأجَلْ

---

(١) أقصمها : قتلها فى مكانها .

وساقَكَ الحَيْنُ إلى جنِّ تُبَلْ فاليومَ أقوَيْتَ وأعيتْكَ الحِيَلْ[1]

فأجابه ابن الحارِس :

ياصاحبَ اللَّقحة هل أنت بَجَلْ مستمِعٌ مِنِّى فقد قلتَ الخطَلْ

وكثرة المَنطِق فى الحربِ فشَلْ هَيَّجت قَمْقَاما من القوم بَطَلْ[2]

ليثَ ليُوثٍ وإذا هَمَّ فَعَلْ لا يرهَبُ الجنَّ ولا الإنسَ أجَلْ

* من كان بالعقوة من جن تُبَلْ[3] *

قال : فسَمِعَهما شيخٌ من الجنّ ، فقال . لا واللهِ لا نرى قتل إنسانٍ مثل هذا ثابت القَلْب ماضى العزيمة ، فقام ذلك الشّيخ وحَمِد الله تعالى ثمّ أنشد :

يا بنَ الحارِس قد نزَلتَ بلادَنا فأصبتَ منها مشرَبا ومنَاما

فبدأتَنا ظُلْما بعقْر لقوحنا وأسأتَ لمّا أن نطقتَ كلاما

فاعمَد لأمرِ الرُّشْدِ واجتَنِب الرَّدى إنا نَرَى لك حُرْمة وذِماما

واغرمْ لِصاحبنا لَقُوحاً متبعا فلقد أصبْتَ بما فعلتَ أثاما

فأجابه ابنُ الحارس :

الله يَعلَم حيث يُرفَع عَرشُه أنّى لأكرهُ أن أصيبَ أثاما

أمّا ادّعاؤك ما ادّعيتَ فإنّني جئتُ البِلادَ ولا أريدُ مقاما

فأسمتُ فيها مالَنا ونزلتُها لأُريحَ فيها ظَهْرنا أيّاما

فليَغْدُ صاحبكم علينا نُعطِه ماقد سألت ولا نَراه غَراما

ثم غرم للجنّ لَقوحا مُتْبِعاً للقُنْفذ ووَلَدها .

وهذه الحكاية وإن كانت كَذِبا إلاّ أنها تتضمّن أدبًا ، وهى من طَرائف

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) القمقام : السيد .

(٣) العقوة : المحلة .

أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وأمتاعها ؛ ويقال : إنّ الشرقيّ بن القُطاميّ كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره .

***

فأما مذهب العرب في أنّ لكلّ شاعر شيطانا يلقي إليه الشعر فمذهب مشهور ، والشعراء كافّة عليه ، قال بعضهم :

إنّي وإن كنتُ صغيرَ السنّ   وكان في العين نبوٌّ عنّي

فإنّ شيطاني أميرُ الجنّ   يذهب بي في الشعر كلَّ فنّ

وقال حسّان بنُ ثابت :

إذا ماترعرع فينا الغلام   فما إنْ يقال له : مَن هُوَهْ ؟

إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ   فذلك فينا الذي لا هُوَهْ

ولي صاحبٌ من بني الشيْصبانِ   فطوْرا أقولُ وطوْرا هُوَهْ

وكانوا يزعمون أنّ اسمَ شيطان الأعشى مِسحَل ، واسم شيطان المخبّل عمرو ، وقال الأعشى :

دعوتُ خليلي مِسحَلا ودَعْوا له   جهنّام جَدْعا للهجين المذمّمِ (١)

وقال آخر :

لقد كان جنّيّ الفرزدقِ قُدوةً   وما كان فينا مِثل فَحْل المخبّل

ولا في القوافي مِثل عمرٍو وشَيْخِه   ولا بعدَ عمرٍو شاعرٌ مِثل مِسْحَلِ

وقال الفرزدق يصفُ قصيدته :

كأنّها الذهب العِقيانُ حبّرها   لسانُ أشعرِ خلقِ الله شَيطانا

---

(١) وجهنام تابعة الأعشى .

وقال أبو النَّجْم :

أنّى وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ   شيطانه أنثى وشيطانِى ذَكَرْ

وأنشد الخالعُ فيما نحن فيه لبعض الرُّجّاز :

إن الشياطين أتَوْنى أربَعهْ   فى غَلَس اللّيلِ وفيهم زَوْبَعَهْ

وهذا لا يدلّ على ما نحن بصدده من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان ؛ فلا وَجْه لإدخاله فى هذا الموضع .

***

ومن مذاهبهم أنّهم كانوا إذا قتلوا الثُّعبانَ خافوا من الجنّ أن يأخذوا بثأره ، فيأخذون رَوْثةً ويفتّونها على رأسها ، ويقولون : روثة راثَ ثائرك .

وقال بعضهم :

طرحْنا عليه الرَّوْثَ والزّجْرُ صادقٌ   فراثَ علينا ثأرُه والطَّوائلُ

وقد يُذَرُّ على الحيّة المقتولة يسيرُ رماد ، ويقال لها: قتلكَ العينُ فلا ثأرَ لكِ ؛ وفى أمثالهم لِمَن ذهب دمُه هَدَرا : وهو قتيلُ العيْن ، قال الشاعر :

ولا أكنْ كقَتيلِ العيْن وَسْطَكُمُ   ولا ذَبيحة تَشْريق وتَنْحار

***

فأما مَذهَبهم فى الخرَزات والأحجار والرُّقى والعزائم فمشهور ، فمنها السُّلْوانة ـ ويقال السُّلْوة ـ وهى خَرَزة يُسقَى العاشقُ منها فيَسْلُو فى زَعْمهم ، وهى بيضاء شَفّافة ، قال الراجز :

لو أشرَبُ السُّلْوانَ ما سَلِيتُ   مابى غِنًى عنكمْ وإنْ غَنِيتُ

السُّلْوان : جمعُ سُلْوانة .

وقال اللّحيانيّ : السُّلوانة تُرابٌ من قبرٍ يُسقَى منه العاشق فيَسلُو ، وقال عُروةُ ابن حزام :

جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حُكمَه وعرّاف نجدٍ إنْ هما شَفَيانِي

فقالا نعم : نَشفِي من الدّاء كُلِّه وقاما مع العُوّاد يَبتَدِرانِ

فما تركا من رُقْيَةٍ يَعرِفانها ولا سَلوةٍ إلّا وقد سَقيانِي

وقال آخر :

سقَوْنِى سَلْوَةً فسلوتُ عنها سَقَى اللهُ المنيّةَ مَن سَقانِي

أى سلوتُ عن السَّلْوة واشتدّ بى العِشق ودام . وقال الشّمردل :

ولقد سُقِيتُ بسَلْوةٍ فكأنّما قال المُداوِى للخَيالِ بها أزْدَدِ

* * *

ومن خرزاتهم الهِنَّمة تُجتلَب بها الرجالُ وتُعطَف بها قلوبُهم، ورُقيتُها : أخذته بالهِنَّمة ؛ باللّيل زَوْج وبالنّهار أَمَة .

ومنها الفَطْسة والقَبْلة والدَّرْدَبِيس ؛ كلّها لاجتلاب قلوب الرّجال ، قال الشاعر :

جمعن من قبلٍ لهنّ وفطْسةٍ والدَّرْدَبِيس تمائماً فى منظمِ

فأُنقاد كلّ مشذّب مَرِسِ القُوَى لحبالهنّ وكل جِلْدٍ شَيْظَمِ (١)

وقيل : الدَّرْدَبِيس خَرَزة سوداء يتحبّب بها النّساء إلى بُعولتهن ، توجد فى القُبور العاديّة ، ورُقيتُها : أخذته بالدَّرْدَبِيس ، تُدِرّ العَرَق اليبيس ، وتذر الجديد كالدَّرِيس ، وأنشد :

قطعتُ القيدَ والخرزات عنّى فمن لى من عِلاج الدَّرْدَبِيسِ !

---

(١) الشيظم : الطويل الجسم .

وأصل الدَّرْدَبِيس الداهية ، ونُقِل إلى هذه لقوَّة تأثيرها .

* * *

ومِن خَرَزاتهم القِرْزَحلة ، أنشد ابنُ الأعرابيّ :

لا تنفَع الفرْزَحْلةُ العجائزَا   إذا قطعنا دونَها المَفاوِزَا

وهى من خَرَز الضَّرائر ، إذا لبستْها المرأةُ مالَ إليها بعلُها دونَ ضَرَّتها .

ومنها خَرَزة العُقرة تشُدّها المرأة على حَقْوَيْها فتُمنَع الحبل ، ذكَر ذلك ابنُ السِّكِّيت فى إصلاح المنطق .

ومنها الينْجَلِب ، ورُقْيتها : أخَذتُه بالينْجَلِب ، فلا يرِمْ ولا يَغِبْ ، ولا يزَلْ عند الطُّنُب .

ومنها كَرَارِ ، مبنيّةٌ على الكسر ، ورُقْيَتها : يا كَرارِ كُرِّيه ، إنْ أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبرَ فضُرِّيه ، مِنْ فَرْجِهِ إلى فيه .

ومنها الهمْرة ورُقْيتها : ياهمْرَة أهمريه ، من أستِه إلى فيه ، ومالِه وبَنِيه .

ومنها الخَصْمة خرزة للدّخول على السّلطان والخصومة ، تُجعَل تحتَ فصّ الخاتَم أو فى زرّ القَمِيص أو فى حَمائِل السّيف ، قال بعضهم :

يُعلِّق غيرى خصمة فى لِقائهمْ   ومالى عليكمْ خصمةٌ غيرُ منطقى

ومنها الوَجِيهة ، وهى كالخَصْمة حمراء كالعَقِيق .

ومنها العَطْفة ، خَرَزة العطف ، والكَحْلة ، خَرَزة سوداء تُجعَل على الصِّبيان لدفع العين عنهم ، والقبَلة خَرَزة بيضاء تُجعَل فى عُنُق الفرَس من العين ، والقَطْسة خَرَزة يمرَض بها العدوّ ويُقتَل ، ورُقيتها : أخذته بالقَطْسة ، بالثُّوباء والعطسة ، فلا يَزال فى تَعْسَة ، من أمرِه ونَكْسَة ، حتى يَزُورَ رَمْسَه .

ومن رُقام للحُبّ : هَوابَه هوابَه ، البرقُ والسّحابه ، أخذتُه بمركّن ، فحبه تمكّن . أخذته بإبرة ، فلا يزَل فى عبْره . خلّيته يأشق[1] ، فقلبُه لا يهدا . خلّيته بمبرَد ، فقلبه لا يبرُد.

وترقِى الفاركُ زوجَها إذا سافرعنها فتقول : بأفول القمر ، وظلّ الشّجر ، شِمال تشمله ، ودَبور تدبره ، ونَكباء تنكُبه ، شِيكَ فلا انتعَش ؛ ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة ، وتقول : حصاة حصّت أثره ، نواة انأت داره ، روثة راثَ خبرُه لقمته ببعرة .

وقالت فاركٌ فى زوجها :

أتبعتُه إذْ رَحَل العيسَ ضُحَى بعد النّواة رَوْثةً حيثُ انتوى

* الرّوثُ للرّثى وللنّأى النّوَى *

وقال آخَر :

رَمَتْ خلفَه لمّا رأت وشْكَ بينِه نواةً تلتْهــــا رَوْثة وحَصاةُ

وقالت: نأتْ منكَ الدّيارُ فلا دَنَتْ وراثَتْ بِك الأخبارُ والرّجَعاتُ

وحصّت لك الآثار بعد ظُهورِها ولا فارَق التّرحال منك شَتاتُ

وقال آخَر يُخاطِب امرأته :

لا تقذِفِى خلْفى إذا الرّكبُ اغتدَى روثةَ عَــــيْرٍ وحَصاةٍ ونَوَى

لن يَدفع المقدارَ أسبابُ الرُّقَى ولا التّهاويلُ على جِنّ الفَــــلا

هذا الرّجز أوردَه الخالع فى هذا المَعرض ، وهو بأن يدلّ على عكس هذا المعنى أولى ، لأنّ قوله : «لن يَدفعَ المقدارَ بالرُّقَى ، ولا بالتّهاويل على الجِن» كلام يُشعِر بأنّ قذف الحصاة والنّواة خَلفَه كالعُوذة له ، لا كما تفعله الفارِكُ التى تتمنّى الفِراق .

* * *

---

(٣) الإشنى : الإسكاف .

فأمّا مَذهبُهم فى القِيافة والزّجْر والكهانة واختلافُهم فى السّانح والبارح ، وتشاؤمهم باللفظة والكلمة وتأويلُهم لها وتيمّنُهم بكلمة أخرى ، وما كانوا يفعلونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكلّه مشهورٌ معروف لاحاجةَ لنا إلى ذكره هاهنا .

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام فى قوله: « نَشْرة » ، فإنّ النّشرة فى اللغة كالعُوذَة والرُّقْية ، قالوا : نَشّرْت فلانا تَنْشيرا ، أى رَقَيْتُه وعوّذته . وقال الكلابىّ : إذا نشر المَسْفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال ، أى يذهب عنه مابه سَرِيعاً .

وفى الحديث أنّه قال : «فلعلّ طبًّا أصابه»، يعنى سِحْرا ، ثم عَوّذَه بـ «قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الناس » ، أى رَقاه ، وكذلك إذا كُتب له النُّشرة .

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة ، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن توقيف من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

تم الجزء التاسع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء العشرون

فهرس الموضوعات

